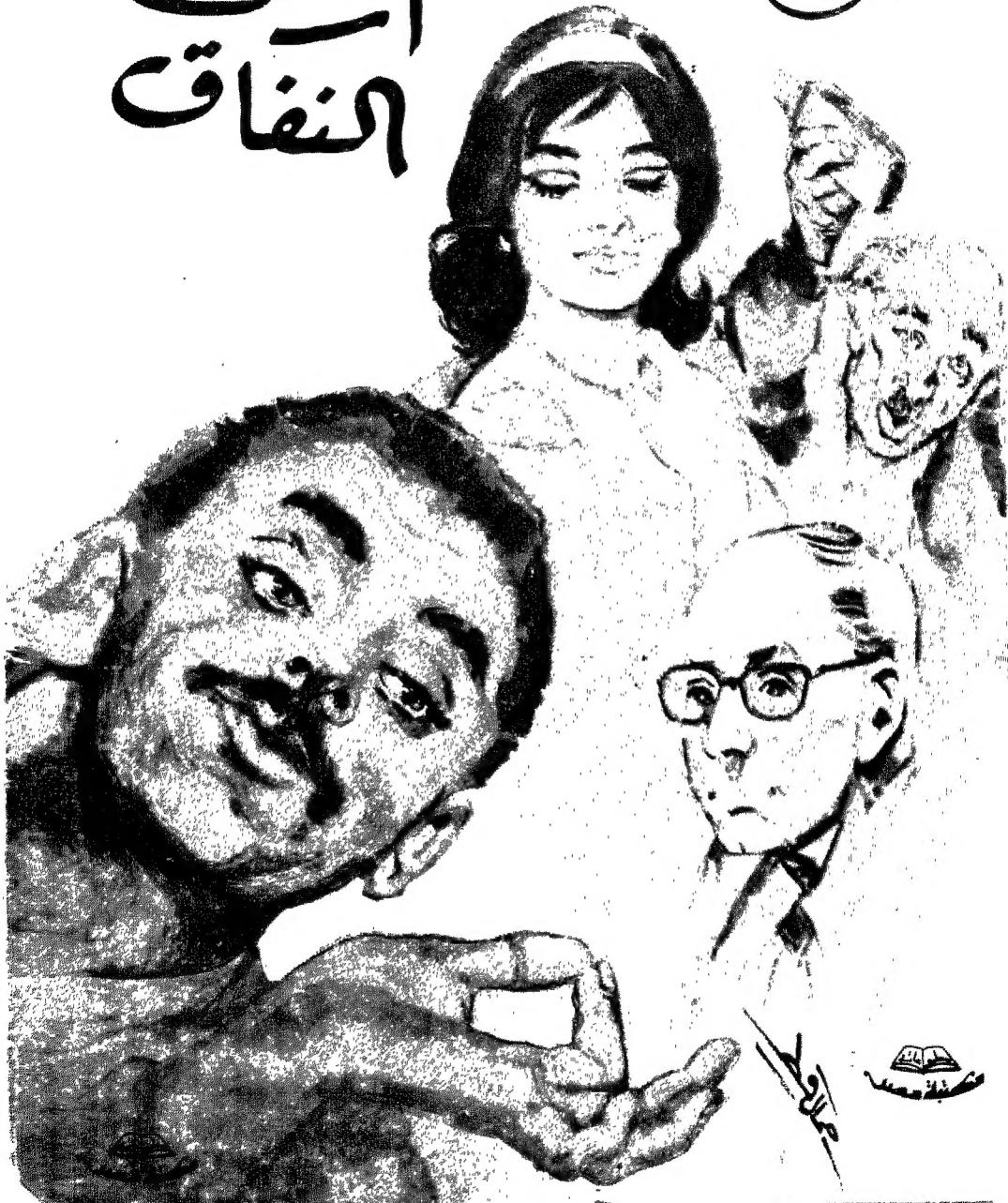


أضف النفاق

لوسيفر السبعيني



يوسف السباعي

أرض النفاق

دار مصر للطباعة

سميد جودة السحار وشركاه

للمؤلف

(قصص قصيرة ١٩٤٧)	أطياف
(رواية ١٩٤٧ ٠٠٠٠٠)	نائب عزرائيل
(قصص قصيرة ١٩٤٨)	اثنتا عشرة امرأة
(١ ١ ١٩٤٨)	خبايا الصدور
(١ ١ ١٩٤٨)	يا أمة ضحككت
(١ ١ ١٩٤٩)	اثنا عشر رجلا
(رواية ١٩٤٩ ٠٠٠٠٠)	أرض النفاق
(قصص قصيرة ١٩٤٩)	في موكب الهوى
(١ ١ ١٩٤٩)	من العالم المجهول
(١ ١ ١٩٥٠)	هذه النفوس
(رواية ١٩٥٠ ٠٠٠٠٠)	إلى راحلة
(قصص قصيرة ١٩٥٠)	مبكي العشاق
(١ ١ ١٩٥٠)	بين أبو الريش وجنيثة ناميش
(١ ١ ١٩٥١)	أغنيات
(مسرحية ١٩٥١ ٠٠٠٠٠)	أم رتيبة
(قصص قصيرة ١٩٥١)	هذا هو الحب
(١ ١ ١٩٥١)	صور طبق الأصل
(رواية ١٩٥٢ ٠٠٠٠٠)	بين الأطلال
(١ ١ ١٩٥٢)	السقامات
(قصص قصيرة ١٩٥٢)	سمار الليالي
(١ ١ ١٩٥٢)	الشيخ زعرب
(١ ١ ١٩٥٢)	نفحة من الإيمان
(مسرحية ١٩٥٢ ٠٠٠٠٠)	وراء الستار
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	ست نساء وستة رجال
(١ ١ ١٩٥٣)	هذه الحياة

(رواية ١٩٥٣)	البحث عن جسد
(مسرحية ١٩٥٣)	جمعية قتل الزوجات
(رواية ١٩٥٣)	فديتك ياللي
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	ليلة خمر
(..... ١٩٥٣)	هسة عابرة
(رواية في جزأين ١٩٥٤)	رد قلبي
(قصص قصيرة ١٩٥٥)	ليال ودموع
(رواية ١٩٥٦)	طريق العودة
(مقالات ١٩٥٧)	أيام تمر
(..... ١٩٥٨)	من حياتي
(..... ١٩٥٩)	لطمات ولثام
(رواية في جزأين ١٩٦٠)	نادية
(..... ١٩٦١)	جفت الدموع
(مقالات ١٩٦١)	أيام مشرقة
(..... ١٩٦١)	أيام وذكريات
(..... ١٩٦٢)	أيام من عمري
(رواية في جزأين ١٩٦٤)	ليل له آخر
(مسرحية ١٩٦٦)	أقوى من الزمن
(رواية في جزأين ١٩٦٩)	نحن لا نزرع الشوك
(رواية ١٩٧٠)	لست وحدك
(مقالات ١٩٧٠)	من وراء الغيم
(..... ١٩٧١)	أيام عبد الناصر
(رواية ١٩٧١)	ابتسامة على شفتيه
(رحلات ١٩٧١)	طائر بين المحيطين
(قصة ١٩٧٣)	العمر لحظة

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الإهداء

إلى خير من استحق الإهداء
إلى أحب الناس إلى نفسي
وأقربهم إلى قلبي
إلى يوسف السباعي
ولو قلت غير هذا
لكنت شيخ المنافقين
من أرض النفاق
يوسف السباعي

مقدمة

أهو الغرور الذى يبعثنى إلى أن أهدى كتابى إلى نفسى ؟
أم هى الأنانية ؟

لا أكذبكم القول .. أنى — ككل إنسان — أنا فى مغرور ..
ولكنى أؤكد لكم أن ذلك لم يكن هو الدافع إلى هذا الإهداء
الجرئ .. وأسميه جريئاً لأنها لا شك جرأة منى — وأنا المنافق الذى
طالما بدت للناس متواضعاً .. منكراً لذاته — أن أفصح نفسى
فأخصها .. دون بقية خلق الله .. بإهداء الكتاب .. وأتممها
علناً .. بأنها أحب الناس إلى .!

ما الذى دفعنى إلى هذه المغامرة ؟. لم لم أهد كتابى إلى عزيز
لدى ؟ والأعزاء كثيرون فى أرض النفاق .. فأوفر على نفسى ما قد
يوجه إلى من لوم وسخرية ؟.

دفعنى إليها أمران .. أولهما .. أنى لا أود أن أكون — كما قلت
فى الإهداء — أول المنافقين فى أرض النفاق .. وأنى لا أرغب فى أن
أتهم بأنى أنهى عن خلق وآتى مثله .. أو أنى آمر الناس بالبر وأنسى
نفسى .. بل أريد أن أكون أول من يخلع رداء النفاق .. فى أرض
النفاق .. فأبدو على حقيقتى .. أناً مغروراً .

وثانيهما .. أنى أود أن أكرم نفسى وهى على قيد الحياة .. فليشد
ما أخشى ألا يكرمنى الناس .. إلا بعد الوفاة .. ونحن شعب يحب
الموتى .. ولا يرى مزايا الأحياء حتى يستقروا فى باطن الأرض .
إنى أريد كل شيء .. أريد ما بالدنيا وأنا فى الدنيا .. أما الخلود ..

والذكرى .. والتاريخ .. فما حاجتى إليها .. وأنا عظام غرة ..
تنوى فى قبر بقفرة .

ما حاجتى إلى تقدير الأحياء .. وأنا بين الأموات ؟ .. ما
حاجتى إلى أن يذكرونى فى الدنيا وأنا فى الآخرة ١١ ويمجدونى فى
الأرض وأنا فى السماء !

أنى أبغى المديح الآن .. والتقدير الآن .. وأنا أسمع وأحس ..
فما أمتعننى شئ كسماع المديح والتقدير .. قولوا عني مخلصين ..
وأنا بينكم .. إني كاتب كبير قدير شهير .. وإني عبقرى ..
المعنى .. لوذعى .

فإذا مات ، فشيءونى بألف لعنة ، واحملوا كتيبى فأحرقوها
فوق قبرى ، واكتبوا عليه : « هنا يرقد أكبر حمار .. أضاع عمره
فى لغو وهذر » .

إني لاشك رابح كاسب .. لقد سمعت مديحك وأنا حي محتاج
إليك .. وضممت أذنى عن سبابكم وأنا ميت ، أغنائى الله عنكم
وعن دنياكم .

هل علمتم لم أهديت الكتاب إلى نفسى ؟ . لأننى أحب نفسى
وأقدرها ، ولدتى الجرأة على أن أقول ذلك .

إليك الكتاب بعد هذا .. لقد حاولت جهدى أن أكون فى
كتابته .. كما كنت فى إهدائه .. غير منافق ، وأن أكتب فيه بما
استطعت من الصراحة .

ولست أزعم أنى نجحت تمامًا .. فهناك موضوعات ، لم أستطع
طرقها . وهناك سطور شطبتها بعد أن كتبتها .. ولكن لم يكن من
ذلك بد ، على الأقل لكى يمكن للكتاب أن يرى النور ، ولكى
يمكن لكم أن تقرأوا الكتاب .. هل فهمتم ١٢

يوسف السباعى

(١)

تاجر أخلاق

النزاهة والعفة والمروءة
والتضحية !!

أوتظن أن هذا هو ما يدفع بالمرء إلى
مرتبة الزعماء في هذا الزمن ؟ .. هل
تظن أن زعماء هذا الزمن يجب أن تتوافر
فيهم هذه المزايا والأخلاق ؟

تاجر أخلاق بالجملة والقطاعي ...

« المخل له فروع في جميع أنحاء للعالم »

أدهشتني اللافطة .. كما لا شك أنها تبعث الدهشة في نفس كل من يراها
غیری .. فما رأيت من قبل تاجر أخلاق ، وما سمعت قط أن الأخلاق تباع
لا بالجملة ولا بالقطاعي .

وهزئت رأسي في حيرة .. وخيل إلي أني قد أخطأت القراءة فعدت مرة ثانية
أحقق فيها النظر وأمعن في قراءتها مرة بعد مرة .. فوجدت أني لم أخطئ في حرف
واحد ، وأن الرجل حقاً تاجر أخلاق .. أو على الأقل هذا هو ما يدعيه .

كان الوقت بعيد الظهر .. وقد انتهت من تناول وجبة دسمة شهية ..
عمادها : الأرناب والملوخية .. وأركانها ورق العنب المحشو ، وطبق من
الدمعة .. وحواشيها كمية لا بأس بها من سلطة الطحينة والخيار المخلل ..

وخاتمها شقة مثلجة من بطيخة « شليان بلاك » أصلى .
انتهيت من الغداء .. وما كان بودى أن أنتهى .. فشتان عندى بين مباشرة
الغداء والانهاء منه .. وشتان بين حالتي فى أثناء الغداء وحالتي بعده .. ولا سيما
إذا كان غداء صيف وملوخية بالذات .

فأنا فى الغداء صائل جائل .. مكر بلا فر .. مقبل بلا إدار ، كأنى الحجاج
فى قوله : « لا يقعق لى بالشنان » ولا يغمز جانبى كتغماز التين « لا أترك ميدان
المائدة حتى آخر طبق وآخر لقمة .

أما بعده — أعنى بعد الغداء — فأنى خائر القوى ، مسترخى الأطراف ،
طريح مكدود ، حامل الحس ، متبلد الذهن .. فلقد صرعتنى الطبايق بعد أن
أفنيته .. وهزمتنى بعد أن كدستها فى الوعاء الذى ما ملأ ابن آدم شرًا منه ،
وأحسست بثقل فى معدتى كأنى قد ملأته بالحجارة .

وهكذا جلست كعادتى بعد الغداء .. وقد أحسست بوطأته .. وشعرت
بالنوم يهاجمنى بلا رفق ولا هوادة وكرهت أن أستسلم له .. فما كان يتعبنى شيء
قدر النوم بعد أكلة ثقيلة دسمة .

وخرجت إلى الشرفة ، وتمددت فى مقعد مريح .. وأمسكت بإحدى
الصحف أستعين بها على طرد النوم .. ولكنى كنت كالمستجير من الرمضاء
بالنار .. فلقد ازداد ذهنى بالقراءة تبلدًا ووجدت النوم يتسلل إلى أجفانى تسلل
الحب إلى القلوب الخالية .. وأخذت أنظر إلى الصحيفة فأجد حروفها تتراقص ،
وتترنخ ، وتتداخل ، وتشابك ، وإذا بى أقرأ منها كلامًا هو أبعد ما يكون عن
حقيقتها ، كلامًا من وحى الذهن التائه الخالم .. وأحس برأسى يسقط فجأة على
صدرى ، أو على كتفى ، فأهب من غفوتى ، وأعود إلى اليقظة والانتباه .

ولست أدرى كم من الزمن دامت تلك الغفلات المتقطعة ، التى كنت أستغرق
فيها .. عندما تنهت فجأة وعزمت على أن أخرج للسير خارج الدار .. بعد أن
أيقنت أنه لا سبيل لمقاومة النوم مع استمرار الاستلقاء على الأريكة فى هذا الوضع

المرج ، وبعد أن أيقنت أن القراءة هى خير مَنوم يتناوله إنسان فى مثل حالتى .
وهكذا طردت النوم من عيى ، وتحاملت على نفسى ، ونهضت حاملا
الوعاء المكس الممتلىء .. فارتديت قميصًا وبنطلونًا ، وحذاء من الكاوتش ؛
وتناولت عصا خفيفة ، كنت دائماً أستعملها كرفيق سير ، ووضعت على رأسى
قبعة من الفل ، وعلى عيى منظرًا أسود ، وغادرت الدار .

كنت أقطن فى أحد أطراف المدينة .. وكانت دارى تقع فى أول طريق قد
تأثرت فى بدايته بضعة منازل صغيرة ، وامتدت على جانبيه أشجار البانسيانس
التي تتكاثر أوراقها صيفًا ، تكسو هاماتها أكداً من الزهور الحمر المشتعلة
المتأججة .

سرت فى الطريق ، وجاوزت الدور إلى الخلاء ، وهبت على نسمات ،
ملأنتى نشاطًا .. فأحسست بخمول الجسد قد تطاير ، وركود الذهن قد تبدد ،
وخفت معدنى شيئًا فشيئًا ، فلم أعد أحس بذلك الثقل الذى كنت أحسن به ،
فأمعنت فى السير .

وطال لى السير .. حتى وجدتنى أتوقف أمام حانوت قد قام على أحد جوانب
الطريق .

وتملكنى الدهش .. فما كنت قد رأيت الحانوت من قبل .. رغم تعودى
السير فى الطريق ، وزاد من دهشتى أن البقعة التى أقيم فيها الحانوت كانت مقفرة
خالية ، لا يكاد يمر بها إنسان ، وكان من الغباوة والحمق أن يحاول تاجر أيًا كان
أن يتخذ من البقعة المقفرة سوقًا لتجارته .. إلا إذا كان قد نوى أن يبيع بضاعته
لنفسه أو للجن والشياطين .

واقتربت من الحانوت لأتبين أى نوع من الحوانيت يكون ، ولم يبد على
مظهره الخارجى ، ما يستدل منه على أنه مقهى من تلك المقاهى الخلوية ، التى
تقام فى أطراف المدينة ، والتى يلجأ إليها الناس لينعموا بالهدوء والسكينة .. إذ
لم أجد أثرًا المناضد أو مقاعد صفت خارجها ، ووقفت أمام الحانوت ، ورفعت

بصرى إلى أعلى ، فقرأت اللافتة العجيبة : « تاجر أخلاق .. بالجملة والقطاعى » .

وعلت وجهى ابتسامة عريضة ، وانطلقت من فمى ضحكة خافتة :
« تاجر أخلاق » !!

هذا رجل مجنون ولا شك ، فما خطر بيالى قط قبل أن أرى اللافتة أن الأخلاق بضاعة يمكن الاتجار فيها .

أما ترى الرجل نصابًا محتالا ، وأن الاتجار بالأخلاق قد أضحى نوعًا جديدًا من الدجل وطريقة مبتكرة للضحك على السذج والبسطاء ؟
ولم لا .. وهل يصعب على الرجل أن يجد من أصحاب الجهالة زبائن يتعاون بضاعته ؟!

ولكن الرجل محتال غبى ، ودجال أحمق ، فما أظنه فى تلك البقعة النائية الخالية يجد أى نوع من أنواع الزبائن ، لا جاهلا ولا غير جاهل ، لقد كان خيرا له أن يشيد حانوته فى وسط المدينة ، أو فى حى من أحيائها العامرة بالمغازيب والمخابيل .

ودفعنى حب الاستطلاع إلى التقدم داخل الحانوت فقد كانت المسألة تستحق الاستطلاع ، ولم أشك قط فى أننى أمام مورد تسلية ومنبع فكاهة ، وأن بصاحب الحانوت لوتة أو خبلا أو مسًا من فلسفة .

ووقع بصرى على صاحب الحانوت .. وقد قبع بين كوم من (الشوالات) المنتفخة ، وأطرق برأسه .. واستغرق فى صمت عميق .. ووقفت أتأمله برهة ، فوجدته كهلا قد وهن منه العظم ، ورق الجسد ، وغطى شيب رأسه (بطاقيّة) بيضاء ، وتدلّت لحيته الطويلة على صدره .. وبدت عروقه الخضر بارزة تحت جلده الأبيض الرقيق ، وغطى جسمه بعباءة سوداء ، ودس قدميه فى (مركوب) أحمر .

ولم أجد فى منظر الرجل ما يبعث على الخشية .. وماذا أخشى منه وهو على

حاله تلك من الوهن والعجز . وتقدمت خطوة أخرى فأحس إلى الرجل وانتفض في مقعده ، فلقد باغته رؤيتي ، وهو الذى لم يتعود أن يرى أحداً يطرق حانوته ، فتنحى من البيع والشراء بأن يقبع فى صمت ويأس بين أكداس بضائعه المنتفخة المكتظة ، لا يأمل فى شار أو زائر ..

وأقرأته السلام فى أدب واحترام خشية أن يكون جنونه من نوع شرير خطر ، ولكن الرجل رد على تحيتي فى سكون وتؤدة ، جعلانى أبدل برييتي فى عقله رية فى عقل ، وجعلنى أراجع نفسى مرة ثانية .. وعاودنى الشك فى صحة قراءتى اللافتة — رغم قراءتى لها ما يربو على المائة مرة — وقلت لنفسي : إن البصر خداع ، وإنه لا شك قد خدعنى فى قراءة اللافتة .. فأبداها على غير حقيقتها . وأصابتنى حيرة شديدة .. ودفعنى الشك إلى التردد ، فلقد تصورت ما يمكن أن يقول عنى الرجل ، وهو على مثل ما يبدو من عقل وحكمة ، ولا يعدو أن يكون تاجرًا عاديًا .. لأى نوع من أنواع البضائع .. تاجر غلال .. تاجر عطار .. أى شيء من هذا القبيل ، تصورت ما يمكن أن يقول عنى ، إذا ما سألته أن يبيعنى « أخلاقًا » ..

لنصوّر أى إنسان ماذا يمكن أن يقول عنه أى تاجر فى الطريق إذا ما ذهب إليه وسأله أن يبيعه أخلاقًا .

مجنون ولا شك !!

وهكذا لم أر خيرًا من التحفظ فى حديثي مع الرجل ، وأن أحاول أن أثبت من خلال الحديث حقيقة بضاعته ، وهل هى بضاعة عادية ، كغيرها من البضائع التى يتجر بها الناس .. أم هى حقًا كما تقول اللافتة : « أخلاق بالجملة والقطاعى » .

وبدأته الحديث قائلاً :

— سلامات يا حاج .. كيف الحال ؟

وهز الرجل رأسه ببطء :

- رضا .. الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .
- كيف حال السوق عندكم ؟
- والله « موش ولا بد » .. الحال راكدة ، والسوق نائمة ، والبضائع مكدسة كما تراها .
- ولكن ما سبب فى هذا الكساد ؟
- من يدري !
- لم لا تعلن عنها ؟ إن الإعلان قد أضحى شرطاً أساسياً للنجاح ، إننا قد أضحينا فى زمن الإعلان . الإعلان عن كل شيء .. عن البضائع والأعمال ، وعن الأجساد والرجال ، فما بالك لا تعلن عن بضاعتك ؟
- ورأيت الرجل يتسم فى سخرية :
- أنا أعلن عن بضاعتى ؟. أعلن عن شيء لا يجهله مخلوق .. أعلن عن شيء لا يستغنى عنه إنسان .. هذا والله هو الجنون .
- ولم أجد فى قول الرجل ما يدلنى على نوع بضاعته ، فقد كان قوله عامًا ، ينطبق على كثير من أنواع البضائع .
- ولم أجد بداً من أن أتجه إلى بغيتى من أقصر طريق ، فقلت للرجل ببساطة :
- هل أستطيع أن أجد لديك بعضاً من ..
- ولم أتم حديثى ، أو أفسر مطلبى ، بل أشرت إلى الأكياس إشارة عامة لا تحدد شيئاً بالذات لعل الرجل نفسه يسمى شيئاً مما يبيع .. ولكنه لم يزد على أن أشار برأسه بالموافقة علامة على أنه يوجد لديه « بعض من .. »
- وعدت أستدرج الرجل بقولى :
- من أى نوع ؟
- من جميع الأنواع .
- أيمكننى أن أرى بعضها على سبيل العينة ؟
- البضاعة أمامك . قلب كما تشاء .

ووجدت أن المسألة قد حلت ، فليس عليّ إلا أن « أدب » يدي في كل شوال فأفحص ما به .. ولا شك بعد ذلك أني سأعرف ماذا يبيع الرجل .
ومددت يدي في أقرب الأكياس التي فوجدت به حبات صغيرة كحبات الكسبرة الجافة .. وأخذت أفحصها فحصى خبير عليم ، كأني أعلم مقدار جودتها أوردايتها ثم أعدت العينة إلى الكيس .. ومددت يدي في كيس آخر ، فوجدت به مسحوقاً أصفر اللون ككبريت العمود ؛ ورفعت منه حفنة إلى أنفي ، فلم أجد به رائحة الكبريت ، وانتقلت إلى كيس آخر .. فوجدت به مسحوقاً أبيض ، أشبه بالملح .. وهكذا أخذت أنقل يدي من كيس إلى كيس ، والرجل يلحظني من طرف خفي .

وفحصت معظم ما في الأكياس التي كانت في متناول يدي ، فلم يزدني الفحص إلا حيرة ودهشة ، إذا كانت الأكياس لا تحوى إلا مساحيق ومواد شديدة الشبه بتلك التي يبصرها المرء في حانوت العطار ، ولا يعرف لها اسماً .
وانتهى بي الأمر إلى أن أقنع نفسي أن الرجل لا بد وأن يكون عطاراً بعقله لوثة بسيطة ، أو كما يقولون « هفة » تجعله يصير على أن يسمى عطارته « أخلاقاً » ولا أظنه الأول من نوعه ، فقد سبق لي أن صادفت بائع « فول مدمس » لا يبيع بضاعته إلا إذا طلب منه الشاري « لوز » وبائع « طعمية » لا يطيق أن يطلق أحد على بضاعته سوى « كباب » ، ولست أشك في أنها طريقة لتجويد البضاعة والترويج لها ، أو هو نوع من التشبيه الذي يحذف فيه المشبه ويبقى المشبه به ، كقولي : إذا ما رأيت حسناء : « رأيت قمرًا » .. أو إذا رأيت بعض صحبي « رأيت حميراً » .

وحاولت أن أجد لنفسى صلة بين العطارة والأخلاق ، حتى أبرر تسمية الرجل لنفسه تاجر أخلاق .. فلم أستطع .. فاكتفيت بأن قلت لنفسى « لله في خلقه شئون » .

كل هذا طاف برأسي في ثوان معدودات وأنا أدس يدي في الأكياس

وأخرجها بيضاء من غير سوء .
وجلس الرجل يرقبني وأنا أنقل يدي من كيس إلى كيس .. وأخيرًا سألتني في هدوء بعد أن أبصر حيرتي :

— ماذا تريد ؟

وأسقط في يدي .. وزادت حيرتي .. ولكنني سألته بسرعة ، مشيرًا إلى أحد الأكياس :

— أى نوع هذا ؟

وأجاب الرجل ببساطة متناهية :

— شجاعة .

ولم أستطع أن أمنع ضحكة أفلتت من شفتي ، وسألته دهشًا :

— شجاعة ؟!

من يتصور هذا ؟ .. إن المجنون حقًا تاجر أخلاق .. إن بصرى لم يخذعني في قراءة اللافتة .. وما عاد هناك بعد قوله أى شك في نوع بضاعته .
ولم يرتع الرجل كثيرًا لما بدر مني من ضحك ، ونظر إليّ نظراته إلى طفل يريد أن يلهو ، وقال مؤنبًا :

— يا بنى .. ليس لدى وقت للمزاح .. ابحث لك عن مكان للعبث غير هذا .. إذا كنت لا تريد الشراء فخبر لك أن تنصرف .

ولم تكن لي بالطبع أية رغبة في الانصراف ، فقد بدا لي أن المسألة مسلية جدًا .. وأن الرجل يستحق أن يقضى معه المرء بعض الوقت .. فتصنعت الجذع وكسوت وجهي مظهر الغضب .. وقلت بلهجة تشوبها الحدة كأنه قد جرح كرامتي :

— أى عبث هذا وأى مزاح ؟ إلى أريد الشراء .. إن وقتي لا يتسع للتسكع في الحوانيت حتى ولو كانت حوانيت أخلاق .. هل تظن أني أقطع كل هذه المسافة من أجل العبث والمزاح ؟

وخدع قولى الرجل .. فبدا عليه الأسف وأطرق متمتا ببعض كلمات الاعتذار .. ولم أر خيراً من الاستمرار فى هذا الجد ، ومن كتمان زوبعة الضحك التى تصطبخب فى صدرى ، ووضعت إحدى يدى فى جيبى .. وأشارت بالأخرى فى شئ من الثقة والكبرياء إلى « شوال الشجاعة » وقلت فى منتهى الجد .

— زن لى رطلا .

وأجاب الرجل بنفس الجد .. ولحت فى عينيه شيئاً من التبرّم بجهل المطبق :

— ليس بالرطل .

— إذاً .. أقة .

— ولا بالأقة .

— كيلو ١١٩

وهز الرجل رأسه فى استنكار .. فعدت أقول فى شبه اعتذار :

— إذاً .. اكمل لى قدحاً .

— ولا بالقدح .

وبدت على الحيرة .. وساءلت نفسى : إذا كان المخبول ينوى أن يبيعنى ذلك المسحوق بالواحدة فيعد على الذرات ، ولكن الرجل أنقذنى من حيرتى ليوقعنى فى حيرة أدهى وامر ، فقال بلهجته الجادة :

— نحن هنا لانزن بالرطل ، أو نكيل بالقدح .. إن مقياس البيع هنا بالزمن ..

فيمكنك أن تأخذ مقدار شجاعة يوم .. أو عشرة .. أو إن شئت ما يكفىك شجاعة مدى العمر .

ولم أحاول مناقشته خشية الزلل ، وخشية أن أغضبه فيطرده من الحانوت ، وسألته عن سعر شجاعة عشرة أيام ، فأجابنى :

— الحساب ليس الآن .

— أتبيعون الشجاعة .. « شكك » ؟

— سمه ما شئت ، ولكننا لا نقبض هنا ثمنًا .. فالحساب يوم الحساب .
وهنا كان من أشق الأمور على نفسى أن أحاول كتمان الضحك ، ولكنى
استطعته فى النهاية .. فتغلبت على رغبة الضحك .. وزدت من مظهر الجد .
ولم أشك فى أن الرجل لا يمكن أن يكون « نصائبًا » ما دام لا ينتظر الثمن إلا
يوم الحساب .. وأحسست أنه لا مانع عندى بتأثًا — ما دام الرجل يعطى ولا
يأخذ — أن أجرب كل بضاعته ، وأى ضرر هناك فى أن آخذ من كل شوال حفنة
فألقيا فى الطريق .. ثم أدفع الثمن للمخبول يوم الحساب .. لو قابلنى يوم
الحساب .

وطلبت من الرجل أن يعطينى عشرة أيام شجاعة . وقام الرجل من مكانه
فاتجه إلى صندوق أخرج منه معيارًا صغيرًا ، أخذ يعبئ بواسطته من مسحوق
الشجاعة فى قرطاس من الورق . فلما انتهى من التعبئة ، مد يده إالى بالقرطاس
قائلًا :

— هذه شجاعة عشرة أيام .. إن استعماله سهل يسير ، فليس عليك إلا أن
تذيب الكمية فى كوب من الماء القراح ، وتقلبها جيدًا ، ثم تجرعها مرة واحدة ..
لا تخش شيئًا .. إن طعمها مستساغ .. وليس بها أى أثر من مرارة .. إن مفعوله
أكيد وسريع .. ربع ساعة فقط .. ثم تظهر آثاره .
وهزت رأسى متسائلًا :
— وما هى آثاره ؟

— الشجاعة .. الشجاعة بجميع أنواعها .. ستصبح رجلاً شجاعًا لمدة
عشرة أيام .. فإذا أعجبك الحال وسرّك أن تكون رجلاً شجاعًا فاحضر إالى قبل
انتهاء الأيام العشرة .. حتى أعطيك جرعة أخرى .
وكان الرجل يتكلم بلهجة ملؤها الجد والإخلاص .. حتى أدخل فى روعى
أن المسألة قد تكون على شئ من الحقيقة .. وأنتى قد أضحى فعلاً — إذا ما
تناولت مسحوق الشجاعة — رجلاً شجاعًا .

وسألت نفسي لِمَ لا أجرب .. فقد يصح قول الرجل ، وهو فيما يبدو لي رجل طيب شديد الإخلاص .. ليس به — فيما عدا تجارته للأخلاق — أى أثر لجنة أو خبل ، فهو هادئ وقور ، رزين مهذب . وعزمت في نفسي أن أجرب المسحوق فعلا .. ولكن خطر لي فجأة خاطر أصابني برجفة .

من يدريني .. أن المسحوق ليست به مادة سامة .. وأن الرجل مجرم شرير .. من غواة القتل ، وأنه يقضى على ضحاياه بتلك الطريقة العجيبة فيعطيهم المسحوق على أنه « أخلاق » .. ويخدعهم بطيبته وإخلاصه .. فيقتنعون بصدق قوله ، ويذهبون إلى دورهم حاملين المسحوق ويتناولونه دون أن يخبروا أحداً ، خشية أن يسخر منهم .. فيقضى عليهم .. في التو والحين ، ويذهبون ضحية المجرم الشرير ، دون أن يحس أحد بما اقترف من جرم .

ونظرت إلى القرطاس ، ثم إلى الرجل .. وبدأ من مظاهر طيبته وإخلاصه ما بدد كل وساوسى ، ولكنى قلت لنفسي : إن « الحذر لا يمنع القدر » وقلت للرجل على سبيل التهديد المستتر :

— أليس بهذا المسحوق أية مواد غريبة غير الشجاعة ، مواد مخدرة مثلا .. أو مواد سامة ؟

ونظر إليّ الرجل في كثير من الدهش والاستنكار ، وقال في سخرية :
— مواد مخدرة ؟ .. ومواد سامة ؟ .. أهذا كلام تقول له لتاجر أخلاق .. ساحلك الله يا سيدى .. دع القرطاس وانصرف من فضلك .
— لا تغضب يا حاج .. إننى أسأل على سبيل المزاح ليس إلا .. يجب عليك أن تكون رحب الصدر مع زبائنك .. يجب أن تكون صبوراً .. أليس عندك شوال صبر . !

— عندى بالطبع .

— خذ منه جرعة تحتمل سخافات الزبائن .

— أخذت يا سيدى .. أتظن أنى كنت أحتمل الجلوس كل تلك الأعوام الطوال ، وسط هذه البضائع الكاسدة البائرة التى لا يريد لها إنسان دون أن أتناول من الصبر ما يعيننى على الانتظار .. لقد طال بى الجلوس يا سيدى بين أكياس الأخلاق ، طال بى الجلوس بين شلالات الشجاعة والصدق والإخلاص والصراحة والنزاهة والعفة والصبر والكرم .. طال بى الجلوس بين هذه الأصناف البائرة ، دون أن يسألنى إنسان أين أنت ، وأخذت أشرب من شوال الصبر الجرعة تلو الجرعة حتى كاد الصبر ينفد ... والبضائع مكدسة كما هى .

وأحسست مرارة فى قول الرجل وتصورت جلسته هكذا وحيدًا فى هذه البقعة النائية المقفرة .. دون أن يطرق بابه أحد أو يؤنس وحشته إنسان . وأخذت أنقل البصر بين الأكياس سائلا الرجل عن محتوياتها :

— ما هذا ؟

— توضحية .

— وهذا ؟

— مروعة .

— وهذا الكيس الذى على الرف ؟

— إخلاص .

— وهذا الذى فى الركن ؟

— شهامة .

وهكذا أخذت أسأل والرجل يجيب .. حتى عدّ دلى كل ما يخطر على البال من الأخلاق الفاضلة !!

ونظرت إلى الرجل المسكين .. وخطر لى خاطر مفاجئ .

هذا الرجل لا شك أحق من رأيت .. ماذا يجبره على الجلوس هكذا بين الشلالات الفاضلة .. فى ملل ويأس ، وضيق وتبرم .. يستعين على الحياة بمجربات الصبر .. الجرعة تلو الجرعة .

أى أحقق مأفون هذا الرجل .. ما ضرّه لو أستبدل بجرعات الصبر جرعات من الشوالات الأخرى .. ما حاجته إلى هذه التجارة الراكدة الكاسدة ، وهو لو تناول من كل شوال جرعة واحدة ، ثم انطلق إلى الحياة لكان له شأن فيها ، وأى شأن .

تصوّروا رجلا جمع كل هذا الخلق والمزايا والفضائل ، كيف يكون مصيره في الحياة وماذا يصبح ؟

يا للجاهل الغبي ! كيف يضيع على نفسه كل تلك السنين الغابرة ، والعمر البائد ، لقد كان في استطاعته أن يصبح زعيما من الزعماء ، ولكنه أضاع عمره في الانتظار بين الشوالات . وفي تجرع الصبر .

ونظرت إلى الرجل نظرة رثاء وقلت له في إشفاق :

— يا حاج .. لقد ضيعت عمرك سدى ، إذا كان الأمر كما تقول ، وليس على الإنسان لكى يصبح على كل هذا الخلق إلا أن يتناول جرعة من كل شوال فلماذا لا تأخذ لنفسك جرعة تدفع بك بين عظماء القوم وتكفيك مشقة الجلوس بين الأكياس في هذه الوحدة المضنية ؟

ونظر الرجل إلّى نظرة ملؤها الاستخفاف ، نظرة لو ترجمت إلى العربية لكانت « أى أحقق أبله مجنون مأفون !! أى شيء وضعه الله لك في رأسك بدل العقل » !

واحتملت نظراته .. ولم آبه لها .. وانتظرت أن أسمع ما يليها من كلام يفسر ما فيها من هزاء وسخرية ، قال الرجل :

— أوتظن أنني حتى الآن لم آخذ منها .. أو تظن أنني ما زلت في انتظار نصيحتك .. « طباخ السم يبدقه » .. أفلا تريد منى أن أتذوّق بضاعتى .

وصمت الرجل برهة ، ثم أمسك بذراعى وأجلسنى بجواره على أحد الشوالات وأردف قائلا :

— اسمع يا سيدى .. إني أتوسم فيك الخير .. وأشعر أنه حق على أن أخلص

لك النصيح ... وأصدقك القول .. سأحدثك كصديق .. لا كتاجر ..
سأحدثك حديث صديق مخلص مجرب .

لقد تناولت من كل هذه البضاعة التى حولك .
الشجاعة والعفة والمروءة والتضحية .. الخ .
تناولت من كل هذا الذى تراه .

ياخية الأمل .. لقد كنت مثلك حسن الظن ، سليم النية . فأقبلت عليها بنهم
وشره .. كنت أظن — كما تظن — أنها تدفع بالإنسان إلى مصاف عظماء
الرجال ، ولكن نهى قد طاش وفألى قد خاب .

النزاهة والعفة والمروءة والتضحية !!

أو تظن أن هذا هو ما يدفع المرء إلى مرتبة الزعماء فى هذا الزمن ؟ .. هل تظن
أن زعماء هذا الزمن يجب أن تتوفر فيهم هذه المزايا والأخلاق ؟
أنت أبله يا سيدى — ولا تؤاخذنى فى الكلمة — أترى لو كان فى ذلك شيء
من الصحة .. أكنت ترى هذه البضاعة مكدسة على الرفوف فى أكياسها
لا يقربها إنسان ؟

هذه بضاعة لا يحتاج إليها المرء فى هذه الأيام .. لقد أصبحت عتيقة بالية ..
لقد أضحت « مودة قديمة » .. لا تلائم نفوس هذه الأجيال .. ولا تصلح
لزعمائهم .. ولا يقبل عليها إلا كل مجنون فقد عقله .

لقد تناولت جرعة من كل ما ترى ، وحاولت أن أخوض معركة الحياة
مسلحًا بتلك الأخلاق فانتهى إلى الأمر إلى أن أتهم بالجنون .. وهزمت فى دنيا
اللثام شر هزيمة .. وعدت إلى حانوتى ملومًا محسورًا .

وليس عليك يا سيدى .. لكى تعلم حالتى وقتذاك إلا أن تصور رجلاً يعيش
بين الناس ، ولا يكذب .. ولا ينافق ولا يداهن .. رجلاً يصارع كل إنسان
برأيه فيه .. رجلاً شجاعًا لا يهاب أحدًا .. رجلاً كريمًا يعطى البائسين ماله حتى
يصير منهم .. رجلاً ذا مروءة وتضحية يخلع ملابسه فى الطريق ليقى بها طفلاً

عارياً أضرب به البرد .. هو مجنون بلا شك .. وهكذا كنت أنا .. لقد فررت من الناس بعد أن برمواي وضجوا من أفعالي .. لقد هربت من الدنيا بعد أن دفعتني مروعاً إلى أن أطعم المتضورين جوعاً .. حتى تضررت أنا من الجوع .. وكسوت العرايا حتى عريت .. دون أن يحس بي إنسان ، أو يرد جميلي أحد . وأخيراً يا سيدى عدت إلى حانوق لأقبع بين أكياس البضاعة الخاسرة التى لا تسمن فى هذا الزمن ولا تغنى من جوع .

وأطرق الرجل ، واستغرق فى صمت عميق .. وشعرت بالرتاء له ، وسنحت لى فكرة جديدة لم أتردد فى عرضها عليه .

لقد قلت لنفسى : إن الرجل رغم كل ما قال .. أحق مأفون ، أو هو على الأقل ضيق العقل ، قصير النظر ، لا يعرف كيف يتصرف .. لقد قال : إن بضاعته أضحت عتيقة بالية ، وإنها أضحت « مودة قديمة » لا تلائم نفوس هذه الأجيال ، ولا تصلح لزعمائهم .

ترى ما الذى يمنعه من أن يجدد بضاعته ، ويستبدل « بمودتها القديمة » أخرى « جديدة » ! لِمَ لا يحاول أن يتجر فى الصنف الآخر من الأخلاق .. الصنف الذى يقبل عليه الناس ، والذى يلائم نفوسهم ، ويصلح لزعمائهم .

لِمَ لا يتجر فى النفاق والجبن والمكر والرياء والخسة و .. الخ . هذه لا شك ستكون بضاعة رائجة ، وستخرجه من حالة الركود التى سئمها .

ونظرت إلى الرجل ، قلت له ناصحاً :

— إذا كان الأمر كذلك فلم لا تغير نوع البضاعة ؟ ما دمت تعرف أنها قد أضحت فى هذا الزمن كاسدة خاسرة !؟ لم لا تحاول أن تتجر فى نوع آخر كالنفاق مثلاً ، أو الغش أو الكذب ؟

ورفع الرجل رأسه ونظر إلى كى ينظر إلى طفل غرير وقال فى أسف :
— وأنى لى أن أحصل عليها يا سيدى ، وقد استفدها الناس جميعها ؟ لقد

سألت عنها صاحب الخانوت الأول فقال : إنه لم يبق منها ذرة واحدة وأنبأني أن لذلك قصة قديمة ، فقد كان الخانوت عندما أنشئ أول مرة في سالف الزمن يكتظ بكل أنواع البضاعة ، وأقبل الناس يتزاحمون وكلهم يطلب النوع الآخر ، الجبن والنفاق والمكر والرياء والخسة .. واشتد تزاحمهم وتكاثفوا على الخانوت يتدافعون بالمناكب والأيدى .. وكان أكثر البضائع رواجاً هو النفاق .

كانوا كلهم يطلبون النفاق .. النفاق . النفاق ..

واشتد الزحام حتى قتل من الناس خلق كثير .

وأخيراً أصدر الحاكم أمره بإغلاق الخانوت ، وبالإستيلاء على كل ما به من نفاق ، وأضحى النفاق بذلك بضاعة حكومية ، ووضعت الحكومة نظاماً لتوزيعه بالبطاقات . ولكن المحسوية تدخلت في الأمر ففاز الأنصار والمحاسب بنصيب الأسد ، وحرم سائر أفراد الشعب الذى ليسوا بالأنصار والمحاسب . وأخيراً اضج الشعب المحروم من النفاق ، وطلب أن يأخذ نصيبه منه ، ولكن البضاعة الباقية كانت من الضالة بحيث يستحيل توزيعها على الشعب ، ففكر الحاكم في خير طريقة يوزعون بها الكمية الباقية بحيث يعطى كل إنسان نصيبه من النفاق .

وانتهى بهم الأمر إلى حل معقول ، وهو أن يقذفوا بكمية النفاق الباقية في النهر .. فيلوثوا بها المياه ، وبذلك يحصل كل إنسان على شيء من النفاق ، مهما قلّ فهو خير من لا شيء .

وهكذا جرت مياههم بالنفاق ، وسرى منها إلى كل شيء .. سرى في النفوس التى لا غنى لأجسامها عن شرب مياه النفاق ، وسرى إلى أراضيهم التى لا بد لها من السقيا بمياه النفاق .

وهكذا سرى النفاق في كل ما يشربون وما يأكلون ، بعد أن سقيت نباتاتهم وحيواناتهم بمياه النفاق .

أجل يا سيدى لقد أضحوا قوم النفاق ، وأضحت أراضيهم أرض النفاق .

وصممت الرجل بعد ذلك .. وأخذت أفكر فيما قال .
وكنت ما زلت أحمل في يدي قرطاس الشجاعة .
وهمت بأن أعيد إليه القرطاس ، لكنني تراجعت وقلت لنفسى : لِمَ
لا أجرب ؟ .. إن المسألة لا تزيد على عشرة أيام فقط ، أكون فيها رجلاً شجاعاً .
عشرة أيام على سبيل التجربة ليس غير . فإن أفلحت كان بها ، وإن لم أفلح
فإنى لم أخسر شيئاً .
أجل .. يجب على أن أجرب جرعة الشجاعة .
وقلت للرجل :
— سأخذ القرطاس ، وسأتناول منه جرعة على سبيل التجربة ، وسأعود
إليك بها . عشرة أيام ، لأخبرك ماذا فعلت .
وهز الرجل رأسه وقال :
— أمرك .. لقد حذرتك كصديق .. وأنت وشأنك .
وودعت الرجل وسرت إلى الدار ، وأنا أحمل في يدي قرطاس الشجاعة .

(٢)

رجل شجاع

ما الشجاعة ؟! هل هي ذلك الشيء
الذى يمكن تركيزه في النهاية في إحساس
الإنسان بعدم خشية الموت والترحيب
بلقاءه ؟

إذا كانت تلك هي الشجاعة ، فأنا
بلا شك رجل شجاع .

سرت في طريقى عائداً إلى الدار ، حاملاً قرطاس الشجاعة بإحدى يدي ،
وبالأخرى أخذت أهر عصاى وأطوحها للأمام وللخلف ، وقد داخلنى من
قرطاس الشجاعة وهم عجيب
إن مجرد حملى للقرطاس ، واعتقادى بأننى بعد لحظات سأصبح رجلاً شجاعاً
قد جعلنى بالفعل رجلاً شجاعاً .
ما معنى أنى سأصبح رجلاً شجاعاً ؟ وما معنى فرحتى بالجرعة التى ستملؤنى
بالشجاعة ؟

أليس فى ذلك إهانة لنفسى ؟ وإتهام صريح بأننى رجل غير شجاع ، وأنه لو
لم تتح لى فرصة لقاء « تاجر الأخلاق » ولو لم يتفضل ويهب لى بعض مسحوق
الشجاعة .. لظللت طول عمرى رجلاً جبائاً .. لا تداخله الشجاعة قط !!
ووجدتنى أسألك نفسى :

— هل أنا رجل جبان حقاً ؟ هل أنا فى حاجة إلى هذه الجرعة لتجعل منى
رجلاً شجاعاً ، أم أننى بالفعل رجل شجاع ، وأن الجرعة لن تفعل بنفسى أى

تغيير أو تبديل ؟

ما الشجاعة ؟ هل هى ذلك الشيء الذى يمكن تركيزه فى النهاية فى إحساس الإنسان بعدم خشية الموت والترحيب بلقائه ؟
إذا كانت تلك هى الشجاعة ، فأنا بلا شك رجل شجاع وما لى حاجة إلى جرعة الشجاعة لأنها لن تجعل منى أكثر مما أنا عليه .

أنا رجل لا أخشى الموت ، وليس فى قولى شىء من الغرور أو الفخر لأنه فى الواقع لبس به ما يستدعى التفاخر ، لأن عدم خشيتى للموت ليس مبعثها إحدى المزايا والفضائل التى يفخر بها الإنسان ؛ بل مبعثه حبى للنوم .

فأنا لا يمتنعنى شىء قدر أن آوى إلى فراشى فى التاسعة أو العاشرة فأمدد جسدى على الفراش وأترك أعضائى تنعم بالفتور والاسترخاء بعد طول كد وكدح ، وأترك ذهنى يهدأ ويستقر بعد طول تفكير وإجهاد ، ولا تمضى على بضع دقائق حتى أكون قد خلفت هموم اليوم ومتاعبه ، وطرحت عن كاهلى كل ما ألقته ، وعن رأسى كل ما أنهكه ، وخلصت نفسى من الإحساس بأى عبء أو مسئولية ، ولم يعد للمتاعب والمشاكل أى سلطان على ؛ لأنى قد انطلقت من أغلالها ، وفككت من إسارها ، إذا أنقذنى منها النوم .

والموت أخو النوم ، أو قل أبو النوم .. فهو النومة الكبرى ، أو هو الانطلاق النهائى من أغلال الحياة ، والفرار الأبدى من كل ما يثقل علينا فيها من متاعب ومشاكل ، وهو راحة دائمة من عناء العمل والتفكير .

ترى ماذا يمكن أن أخشاه من الموت ؟ وهو النوم الدائم وأحب شىء فى حياتى هو النوم .

إذا فأنا رجل شجاع !! ولا حاجة لى ألبته إلى جرعة الشجاعة !!
ولكن إذا كنت شجاعاً حقاً ، وليس لى من الموت خشية ، فلم لم أمت حتى الآن ؟

هل أنا متعلق بالحياة ؟ أبداً والله .. هل الموت متعذر ؟ أبداً أبداً .. لماذا لم

أمت حتى الآن ؟!

لأنى — وإن كنت لا أخشى الموت فى جملة و نتائجه — إلا أننى أخشى منه تفاصيله ومقدماته .

أجل .. إن تفاصيله هى التى تخيفنى ، ومقدماته ووسائله هى التى تثير الذعر فى نفسى ، فلو أن الإنسان استطاع أن يقدم على الموت كما يقدم على النوم ، فيقول لأهله ببساطة :

— اتمسوا بالخير .. أنا راح اموت !!

تماما كما يقول لهم :

— اتمسوا بالخير .. أنا راح انام .

ثم يذهب إلى فراشه ويتمطى ويتشاءب ، ويفرك فى عينيه ويهرش فى رأسه ، ويقرأ فى مجلة حتى يهاجمه النعاس ، ثم يطفىء النور ، ويغمض عينيه ويموت . ولو كان الإنسان يستطيع أن يموت بهذه السهولة .. إذا لأقدمت على الموت منذ زمن طويل .. ولأثبت حقاً أنى رجل شجاع .

ولكن الموت — للأسف الشديد — لا يمكن الحصول عليه بهذه السهولة .. بل لا بد له من مقدمات « دراماتيكية » محزنة .. ولا بد له من مظاهر بها كثير من التهويل والتهويل .

حقيقة إن النتائج واحدة .. وإن الأسباب مهما تعددت فالموت واحد . وأن الإنسان خارج من الدنيا على أية حال .. ولكن ما من شك هناك فى أن تلك المظاهر هى أشد وقعاً على الإنسان من الموت نفسه

أجل .. إنى على استعداد للخروج من الحياة فى أى وقت .. ولكنى لست على استعداد قط لأن أتصور نفسى — مجرد تصور — وأنا معلق فى « سلم الترام » وقد طوتنى عجلاته الحديدية التى تنهب الأرض ، ووقع جسدى بين العجل والشريط ، وأخذت العجلات تلوز على جسدى كأنها القرامة .. جسدى يتمزق وعظامى تنهشم كأننى « قطعة بفتيك » ، ودماى قد سالت على الأرض ،

ورأسى قد تناثرت منه فئات المخ — إن كان به مخ ١١ — وشعرى الذى لمعته
« بالبريل كريم » قد اختلط بالطين والدماء .
لا . لا .. هذا كثير .. كثيرًا جدًا .. والله إني لأكاد أبكى على نفسى من مجرد
الوصف .

إذا فأنا إنسان جبان .. وهل يمكن أن يكون جبن الإنسان فى تلك التفاصيل
التافهة ؟! ماذا يخيفنى من كل ما حدث لجسدى .. ما دمت أعرف أن الجسد
فان ، وأنه سيختلط بأديم الأرض ، فى جميع الحالات .
إلى إنسان جبان .. جبان فى التفاصيل .. جبان فى خوض المسالك .. ماذا
تجدينى شجاعتى فى احتمال النهاية ؟ إذا كنت أجبن عن الخوض فى المسالك التى
توصلنى إلى تلك النهاية .. إن شجاعتى لا تعدو أن تكون شجاعة نظرية .
ولقد كانت تلك هى أيضًا شجاعتى فى الحياة . كما كانت شجاعتى بالنسبة
للموت .. شجاعة نظرية ليس إلا .

كنت أزعم لنفسى دائمًا أنني شجاع .. ولكنى ما صنعت قط ما يثبت تلك
الشجاعة ، فلقد كان بعد النظر وتقدير العواقب ، والحلم ، والتساهل ،
والتسامح ، وإدارة الخد الأيسر ، لمن صفعنى على الخد الأيمن ، وأكل العيش
وإرضاء الرؤساء ، والعقل والاتزان ، واتقاء الشر ، والمحافظة على الكرامة والهيبة
والوقار ، وعدم التدخل فيما لا يعينى .. الخ .. كل ذلك كان يقف عقبة فى
سبيل إظهار الشجاعة ، وكان يمنعنى من أن أفعل ما يجب أن يفعله كل رجل
شجاع .

إلى رجل جبان . فلقد طوت شجاعتى غيرها من الصفات التى بدت للناس
فضائل ، فوصفونى بالرزانة ، والعقل والاتزان .

كم مرت بى ظروف ، هممت بأن أنشر فيها شجاعتى بعد طول انطواء ،
وهممت بأن أندفع فأفعل ما تمليه على الشجاعة . ولكنى أتريث ، وأفكر ،
وأستبق الحوادث وأستعرض النتائج ، فيغلبنى الجبن ، وتوارى شجاعتى ، أمام

التورى والتفكير ، وخشية العواقب ، وحب السلام وتجنب الشر ، وإذا نى قد انقلبت إلى امرئ جبان .

وهكذا قادنى التفكير إلى الاقتناع بأننى مخلوق جبان ، قد خلت نفسه من الشجاعة أو انكتمشت فى نفسه الشجاعة وتوارت بحيث أصبحت كعدمها فكأنها سلاح فى غمده لم يسئل قط ، فعلاه الصداً وثلم حده .

ولم أشك عندئذنى أن الجرعة التى أحملها ستحدث فى نفسى أثراً مذكوراً ، فهى ستدفع فى نفسى الشجاعة إن كنت خلواً منها ، وستشرها إن كانت مستترة متوارية ، وتزيل ما علاها من صداً ، وتجعل منها سلاحاً ماضياً بتاراً .

إن الجرعة ستقذنى من بعد نظرى وطول أناتى ، وتنزع من نفسى ذلك الخضوع والاستسلام وتجعل منى سهماً ينفذ إلى كبد الحقيقة بلا التواء ولا دوران ولا تراخ ولا تمهل .

إنها ستجعل منى رجلاً شجاعاً ، شجاعاً فى كل ناحية فى الرأى وفى التفكير وفى الأقدام وفى التصرف .

وكنت قد وصلت إلى الدار ودلفت إلى داخلها متسللاً إلى حجرى دون أن يحس بى أحد ، وأخفيت القرطاس فى أحد الأدراج وذهبت إلى المطبخ فأحضرت كوباً من الماء

وأغلقت باب الحجرة وجلست أمام المنضدة وأخرجت القرطاس فوضعت ما به فى الكوب وأخذت أقلب المسحوق بملعقة صغيرة حتى ذاب فى الماء .

وأمسكت بالكوب ، ووقع بصرى على صورتى فى المرأة فترددت برهة . لقد بدأ الخوف يداخلى ، وتذكرت وقتذاك .. الدكتور جيكل . والمستر

هايد .

ماذا يحدث لو أنه حدث لى مثل ما حدث للرجل النعس ؟!

ماذا يحدث لو أن الشجاعة أزممت لى ، وأضحت شخصيتى الشجاعة تتقلب

على شخصيتى الأخرى من تلقاء نفسها دون حاجة إلى مساعدة الجرعة ؟

ماذا يحدث لو أن الشجاعة التى سئيرها الجرعة ، أبت أن تنطوى ، وأن سيفها الذى سل قد أبى أن يعود إلى غمده ؟
ماذا يحدث لو أن شجاعة الأيام العشرة التى أنوى تجربها قد استمرت حتى نهاية العمر ؟

أنا لأكره الشجاعة بالطبع ، وحاشى أن أحط من قيمتها كصفة فاضلة يجب أن يتصف بها كل إنسان .

ولكنى مع ذلك أخشأها .. لأنى لم أجربها بعد ، وقد تكون كما قال الرجل تاجر الأخلاق « مودة قديمة » فى هذا الزمن .. « مودة » لا تلائم نفوس هذه الأجيال ، فماذا يحدث إذا استبدت بى .. وأبت أن تفارقنى ؟

ماذا يحدث إذا أزم بى داء الشجاعة ، فى زمن الجبن ؟
ونظرت إلى المرأة مرة أخرى ، فوجدت وجهى قد علاه الاصفرار وبدأ عليه اضطراب ظاهر .

يا لله ، لشد ما أنا جبان رعديد ، أن أخاف الشجاعة !!
وخجلت من نفسى ، وكرهت أن أكون بهذه الدرجة من الجبن .
ورفعت الكوب إلى فمى ، وتجرعته مرة واحدة ، كما يتجرع الإنسان شربة زيت الخروع .

ووضعت الكوب على المائدة ، وأحسست أنى ألثت كأننى خارج من سباق .. وبدأت أحمق فى المرأة ، وأرقب وجهى جيداً خشية أن تحدث الجرعة به من التقلبات ما أحدثته جرعة « الدكتور جيكل » فى وجهه عندما انقلب إلى « مستر هايد » .

ولكن وجهى لم يطرأ عليه تغيير يذكر ، اللهم إلا ذلك البريق الذى بدا فى عيني .. أو قد يكون ذلك مجرد وهم تخيلته .

أما التغيير الحقيقى الذى حدث فقد حدث فى جسدى ، فقد أحسست بقوة تسرى فيه ، وبعضلاق تشد وتبرز ، حتى بدا لى أنى أستطيع أن أتحكم فيها

وأجعلها — تلعب — كذلك الرجل الذى أبصرته ذات مرة فى أحد الموالد وقد وقف أمام الجماهير المحتشدة « يلعب عضلاته » ويصيح فيهم أنا شوال بطل امبابه فى وزن الريشة ..

لقد بدا لى أنى أصبحت شديد الشبه بصاحبنا شوال ، وما أسرع ما خلعت القميص والفانلة ووقفت أمام المرأة ، أتأمل جسدى بإعجاب مفرط « وألعب » عضلاتى بسرور زائد .

وأخيراً ارتديت ملابسى ، وأنا أشعر بالرضاء عن نفسى كل الرضاء ، وفتحت باب الحجره وخرجت إلى القاعة ، فكان أول ما صدم أذنى ، صوت صراخ الخادمة .

ولم يكن صوت الصراخ بالشئ الغريب الوقع فى أذنى ، فقد ألفته من طول ما سمعته ، فقد كنت أسمع بمعدل مرة فى كل نصف ساعة .

وتفسير الأمر ، أن ضمن الأعمال الجليله ، التى تؤديها حماق ، بشغف وإخلاص وإتقان فى حياتها المملأى بجلال لأعمال هو ضرب هذه الخادمة الصغيره .

ويحىلى إلى أن ضربها للخادمة قد أضحى عندها — غيه — كما يهوى البعض تربية العصافير أو جمع طوايع البريد ، أو أنها تجد فى ضربها مخرجاً للواقع الغضب المتجمعة فى نفسها ، فهى تتخذ المسكينه متفمساً لها ، وإلا طال بها الكبت فانفجرت وأصابتها هى ومن حولها .

ولم يكن هناك ما يؤذى مشاعرى كصوت صراخ الخادمة أو بكائها ، وكان عامل الشفقة يتحرك فى نفسى ، فيجعلنى أفور وأثور ، وأهم بالتدخل فى الأمر وتخليص الخادمة ومنع السيدة من ضربها ، ولكنى كنت أهديء نفسى ، وأثروى وأفكر فى العواقب وأقدر النتائج .

إن السيدة عصبية متوترة النفس ، سريعة الغضب والانفعال ، أو قل إنها تحب الغضب والانفعال ، فهى تبحث عن كل ما يثيرها ويحنتها ، ويغضبها ، وتجنب

كل ما يبعث في نفسها الهدوء والسكينة ، وتأتى أن تريح نفسها ، ولم أكن أشك في أن تدخل في الأمر .. ومحاولتى منعها من ضرب الخادمة ، سيتيح لها فرصة للفوران والغليان .. ويهين لها عمل « خنافة لرب السماء » والدخول في معركة أكبر .. تعتبر معركة الخادمة بالنسبة لها ليست أكثر من « أبرتيف » ، وكنت أعرف أنها في النهاية ستحملنى مسئولية كل ما حدث وستجعل منى مخطئاً أثيماً .. ثم تمرض بعد ذلك عقب الخنافة وأكون أنا مسئولاً عن مرضها .

وعلى ذلك فقد كان الأمر ينتهى بى في كل مرة إلى السكوت و « الصهينة » وإلى أن أكبت غضبى فأحتمل بكاء الخادمة ، وأن أتخذ موقف « الحياد » وأكفى خيرى شرى .. وأنطوى في حجرى حتى تنتهى عملية الضرب .

ولست أشك أن عملى .. كان ينطوى على الجبن ، ولكنى لست أشك أيضاً في أنه كان عملاً ينطوى على الحكمة فقد كنت أعتقد أنه لا بد أن يأتى وقت تتعود فيه الخادمة الضرب .. وأتعود منها سماع البكاء ، ويصبح الأمر مسألة طبيعية .. ليس فيها ما يثير .

أما في هذه المرة — وبعد أن تناولت جرعة الشجاعة — فاختلف الأمر كل الاختلاف .. إني لم « أصهين » ولم أنطو . ولم أكف خيرى شرى ، ولم أتخذ موقف الحياد ، ولم أفكر في عواقب أو أقدر نتائج .. لقد تملكتنى الشفقة على الخادمة ، وأحسست مبلغ ما في ضربها من ظلم واعتداء .. فاندفعت إلى السيدة ونزعت الخادمة من بين يديها ... وقلت لها في لهجة صارمة .. إني أحذرهما من أن تمت يدها إلى الخادمة ، بعد الآن وإلا حدث ما لا تحمد عقباه .

ونظرت إلى السيدة في دهش ، فقد أذهلها — وأنا الهادئ الرزين المنطوى على نفسه — أن أتدخل فيما تراه صميم عملها واختصاصها ، وأن أحاول بالتهديد منعها من مباشرة أول حقوقها .. والتمتع بخير متعتها لا .. لا .. لقد كان هذا شيئاً كثيراً .. كثيراً جداً .

وتركت الخادمة .. تركتها كلية ، بل ونسيتها تماماً ، والتفتت إلى .. فقد

(أرض النفاق)

وجدت في صيدًا ثمينًا .. صيدًا يبيئ لها حيوانا حافلا .. بأشهى الممارك
والثورات والانفعالات .. صيدًا لم تستطع قط أن تتحرش به وتوقعه في
حبائلها .. من فرط بروده وهدوئه وانطوائه على نفسه .

وبدأت المعركة .. حامية دامية .. ثارت فثرت .. هاجت فهجت ..
شتمتني فشتمتها .. لعنت ألى .. فلعنت سنسفيل أجداد أبيها .. همت برفع
العصا فزعتها من يدها وألقيت بها من النافذة .. ارتمت باكية فلم آبه لها ..
سخرت فتركت الدار ، حيا الله جرعة الشجاعة . فقد نفست كربتي ،
وفرجت همى .. لقد جعلت منى حقًا رجلا شجاعًا .

وخرجت من الدار .. وأنا أحس بالقوة والنشاط والحماسة .. لقد شعرت
أنى فككت من إسار الجبن وانطلقت من أغلال التروى وخشية العواقب . وأنى
أستطيع أن أقدم على أى شىء .. غير هيب ولا وجل .

وكان أول ما فعلته قبل أن أخرج هو أن قذفت بالطربوش الذى كنت أضعه
على رأسى ، والذى كنت أخشى الخروج من غيره .. حتى لا يقول الناس عنى
إننى رجل غير محترم !! .. وأى صلة يمكن أن تكون هناك بين « الطربوش »
والاحترام إلا إذا كانت هناك صلة بين « البليلة والترام » ، أو « الجوزية والأسد
الضرغام » .

أى صلة هناك بين الطربوش والاحترام ؟ .. وكيف يمكن أن يصل بنا
السخر إلى أن نقول .. إن فلانا رجل محترم ، لأنه يرتدى طربوشًا .. وإن فلانا
غير محترم لأنه لا يرتدى طربوشًا ؟ كيف خطر لنا أن ننشئ أية صلة بين
الطربوش والاحترام .. والله لو كانت هناك صلة بين أحدهما والآخر ..
لا رتديت مائة طربوش .. ولكنه قول هراء .

والواقع أننا لو حكمنا العقل وحاولنا أن نجد هناك صلة ، لو جدناها بين
الطربوش ، وعدم الاحترام ، أو بينه وبين المسخرة . أجل .. إن هذا الوعاء
الأسطواني الأحمر ذا العنق الذى شدت به خيوط سود مبرمة .. هو المسخرة

بعينها .. نحمل رأسنا عبثه بلا أى مبرر ولا فائدة ، وليس أدل على ذلك من أن بعض الناس يصنعون بقرصه ثقباً يجلبون بها الهواء إلى رعوسهم ويخرجون منها الصهد .. ما ضرهم لو ألقوا بالطرايش نفسها وتركوا رعوسهم حرة طليقة ؟! هذا الوعاء الأحمر لا يقى من برد ولا حر .. ولا يؤمن من مطر ولا شمس .. ولا يوحى باحترام ، ولا هو زينة .

ترى ماذا يجبرنا على ارتدائه ؟

الجبن !!

جبن التقاليد .. وجبن التقليد ، والخوف من أن نتهم بالشنوذ .
لا تقولوا إنه شعار لقوميتنا ، فهذا جهل وسخف .
منذ متى كان الوعاء الأحمر شعاراً لقوميتنا ؟ إنه لو تعملون .. شعار لاستعبادنا .

من قال : إن قوميتنا فى حاجة للطربوش ذى الزر ؟
حرروا رعوسكم من الطرايش ، فأغلب ظنى أنها سبب محتكم ، إنها تساعدكم على خفض الرعوس .. إنها تخفى شعاع أذهانكم ، وتحيط رعوسكم بظلمة معتمة .. وهكذا ألقيت بالطربوش .. وخرجت إلى الطريق رافع الرأس عاريه .

ووقفت فى إحدى محطات الأتوبيس ، فقد كنت على موعد لإنهاء صفقة هامة .. وكان الموعد قد أزف فقد عطلتنى المعركة الأولى التى خضت غمارها من أجل الخادمة ما يزيد على ربع الساعة .

ولحت أول عربة من عربات الأتوبيس فاقتربت من المحطة بسرعة ، وأشرت للسائق ييدى .. فلم يتوقف .. رغم أنه كان بالعربة محلات خالية .

ولم تكن المرة الأولى أن أشير إلى سائق أوتوبيس فلا يقف رغم خلو العربة .. وكان كل ما أفعله هو أن أنتظر وأنتظر .. وأن أقنع نفسى أن القاعدة هى ألا يقف السائق إذا ما أشار له إنسان فى محطة .. وأنه إذا وقف فيكون فضلاً من الله ..

وليس على إلا انتظار فضل الله .

وماذا أستطيع أن أفعل سوى ذلك .. إني لا أستطيع أن أوقف العربية ، ولا أستطيع كذلك أن أعدو فأقفز فيها وهي سائرة .. فأنا أجبن من أن أفعل ذلك .. أولا . لأنى أخشى على هيئتي وقيافتي أن تضيع .. وثانياً .. وهو الأهم .. لأنى أخشى أن تنزل قدمي فأهوى تحت العجلات ، وأنا — كما سبق القول — لا أخشى الموت فى ذاته .. ولكنى أخشى وسائله المسرحية الحمقاء .. وأكره أن أموت بهذه الطريقة المزعجة ، وحتى إذا كان لا بد من أن أموت بإحدى هذه الطرق المسرحية .. فلا أقل من أن تكون طريقة مشرفة .. استشهاد .. مثلاً .. أما أن أموت تحت عجلات — ثورنيكروفت — فذاك والله ما لا أتمناه قط . وتوالت أمامي العربية بعد الأخرى ، وهي تمر بمر الكرام .. دون أن تفكر إحداها فى الوقوف .. فهي إما ملآى بالركاب ، وإما أن سائقها يضايقه الوقوف .. فهو يسوق العربية لجرد التزهة .

وتملكنى الحق ، وقلت لنفسى إن ذلك أحد مظاهر الفوضى فى أمة الفوضى .. فالحكومة تترك الشركة تعبت بمصالح الناس .. فلا تضع فى خطوطها إلا عدداً ضئيلاً من العربات لا يفي بحاجة الجمهور الذى يحشر فيها كالسردين ، والشركة تترك السائقين يتحكمون فى عباد الله .. فلا يقفون إلا عندما يشاعون .

وأخذت أعزى نفسى بأنه لو كان بيدى الأمر ، وكنت وزيراً للأشغال لعرفت كيف أضع حداً لهذا العبث .. ولعرفت كيف أوفر للجمهور راحته .. ولكنى عدت فتذكرت أنني عندما أصبح وزيراً للأشغال .. لن أحس قط بهذا العبث أو المضايقات .. لأنى سأكون وقتذاك صاحب عربة فخمة ضخمة .. ولن يخطر لى على بال قط أن هناك أناساً يركبون الأتوبيس وأنهم يقفون الساعات الطوال فى انتظاره ، وأن عربات الأتوبيس لا تكفى الجمهور ، وأن السائقين لا يقفون فى المحطات .. إني لن أذكر قط شيئاً من هذا لأنى سأكون « مجعوصاً »

في عربة تسابق في الريح وتهب الأرض نهبا .
وتلك هي العلة في هذا البلد .. إن الذي يحس بالمصايب لا يملك منعه ..
والذي يملك منعه .. لا يكاد يحس وجوده .

إن الذين يقطنون الحظائر ويبيتون على الطوى .. ويشربون مع البهائم من ماء
الترع .. إن الهياكل التي هزلت من الفقر والجوع والحرمان .. والأجساد التي
حطمها المرض وأنهكتها العلل .. لا تملك من أمر نفسها شيئا .. إنها بلا حول ولا
قوة .. إنها قطع يسير إلى مصيره التعس في رضا واستسلام .

أما الرعاة .. الذين يملكون زمام القطيع والذين يحركونه ويسوسونه .. فهم
في عيشة راضية .. أجل .. إن الذين ييدهم أمره لا يحسون بأمره ، ولا يدركون
من أمره شيئا .

كيف يحسون جوعه وبطونهم ملأى مكتظة ؟! كيف يذكرون أنه يشرب
من ماء الترع .. إذا كانوا يشربون ماء « فيشى » ؟! وكيف يدركون أنه في
حاجة لأنابيب مياه إذا كانوا يأخذون مياههم من « الفريجدير » ..!!

كيف يصرون عريه ، وهم يرفلون في « النايلون » و « الشارك سكين » ؟
وكيف يصرون هزاله وأجسادهم السمينة « المرربة » تنضح منها قطرات
النعيم ؟ كيف يحسون حاجته ، وهم لا يزيلون في تفكيرهم عن « ماري
أنطوانيت » حين قيل لها : « إن الشعب لا يجد الخبز ، فقالت : لياكل جاتوه !!
أنى لراكب « البويك » أن يحس حاجة راكب قدميه ؟ قدميه العاريتين اللتين
يلسعهما لهب الأرض .. وأنى لماسك المروحة يروح بها على وجهه أن يحس حاجة
ماسك الفأس يضرب بها أرضه .. تلفح الشمس وجهه ويفرق العرق جسمه !
إن شر ما في المصايب .. أن الذي لا يحس .. يستطيع أن يفعل ، ولكنه لا
يفعل لأنه قرير هائي .. أما الذي يحس ، فهو لا يفعل شيئا لأنه أعجز من أن
يفعل .

إن خير وسيلة لإصلاح هذا البلد .. هو الصيام .

ولست أعنى بالصيام .. هذا الصيام الذى نصومه فى رمضان ، فعلم الله أننا قد أصبحنا نباشره — لو باشرفه — بطريقة أخرجه عن كل معانى الصيام ، فنحن لا نحرم أنفسنا خلاله أى شئ .. على العكس إننا نعطيها كل ما تشتهي من المأكولات الشهية التى أضحت من خصائص رمضان ، كالكنافة ، والقطايف ، والمشمشية ، وقمر الدين ، والمكسرات .. وكل ما نفعله فى صيامنا أننا نؤجل موعد أكلة إلى موعد الأكلة التالية .. فنأكل غداءنا مع عشاءنا ونسميه إفطاراً .. ونبكر فى إفطارنا فنسميه سحوراً .. ويزيد على ذلك أننا نظل طوال اليوم مستلقين بلا عمل ولا فائدة كأننا جثث هامدة .. يضيق خلقنا ونغضب لأقل سبب .. بحجة أننا صائمون .. ويسب أحدنا الآخر لأنه صائم وكفران ..

لا .. لا .. لست أقصد هذه الطريقة فى الصيام ، التى ليس فيها من الصيام قليل ولا كثير ، والتى ليست لها من نتائج الصيام أى أثر ، فلا هى أشعرتنا بحرمان الفقير ولا رقت قلوبنا نحوه .

إلى لا أقصد الصيام عن الأكل .. بل أقصد الصيام عن الغنى .. والصيام عن النعيم .. أجل يجب أن يفرض على كل إنسان أن يصوم عن الغنى شهراً فى السنة يعيش فيه بدخل لا يزيد عن أربعة جنيهاً .. يقضى بها كل حاجته وحاجة أسرته من مأكل وملبس ومسكن .

يجب أن يجرب رئيس الوزراء والوزراء وغيرهم من العظماء والأثرياء كيف يمكن لإنسان أن يعيش هو وأسرته بأربعة جنيهاً فى الشهر .. يجب أن يقطنوا فى عشة من عشب الترحمان وزينهم .. إيجارها خمسون قرشاً .. يجب أن يجربوا كيف يمكن أن يأكل الإنسان لحمه مرة واحدة فى الشهر . لحمه لا تزيد على « الفشش والأزوار والكروش » التى تباع فى المذبح . يجب أن يعرفوا كيف يمكن لأربعة جنيهاً أن تكفى حالة عائلة .

يجب أن يصوموا عن الغنى والنعيم .. لا إلى الأبد ولكن يصومون لمدة شهر

واحد .. حتى يحسوا ذلك البؤس الذى لا يخطر لهم على بال . فإذا طلب من الوزراء بعد ذلك أن ينصفوا طائفة تشكو لم يتمهلوا ولم يترشوا ، وإذا طلب من الأثرياء أن يدفعوا الضرائب لم يتألموا كما لو كانت تستقطع من جلودهم .
أجل .. لن تنصلح الأمة .. إلا إذا سن فيها قانون الصيام .. الصيام عن الغنى والترف والنعيم .

* * *

جال كل ذلك بخاطرى وأنا أنتظر على محطة الأوتوبيس ، ولحت عربية مقبلة .. وبدا لى أنها خالية فعزمت أن أركبها بأية حال .. وأخذت ألوح للسائق .. وهو مقبل فى سرعة .. ومر بى دون أن يتوقف أو يأبه بى .. فدفعتنى الشجاعة التى استجدت فى نفسى إلى أن أفعل شيئاً لم أكن أجسر على فعله قبل أن أتناول الجرعة ، لقد أخذت أعدو وراء الأتوبيس محاولا اللحاق به و « الشعبطة » على سلمه .

اندفعت كالريح .. وقدمائى منطلقتان بى كما فى جواد فى سباق ، حتى لحقت العربى وأمسكت بمقبض الباب ، ووضعت إحدى قدمى على السلم .

ولست أدرى ما حدث بعد ذلك بالضبط ؟

ولكن نتيجة ما حدث .. النتيجة النهائية التى بقيت فى نفسى .. هى احترام وتقدير وإعجاب شديد بأولئك « المشعبطين » على سلام جميع أنواع المركبات من ترامات وأتوبيسات ، فلقد أدركت أنها مسألة تحتاج لمهارة فائقة .

لقد وضعت إحدى قدمى على السلم ، ولم أضع الأخرى وظللت معلقة فى العربى المسرعة تجربنى خلفها ، ثم حاولت أن أترك العربى وأعود إلى الأرض ، متمثلاً قول القائل :

أنل قدمى ظهر الأرض إلى

رأيت الأرض أثبت منك ظهرا

وأقلت يدى ورفعت قدمى التى على السلم وحاولت أن أثبت جسدى على

الأرض ، ولكنى .. للأسف ، وجدت الأرض تعدو بسرعة تحت قدمى .
أجل .. لقد كانت الأرض تجرى بسرعة إلى الخلف أو هكذا بدا لى ،
ووجدت من المستحيل أن أحتفظ بنفسى واقفاً ، أو أثبت قدمى على الأرض ،
ولم أشعر إلا وقد لففت بضع لفات حول نفسى كأنى بهلوان ، ثم انطرحت أخيراً
ممدوداً الجسد على الأرض .

وصرخ الركاب ، ووقفت العربية ، وهبط بعضهم إلى ليرى ما حل لى ،
وتحسست أنا نفسى .. فوجدت أننى لم أصب بشيء .. اللهم إلا البهدة وقلة
القيمة ، وسرعان ما نهضت واقفاً على قدمى .. أزيل الأتربة التى علقّت ببدلتى .
وما من شك هناك فى أنه لو حدث لى ما حدث ، وأنا فى حالتى العادية دون
أن أحتسى ما احتسيت من جرعة الشجاعة .. لكان أقصى ما أفعله مع السائق
هو أن أعرف غمرته ، وأن أقدم فيه شكوى للشركة إذا لم يشغلنى عن تقديمها
شاغل ، ذلك إذا لم أفر بنفسى من فرط الخجل الذى يصيبنى من « الهدر » الذى
حدث لى .

أما أن أشتبك فى معركة مع السائق فذلك كان آخر ما أجسر على فعله ، فقد
كنت أكره التشابك والتضارب ، وكانت خشيتى من العواقب ، وبعد نظرى
تجعلنى دائماً أتدبر بالصبر والحلم ، وأجبن عن الدخول فى معركة أيسر ما
يصيبنى منها هو « البهدة » والإهانة .

ولكن فى هذه المرة .. لم أكن كما تعودت أن أكون . لقد أضحيت رجلاً
شجاعاً ، ولم يعد هناك ما يقف فى طريق شجاعتى .. لا بعد نظرى ولا ترو ولا
تفكير .. لقد كان يجب على أن أثار لنفسى من السائق المستهتر ، وأن أجعل منه
عبء للعامل النذل القدر الذى يطالب بحقه دون أن يعرف واجبه ، والذى يضيق
ذرعاً بإهمال الحكام لمصالحه ، وهو لمصالح الجمهور أشد إهمالاً وأكثر تراخياً
واستهتاراً .

وكان السائق ما زال جالساً أمام عجلة القيادة دون أن يكلف نفسه مشقة

النزول لرؤية ما حدث .. فاقتربت منه ، ورأيت ينظر إلّى فى سخرية ويقول
هازئاً :

« لما انت خايب كده بتشعبط ليه » .

وهنا لم يعد فى قوس الصبر منزع .. فمددت يدى إليه فى سكون وأمسكت
به من قفاه وجذبتة بعنف فأخرجته خارج العربة .
وكما يقول المثل « وعينكم لا ترى إلا النور » .. إلى ما عهدت فى نفسى هذه
القوة ولا المهارة فى العراك .

أول ما فعلته أننى « لهفته مقص » .. فنزل « يرف » على الأرض ، ولم يكد
ينهض حتى ناولته « روسية » ثم انهلت عليه بالللكمات حتى « ضحضحته » !
ولحمت فى وجوه الركاب علامات الفرحة والشماتة .. كأنى بضربى الرجل
أرضيت فى نفوسهم رغبة مكبوتة فى الاقتصاص منه .

وأخيراً تدخل الركاب بيننا ، وأخذ السائق يصيح بأعلى صوته ويسبنى بأقبح
الصفات ، وأقسم ألا يتركنى إلا فى القسم وأنه لا بد أن يجعلنى أبيت على
الأسفلت .

ونظرت إلى الساعة فإذا بالموعد قد أزف ، وتملكنى الحنق ، فقد كنت
حريصاً على ألا يضيع الموعد ، حريصاً على إنهاء الصفقة ، ومع ذلك فلم يكن
هناك بد من أن أذهب مع الرجل إلى القسم .. ولم يكن هناك بد من ضياع
الموعد .. وربما ضياع الصفقة أيضاً .. فقد لا تتاح الفرصة لإنهاؤها بعد ذلك .
وذهبت مع الرجل إلى القسم وفى كثير من الندم ، وبودى لو أنهى المسألة
بالحسنى ، ولكنى كنت رجلاً شجاعاً ، وكان على أن أحتمل عواقب شجاعتى
حتى النهاية !!

(٣)

الخيانة العامة

إن اليهود الذين فرقهم الله في الأرض شيعة .. قد فرقوكم شيعة .
إن اليهود الضالين قد أضلوكم ، إن اليهود الجبناء قد جعلوا منكم
جبناء . يا أمة العرب . يا أمة الخطب .

سرت مع سائق الأوتوبيس متجهين إلى أقرب مركز للبوليس .. ولم يكف
سيل الشتائم المندفع من فيه عن التوقف .. بل أخذ يغمرنى بما لاذ وطاب من ألفاظ
التهديد والسباب حتى وصلنا النقطة ودلفنا إلى الداخل .
ووقفنا برهة أمام الحاجز الخشبي وقد جلس وراءه باشجاويش منتفخ
الأوداج .. بادى الشر ، يتناقش مع امرأة ملتفة في ملاءة سوداء وقد سقطت
الملاءة على كتفها وتهدل شعرها وسال دمعها وأخذت تقول له بصوت باك :
— سبع ليال على هذا الحال .. يأتى إلى الدار .. وقد ترنح من فرط السكر ..
بعد أن يكون قد تركنى والأولاد طيلة النهار دون نقود ، فلا يكاد يرانى حتى
ينهال علىّ ضرباً .

ونظرت إلى جوارها فوجدت رجلاً ضخماً الجثة أحمر العينين قد تلفح
« بلاسة » وكسا جسده بجلباب طويل ودس قدميه في مركوب أصفر ..
ووجدته ينظر إلى المرأة شراً ثم وجه القول إلى الباشجاويش قائلاً :
— يا سعادة البية .. (كان لهذا التعظيم أثر منعش على الباشجاويش وبدأ لى
أنه سيوافق الرجل على ما يقول) يا سعادة البية .. هذه المرأة .. كذابة ومخرقة ..
وتستحق الشنق لا الضرب ..

وهز سعادة الباشجاويش رأسه بالموافقة .. وأمر أحد الجنود أن يجر المرأة إلى الخارج فمد الجندي يده ، وسحب المرأة من قفاها ، ولم أحتمل أنا هذا المنظر فبدأت التدخل طالباً من الجندي أن يترك المرأة ، ومن الباشجاويش أن يحقق جيداً في الموضوع ، ولم يكن مظهرى بعد سقوطى من الأتويس وتدحرجى على الأرض وعراكى مع السائق .. ليشجع الرجل على احترامى وخشيتى .. فوجدته يوجه إلى نظرة ملؤها الازدراء .. ويأمرنى بالسكوت .. بالتى هى أحسن !!

خرجت المرأة وزوجها .. وبدأ الباشجاويش فى استجوابنا . ولكن لم تمض لحظة حتى سمعت صراخ المرأة . وبدالى أن زوجها لم يستطع أن ينتظر حتى يذهبها إلى الدار فبدأ فى تنفيذ انتقامه على سلم القسم .

واندفعت أنا من باب القسم فوجدت الرجل قد طرح المرأة أرضاً وانهاled عليها رفسا ولكما ، وتحكمت فى النخوة والشجاعة .. ولم أقل لنفسى كما تعودت أن أقول فى مثل هذه الظروف — وأنت مالك — بل هجمت على الرجل أنقذ المرأة من براثنه .

وحدث الأمر الطبيعى . الذى تعرفونه كلكم ، والذى يحدث دائماً فى مثل هذه الظروف .. فلقد كف الرجل عن ضرب امرأته ، وكفت المرأة عن الاستغاثة ، وانهاled الاثنان على بالضرب .. فلم ينقذنى سوى الجندي الذى أرسله الباشجاويش لإحضارى حتى أدلى أمامه ببقية أقوالى .

ووجدت أن السائق قد أنبأ الباشجاويش أنى كنت واقفاً فى المحطة وأشرت له بالوقوف .. فوقف .. فلم يشعر إلا وأنا أقفز إلى العربية وأهجم عليه فأشبعه ضرباً ولكما ، وأدليت بصحة ما حدث ، ولكنى وجدت الباشجاويش ينظر إلى شرراً ويقول :

— الظاهر أنك « غلباوى » ولسانك طويل ومتعافى .
ولم تعجبنى من الرجل نظرتة ولا لهجته .. فقلت له منذراً :

— خير لك أن تكون أكثر أدبًا .
وهنا احمر وجه الرجل واندفع صائحًا :
— سأريك كيف أكون أكثر أدبًا .
ثم أشار إلى أحد الجنود أن يدخلني إلى الزنزانة .
ولم تجدني المقاومة نفعًا ، وبعد لحظات وجدت نفسي كما يقولون « على الأسفلت » .

من يصدق هذا ؟ من كان يصدق أنى أنا الرجل الهادئ الرزين .. العاقل المحترم .. تدفعني الظروف الحزقة بمثل هذه السهولة والبساطة إلى أن أبيت ليلتي على الأسفلت !

ولماذا ؟ بلا سبب ، وبلا أى مبرر ولا داع .
إلى حقا قد أصبحت رجلاً شجاعاً .. ولكن أين الذى فعلته من مظاهر الشجاعة حتى يرر ارتمائى هكذا فى إحدى نقط البوليس كالجرحمين والمتشردين ؟
أى شيء فعلته يتكافأ مع هذا الجزاء ، وأى فائدة أفدتها أنا .. أو أفادها غيرى من جراء كل ما فعلت ؟ وتذكرت « حماق » وما يمكن أن يكون قد حدث لها من مضاعفات عقب معركتى معها من أجل الخادم فأصابنى غم شديد ؟
أهذا هو ما فعلته فى جرعة الشجاعة !!؟

ولكن ما ذنب جرعة الشجاعة ؟ إن الذنب فى الواقع ذنبى أنا .. فلقد كنت أحدث شجاعة .. أو كنت كما يقولون « هبلة ومسكوها طار » ..
لقد اندفعت استعمل شجاعتي .. بيله وجنون ، لقد كنت أشبه « بشجاع حرب » على وزن « ثرى حرب » .. و « أرتسب حرب » .. وأخذت أبعثر الشجاعة التى أصابتنى بعد طول جبن .. ذات اليمين وذات اليسار .. لقد كنت أريد أن أعوّض حرمانى من الشجاعة ، وأن أظهر شجاعتي بأى وسيلة وعلى أى وجه تمامًا كما يفعل ثرى الحرب الذى أصابه الغنى فجأة .. بعد طول فقر .
لشد ما كنت مجنونًا أحمق ، وما هكذا والله تستعمل الشجاعة

ويكون الشجعان.

ماذا فعلت من مظاهر الشجاعة؟

تعاركت مع « حماتي » من أجل الخادمة ، وقذفت بطربوشي وخرجت عارى الرأس كأى غر حدث من الفتية المفتونين .. ثم لم أستطع الصبر حتى يقف الأوتويس فأركب فيه ، بل حاولت أن أركبه وهو سائر كأى متشرد من أبناء السبيل .. ولم تساعدنى خيتى على « الشعبة » . فسقطت على الأرض كأى مدب .. وذهبت قيافتى وضاع قدرى .. ولم أكف بهذا ، بل هجمت على السائق واشتبكت معه فى معركة بالركلات واللكمات والروسيات .. كالرعاع والغوغاء ، ووجدت نفسى منساقاً مع شجاعتى الخرقاء إلى قسم البوليس .. وأضعت بذلك الموعد الذى كنت سأنتجز فيه الصفقة الهامة .. ولم أكف بكل هذا .. بل اندفعت كأى حمار .. لأتدخل بين زوج وزوجته .. فتلقيت من الضرب الشتائم ما كنت فى غنى عنه ، وأخيراً .. احتددت على الباشجاويش كأى غبى .. فكان مصيرى الأسلفت .. يالى من محدث شجاعة ؟

أهذا هو ما استطعت أن أفعله بشجاعتى ؟

أهذا هو مصيرى بعد أن أضحيت رجلاً شجاعاً ؟ .. أرتمى على الأسفلت بلا

مبرر ولا سبب ؟ .. كأى نشال أو محتال !

لا .. لا !! لقد أسأت التصرف بشجاعتى ، وتعمجت باستعمالها فوضعتها فى غير موضعها .. لقد كان يجب على أن أكون أكثر اتزاناً مما فعلت .. وأن أتريث فلا أستعمل شجاعتى إلا فيما يستحق .. وألا أكون شجاعاً إلا فى جلائل الأعمال التى تفيد المجتمع والناس .. فأقوم ما اعوج من الأمور وأصلح ما فسد .. بدل هذا الذى فعلته من الشعبة فى الأتويسات والعراك مع طوب الأرض .

وهكذا أقنعت نفسى بأن أكون أكثر حكمة ، وأن أكبح من جماح شجاعتى .. فلا أتركها تنطلق بى كالخمار الجامع يشبع الناس رفساً وتلطيشاً ،

ولم يكن هناك بد والأمر كذلك — من مسايسة الباشجاويش ومداراته ،
فرجوت الجندى الذى وضعنى فى الزنزانة أن يبلغ « سعادته » أنى أود أن
أقول — لسعادته — بضع كلمات .

ووقفت مرة أخرى أمام الباشجاويش وبدأت أحدثه مستعيناً بجبنى القديم ،
محاولاً جهدى أن أكبح جماح شجاعتى خشية أن يفلت منى زمام نفسى فأبصق
عليه وأصفعه على قفاه العريض .

وأخذت أعتذر لسعادة الباشجاويش .. حاشراً كلمة — سعادتك — بين
كل كلمة وأخرى ، وأنبأته أن ضيق خلقى هو الذى دفعنى إلى ما فعلت . وأنى
جد آسف وجد نادم .. ثم أفهمته بطريقة مسترة أننى رجل محترم ذو مكانة
وحثيثة .. وأنى أخشى على سعادته .. لو أصر على حبسى أن يصيبه ضرر .. وأنه
لم يدفعنى إلى أن أطلب منه الإفراج عنى إلا خوفاً عليه .. وعلمى أنه صاحب
أولاد .

وهكذا أمكنتنى أن أقنع الرجل بإطلاق سبيلى .. متبعاً فى إقناعه كل الطرق إلا
الشجاعة .

وخرجت من مركز البوليس وسرت فى الطريق وأنا أحاول جهدى أن أسيطر
على نفسى وأكبت شجاعتى .. وألا أكون محدث شجاعة .. فأثور لأقل
سبب ، وأضيع وقتى فى الاشتباك مع الناس لأجل توافه الأمور ، وأشغل نفسى
بذلك عن جلائل الأعمال .. التى يمكن أن أوجه إليها شجاعتى وأفعل بها ما لم
تستطعه الأوائل .

وشرد بى الذهن فأخذت أفكر فى جلائل الأعمال التى يجب أن أستغل
شجاعتى فى مباشرتها والإفادة منها .

وبدأت أستعيد الحوادث فى ذهنى وأستعرض المشكلات والمعضلات
والأزمات والمصائب التى يمكن أن أستعين بشجاعتى على حلها .

وقفز إلى ذهنى .. من بين تلك المشكلات والمصائب .. مصيبة واحدة

يا أمة الخطب .

يا أمة التعاسة .. يا أمة الهزل .. يا أمة الجهل . « يا أمة ضحككت من جهلها الأمم » .

شرد بى الذهن إلى فلسطين ، ومن غير فلسطين تستحق أن أوجه إليها شجاعتي ؟!

وأحسست بفرحة شديدة .. إلى إذا استغللت شجاعتي من أجل فلسطين فلا شك أنى أكون قد وضعت الشيء فى موضعه .

إنى أكون بذلك قد أرضيت نفسى .. وأكون بذلك قد صرفت شجاعتي فيما يجب أن تصرف فيه .. لا فى تلك التفاهات والسخافات التى صرفتها فيها من قبل .

وأخذت أفكر فى خير السبل التى أوجه فيها شجاعتي فى خدمة فلسطين ، يجب أن أتطوع للقتال .. وأذهب فأحمل السلاح ، وأخوض غمار المعركة . هذا سبيل معقول ، أستطيع أن أظهر فيه شجاعتي .. وأبرز فيه جرأتى وإقدامى .. التطوع للقتال واجب .. وطريقة مثلى لإظهار الشجاعة . ولكن حمل السلاح ، وخوض غمار المعركة هو الذى يستدعى شيئاً من التفكير ويتطلب شيئاً من الروية .

أى سلاح هذا الذى سأحمله ؟ وأية معركة تلك التى سأخوض غمارها ؟ لقد سمعت من صاحب لى عائد من فلسطين .. أنه ليس مع أهلها سلاح يحمل ، وأن معظم المقاتلين هناك عزل بلا سلاح ولا ذخائر .. وأن المارك التى بدأت فى أول الأمر ليس بها شيء مما نعرفه عن المارك الحربية ، بل هى أشبه بمعركة بين شاة وقصاب .. قصاب يهودى قد شحذ سكينه ، وشاة عربية .. لا حول لها ولا قوة .

القصاب يصول بسكينه ويمجول .. ويذبح ويقتل .. والشاة تستغيث ، وما من مغيث ، وتستنجد وما من منجد .. إلا الأقوال والخطب .

استطاعت أن تبرز في ذلك الحين من كل ما حولها .. جلية واضحة .. فتصيح
بى لو كان لديك شجاعة ، فهلم بها إلى !!

مشكلة واحدة هى التى كانت تلح وقتذاك فى طلب شجاعتى .. وهى :
فلسطين !! فلسطين الجريحة .. التى يضمّدون بالكلمات جراحها .
فلسطين الباكية .. التى يحففون بالخطب مدامعها .

يا أمة العرب .. يا أمة الخطب . يا أمة الحفلات والمآدب ، والله ما كانت
خطبكم إلا خطوبا .. وما كانت مآدبكم إلا مآرب ، والله ما كذب زياد بن أبيه
حين قال فيكم :

« إن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء ، والغى الموفى بأهله على النار ما فيه
سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور التى ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى
عنها الكبير .

إنه ليس منكم إلا من طرفت عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار
الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا
إليه من ترككم الضعيف يقهر ، والضعيفة المسلوبة فى النهار لا تنصر ، والعدد
غير قليل والجمع غير مفترق »

العدد غير القليل . يا أمة العرب .. فأنتم كالخصى .. والجمع غير مفترق ..
يا أمة العرب .. وهذه الجامعة قد وحدث كلمتكم .. وجعلت منكم عصبية
يخشى خطرها .. ومع ذلك فما دفعتم خطراً .. ولا أظهرتم بأساً ولا قوة .
إن العدو ينهش جسدكم .. فلا تفعلون شيئاً سوى الأنين والبكاء . إن الخطر
يدهم أبوابكم فلا تفعلون شيئاً سوى العويل والصراخ .. إن الأندال يسبون
نساءكم ويذبحون أطفالكم ، وأنت تجتمعون وتنفضون . وتحلون وترحلون ، ثم
تتشبهون بعد ذلك بشجاعة العرب يا أشباه الرجال .. ولا رجال .

إن اليهود الذين فرقهم الله فى الأرض شيعاً .. قد فرقوكم شيعاً . إن اليهود
الضالين قد أضلّوكم .. إن اليهود الجبناء قد جعلوا منكم جبناء . يا أمة العرب .

قال لى صاحبى أشياء لا يصدقها عقل .. أشياء لا يجسر القوم على الاعتراف بها . قال لى : إنه ليس لعرب فلسطين تشكيلات عسكرية .. بل هناك مسخرة عسكرية ، وتخرج حرى . وصف لى هجوم الأعراب .. بأن القوم قبل أن يهجموا يطلقون نصف ذخيرتهم فى الهواء على سبيل التفاريح .. كما يفعل أهل البلد فى الريف . وإن اليهود يلقونهم بمدافعهم الآلية فيحصلون صفوفهم المتراسة حصداً .. ويبيدونهم عن بكرة أبيهم .. قال لى : إن المواطنين العرب فى فلسطين يقاتلون — بالذراع — فلا تكتيك حرى ، ولا خطط موضوعة ، ولا قيادات منظمة .

سألت عن الطائرات والمدافع الثقيلة والمدركات ؟ فقال لى : إنها عند اليهود . قلت : والعرب ؟ فقال : لديهم العصى .. قلت : وأين طائراتهم ؟ قال : وعود فى الهواء . قلت : ومدركاتهم ؟ قال : كلام فى الأرض ، قلت : مدافعهم وقنابلهم ؟ قال : هباء فى هباء .

أجل .. إن عرب فلسطين لم ينظموا ، ولم يسلحوا ، ولم يحشد منهم جيش قوى يستطيع أن يذود عن ديارهم ويقاوم خصمهم الغاصب ، بدل أن يولوا منه فراراً ويتركوا له الديار غنيمة سهلة باردة .. إن الجامعة لم تفعل هذا ، وهو أول ما كان يجب عليها فعله .

ماذا يفيد إذا ذهبت إلى فلسطين فزدت جيوش العزل أعزل آخر ! ماذا تستفيد فلسطين من شجاعتى إذا زدت الشهداء شهيداً ؟ لا .. لا .. إن شجاعتى لن تغنى القوم شيئاً ، إذا ما ذهبت إليهم بنفسى .. مجرد فرد أعزل .

يجب على أن أستعمل شجاعتى بطريقة عملية .. أستطيع أن أنقذ بها فلسطين فعلاً .. يجب أن أحرك جيوشاً مسلحة قوية .. يجب أن توضع خطة منسقة ، وهجوم منظم لتتعاون فيه القوات المقاتلة ، وتنقض على اليهود ، فلا تبقى منهم ولا تذر .

(أرض النفاق)

إن حيفا قد سقطت .. ومدافع اليهود الثقيلة قد بدأت تصلى العرب نيراناً حامية ، فقروا من دورهم ، وهجروا أراضيهم .. وأضحى عرب فلسطين كلها مهاجرين لاجئين ، عالة على غيرهم لا يكادون يحصلون على الكفاف .
صح نومكم .. أيها النيام ، وأخطأ والله من سماكم عرباً .. لقد كان يجب عليكم أن تدعوا « نيام . نيام » .

ماذا كنتم تتظنون ؟ .. هل تخيلتم أن اليهود سيأخذون عرب فلسطين — بالخصن — أم تخيلتم أن القوم العزل يستطيعون بخطبتكم وتصفيقتكم أن يتغلبوا على المدافع والطائرات ؟!

لقد سمعت زعيماً عربياً يقول عندما أعلن نبأ التقسيم : « إن القلم سيصمت وسيتكلم السيف » ، وأصابتنى إذا ذاك هزة .. وانتشيت من فرط الحماسة .. وتذكرت خالد بن الوليد ، وعمر بن العاص ، وتذكرت انتصارات العرب وغزواتهم ، ورثيت لليهود المساكين .. وانتظرت أن أسمع حديث السيف .
انتظرت .. وانتظرت ، وطال منى الانتظار ، لأسمع شيئاً ، حتى اتضح لي في النهاية أن السيف لا بد أن يكون به خرس .

لقد تحرّك النيام أخيراً .. وبدعوا يتمطون ويتشاءبون ، وبدأنا نسمع أن الجيوش المسلحة ستتحرك وتطبق على اليهود .

ولكن هل يعنى ذلك أنها إذا تحركت .. فهل ستفعل شيئاً حاسماً مجدياً ؟ ..
إن القوم بطيئو التنفيذ .. شديديو البلادة ، وليس هناك من ينخسهم أو يستحثهم على السرعة .. بل الكل يطلبون لهم ويؤمرون .. ويهللون لاجتماعاتهم ويكبرون .

ماذا علّى إذا لو أكون أنا ذلك الناحس المستحث .. الدافع على العمل ، المنسق للخطط ، الخاضع على التسليح والتعاون .. إن خير ما أفعله .. هو أن أدفع العرب للعمل الحاسم الفعال المتناسق الموحد .

إن المسألة لا تخرج عن شيئين .. إما أن يكون اليهود قومًا غير ذوى خطر ..

فتركهم يفعلون ما يشاءون في فلسطين .. ولا نتعب أنفسنا بالاجتماعات والمشاورات والخطب والمقالات والهجوم الفردى غير الفعال ، وإما أنهم خطر داهم .. يهدد كيان كل أمة عربية .. وأن اشتراك أية أمة عربية في درء خطرهم عن فلسطين ، لا يعتبر مجرد مساعدة لفلسطين .. بل هو دفاع ، عن النفس .. وفي هذه الحالة يجب أن تشد القوى وتوحد الجهود ، وتوجه إلى اليهود ضربة قاضية لا تقوم بعدها قائمة .

وهكذا استقرى الأمر على أن أستعين بشجاعتى ، لكى تجعل منى قوة موقظة دافعة للزعماء النيام .. وبدأت أفكر فى الكيفية التى أستطيع أن أصل بواسطتها إلى ما أريد .

وكنت أعلم أن القوم سيجتمعون فى دار الأمانة العامة للجامعة العربية .. فقلت لنفسى : إن أول ما يجب على فعله هو أن أتوجه إلى هناك .. ولا شك أن الله سيوفقنى إلى ما أفعله ، وسيهين لى من أمرى رشداً .. ويهينى إلى خير التدابير وأفضل الحلول .

واتخذت طريقى متجهاً إلى مقر الجامعة .. فوصلتها بعد فترة من الوقت . ووقفت أتأمل البناء .. فلفتت نظرى لافتة كتب عليها « الأمانة العامة » فتقدمت إلى اللافتة .. وأخذت فى نزعها .. وتقدم إالى أحد الحراس فسألنى عما أفعله ، فقلت : إنى سأغير اللافتة .. ولم يناقشنى الرجل فقد اعتقد أننى مكلف رسمياً بتغيير اللافتة .. وتجديدها .. ولم يمنعنى من عملى .

وكنت قد قررت أن أضع مكان اللافتة لافتة أخرى كتبت عليها بالخط العريض « الخيانة العامة » ..

ولم أكد أنتهى من نزع اللافتة .. حتى سمعت ضجيجاً ورائى .. ورأيت موتوسيكلًا مندفعاً فى ضجة وضوضاء حتى توقف أمام البواب ، وكانت تتبع الموتوسيكل عربية بها بضعة حراس مسلحين .. ثم عربية أخرى أنيقة فخمة ، وعربة ثالثة بها حشد آخر من الحراس .

وسمعت رجلا بجانبى يهمس فى أذنى « الأمين العام » ، وتملكتنى الرهبة ..
وأحسست بخشية من الموكب ومظهره الفخم .. رغم تلك الشجاعة التى كانت
تملأ نفسى .. وسألت الرجل بجوارى :

— وما هذا الموكب الذى يتقدمه ويتبعه !؟

— حراس .

— حراس ا. ولم ؟

— يحرسونه .

ورفعت حاجبى فى دهشة وعدت أتساءل :

حرسه الله وصانه ، وأبقى حياته .. ممن يحرسونه ؟ ومن يخشون عليه ؟

— من الصهيونيين .

— من الصهيونيين !! و .. وما للصهيونيين وماله ؟

— أيها الغبى .. قلت لك إنه الأمين العام .. ثم تسألنى بعد ذلك ما

للصهيونيين وماله ؟

وانتظر الرجل أن أقول « آه .. لقد تذكرت .. يالى من غبى » ولكنى لم أقل

له ذلك .. وعدت أسأل :

— وماذا يخشى على الأمين العام من الصهيونيين ؟

ونظر إلى الرجل نظرتة إلى فلاح غبى لا يفهم من أمور السيامة وتذرع بالصبر

وعاد يجيبنى :

— يخشى أن يفتالوه .

وتصنعت الفزع وتراجعت للخلف ، وقلت للرجل :

— يفتالونه ؟ .. أبعد الله عنه الشر .. ولم يفتالونه ؟

وماذا فعل بهم !؟ .. وأى مكروه أصابهم منه ؟ وأى أذى ألحقه بهم !؟

رارتبك الرجل ، وأخذ يفكر فى قولى برهة .

ماذا فعل بهم ؟

وأى مكروه أصابهم منه ؟

وأى أذى ألحقه بهم ؟

هذا والله شيء محير .. فالصهيونيون كانوا حتى ذلك الوقت بخير وعافية ..
ما أصابهم مكروه ، وما مسهم ضرر... أما الذين أصابهم مكروه ، ومسهم الضرر
والأذى .. وأشبعوا ذبحًا وتقتيلا .. وضربًا وتدميرًا ، فهم العرب .

أخذ الرجل يفكر .. وأعياء التفكير دون أن يجد ما يجيبني به .

وأخيرًا هز رأسه وقال في ثقة واعتداد :

— إن الرجل بيده مفتاح الموقف .. إنه هو الذى يحرك الجامعة .. إنه رجل

الأسرار .. إنه رجل خطير .

ووقع قول الرجل لأول وهلة فى مسمى موقفاً حسناً .. فهو قول رنان فيه

تفخيم وتبجيل .. ولم أجد فيه كثير غرابة .. فهو لا يعدو أن يكون من جملة

الصفات التى طالما ألبستها أو هأمانا للأمانة العامة .. فظهرتها لنا مفخمة مبجلة .

ولكننى أخذت فى فحص القول وتمحيصه ، ومحاولة فهمه . قطعة قطعة . إن

الرجل بيده مفتاح الموقف !

أى مفتاح !! وأى موقف ؟!

إن الموقف كما نعلمه جميعاً .. « بهدلة .. فى بهدلة » . وهزل .. وسخرية فى

سخرية .

إنه هو الذى يحرك الجامعة !

ونحن أدرى بحركات الجامعة ، وما تتمخض عنه .. فكم من مرة تمخض

الجليل .. فولد فأراً .. بل فيراناً من التصريحات والأعمال المرتجلة .. سرعان ما

ابتلعها الجحور فكأنها ما كانت .

إنه رجل الأسرار !

لا تذكرونا بالأسرار ، بالله عليكم .. فكم اجتمعت الجامعة فى بلودان ، وفى

الزعفران .. وقيل لنا وتذاك .. هس .. إياكم أن تتكلموا .. لقد وضعت

الجامعة قرارات سرية خطيرة جدًا .. ستذاع في حينها .. إذا ما دقت الساعة .. وأزفت الآزفة .. وأخذنا نضرب أحساساً في أسداس .. ونقول : ماذا يا ترى قد قررت الجامعة ، وتوقنا لليهود بمس المصير .

كم تحرك الأمين من القاهرة إلى واشنطن ، وكم طار من واشنطن إلى لندن ، وكم نط من هنا إلى هناك كأنه « فرقع لوز » ، وكم صرّح بتصريحاته الغامضة « العائمة » التي تكتنفها الأسرار ، ويحيطها الإبهام ، وحاولنا أن نعرف إذ ذاك سبب الحل والترحال والنط في مشارق الأرض ومغاربها ، وحاولنا أن نفهم تصريحاته ، فحرنا ، وهزنا ريعوسنا ، واتهمنا نفوسنا بالجهل . وقلنا : خير لنا أن ننتظر ، فسيظهر تأثير كل هذا بعد ذاك .

كنّا نظن وقتذاك « تحت القبة شيخ » ، وأن الشيخ من نوع جواب رحال .. نوع يرى « أن العز في النقل » نوع قفاز نطاط لا يستقر تحت القبة قط .. تراه اليوم في نيويورك .. وتراه الغد في لندن .. قلنا أعانه الله وقواه .

ودقت الساعة .. وأزفت الآزفة .. وانتظرنا أن يظهر الشيخ وتحل بركاته ، وأن تتفتق الأسرار فتبسط منها حمماً تحرق اليهود وتتركهم هشيمًا تذروه الرياح .. انتظرنا سر الشيخ الباتع .. انتظرنا أن تتحرك من فلسطين الجيوش المنظمة ، والقيادات العليا والتكتيكات العنيفة .. انتظرنا أن نرى الفن الحرنى فلقد قالوا لنا : إن الشيخ كان فيما مضى محارباً قديماً شجاعاً .

وطال بنا الانتظار ، ونحن لا نرى إلا دخان البخور في الجامر ، بدل دخان المدافع في المعارك .. ولا نرى إلا خططاً لمزيد من الاجتماعات ، بدل خطط للهجوم . وإذا بأهل الدار العزل قد غادروها هارين لاجئين .

رحم الله الشيخ .. لقد « استحل » المشيخة .. والجلوس في القبة .

ترى ماذا يمكن أن يخشى اليهود منه .. وقد كان عليهم برداً وسلاماً ؟!

ماذا يخشون من الجواب الرحالة النطاط .. صاحب الاجتماعات والخطب والبيانات والتصريحات ؟!

ماذا يخشون من جبل .. أقسم ألا يلد إلا فيرانا ؟!
ونظرت إلى حشد الحراس ، وقلت : هذه والله سخرية .. فما أظن
الصهيونيين قد بلغوا من الغباء بحيث يفكرون في اغتيال الرجل أو الاعتداء
عليه .. ولو كنت منهم لتطوّعت لحراسته ، ولدعوت له ليل نهار بدوام البقاء
وطول العمر . وأن يحفظه الله للأمانة العامة .. وللصهيونيين عامة .

ونظرت إلى الرجل بجوارى ، ولم أحاول أن أناقشه بل أمنت على قوله ، إذ لم
يكن المجال مجال نقاش . وما جئت إلى هنا للدخول في جدل عقيم ، بل جئت
لأحرك قادة العرب ، وأوقف رءوسهم وأوحد خططهم ، وأنخسهم وأستحثهم
حتى ينسقوا جيوشهم المسلحة المنظمة لسحق اليهود .. وأنبهم أئى على استعداد
لأن أضع جسدى في الطليعة .

وبدأت أنا أصلح من هندامى ، ووضعت اللاحه بجوار الحائط ، ثم سرت في
خطا مثثة تجاه الباب ، وهممت بالدخول .. واستوقفتى الحارس وسألنى عما
أريد .

وابتسمت في ثقة وهمست في أذنه :

— سأخبرك عندما أنتهى من مهمتى .. ادع الله أن يمكننى من إتمامها .

وبدت الدهشه على الحارس وأمسكنى من ذراعى .. قائلا :

— وأية مهمة هذه التى ستنهيا .. ألم تقل إنك ستصلح اللاحه ؟!

واستمريت في الهمس في أذن الرجل :

— لافته !! لا تكن أبله .. أنا أحضر إلى هنا لمجرد تغيير اللاحه ؟! إن مهمتى

أكثر من ذلك كثيرا . إن لى مهمة عظمتى سيتر لها الشرق .

ثم ربت على كتفيه برفق وأردفت قائلا :

— عن إذنك .

ولكن الرجل لم يترك ساعدى ، بل ازدادت قبضته ضغطاً على كائما يخشى
أن أفلت منه ، وعاد يقول :

— مهمتك سيهتر لها الشرق !!..

وفجأة رأيت الرجل يهجم على فيطرخنى أرضا ويصيح بأعلى صوته :

— أيها المجرم الأثيم !

وتكأ كأ علينا بقية الحراس وهم يتصايحون من حولى ، وأنا غريق بينهم ، وسرعان ما أخبرهم الرجل بأننى صهيونى أثيم .. وأننى أخذت أحوم حول دار الأمانة ، وأفهمته أننى قد أتيت لإصلاح اللافة .. ثم حاولت التسلل من الباب واعترفت أننى سأفعل فعلة يهتر لها الشرق .

وازداد الضجيج ، وعلا الصراخ ، وهبط كل من فى البناء بعد أن نقل إليهم الخبر بأن صهيونياً مجرمًا يحاول نفس البناء والفتك بقيادة العرب .. كل هذا وأنا راقد على الأرض ، وقد تكأ كأ على الحراس .. أحاول أن أشرح لهم حسن نيتى وسلامة قصدى .. ولكنى لم أكن أستطيع حتى مجرد التنفس .

وبعد لحظات أوقفونى ووضعوا الأغلال فى يدى وساقونى إلى عربة مقفلة .. وأنا أسمع الأقوال حول مختلطة متداخلة ، فمن قائل . إنه رآنى منذ أسبوع أرسم مدخل الدار .. ومن قائل : إنه يعرف أننى على رأس عصابة صهيونية خطيرة . ولم أكن أصدق قط أن هذا قد حدث لى .. أنا الذى منذ لحظة كنت أنوى تحريك الجيوش وتمهيس القواد .. أصبح فى غمضة عين صهيونياً أثيمًا .. ورئيس عصابة خطيرة لاغتيال قادة العرب !

وألقى لى فى السجن .. ومضت فترة ثم قادونى إلى النيابة لسماع أقوالى .. وفى طريقى إلى النيابة ، وصل لى أصوات باعة الجرائد .. « ملحق يا جدد . أكبر خيانة عرفها التاريخ . محاولة نفس الجامعة العربية وقتل زعماء العرب » . وقفت أمام وكيل النيابة ، ونظرت إليه فإذا به صديق لى عزيز وزميل قديم ، ونظر هو لى فى دهش ، وقال متسائلا :

— أنت ؟

وهززت رأسى ببساطة وقلت له :

— نعم أنا .

ولم يستطيع أن يكم ضحكه وقال :

— أنت صهيوني !! مالك وللصهيونية ؟!

— ليست الصهيونية هي السبب .

— ما السبب إذا ؟

— الشجاعة .. الشجاعة هي السبب .. أنا لست صهيونيًا .. ولكنى

شجاع .

وقصصت عليه ما كنت أنوى فعله .. دون أن أذكر له شيئاً عن جرعة

الشجاعة خشية أن يتهمنى بالجنون .

وانتهى الأمر بالإفراج عني .. وعدت إلى داري ..

وقد أحسست أن قدمي لا تكادان تحملاني من فرط ما عانيت من جراء جرعة

الشجاعة .

(٤)

فى الطريق

إن الإنسان .. هو الإنسان .. غشاش
مخادع .. كذاب منافق .. فى كل أمة .. فى
كل جيل .
لاتقولوا : رحم الله آباءنا وأجدادنا ..
لأنهم كانوا خيراً منا ، وأفضل خلقاً ..
لاتقولوا ذلك .. فما كانوا يقلون عنا ..
زداة وسفالة .

وصلت إلى البيت فوجدت القوم قد رقدوا والصمت نحيماً فتسللت إلى
حجرتى ، وخلعت ملابسى فى سكون ، وركدت فى الفراش منهك القوى ،
محطم الأعصاب .

واستيقظت فى الصباح وتبينت من الضوء الذى انتشر فى الغرفة أنى قد
تأخرت عن موعدى الذى تعودت الذهاب فيه إلى عملى .. والذى لم أجرؤ مرة
واحدة على التأخر عنه .

أنا رجل شديد المواظبة .. وقد يكون فى مواظبتى هذه نوع من الجبن وخشية
العواقب ، فأنا أخاف أن يؤخذ علتى فى عملى أى مأخذ ، أو خطأ .. لا لحبى
للعمل .. بل لخوفى من الظهور بمظهر المتراخى المكسال .

ولو كنت فى يوم عادى — لم تفعل فيه جرعة الشجاعة بنفسى ما فعلت —
وأريت الضوء قد ملأ الغرفة كما رأيته عندئذ .. لقفزت من السرير كالملسوع

وارتديت ملابسى فى ثوان معدودات ثم خرجت أعدو فى الطريق ووصلت إلى
عملى فى لمح البصر ، وأنا ألث من فرط التعب .

ولكنى .. ولى من الشجاعة ما بى .. وجدتنى أنهض من الفراش ببطء
وأذهب إلى الحمام فى تودة .. ومضت بى نصف ساعة ، وأنا أخلق ذقنى وأرتدى
ملابسى بمنتهى التأنى كأنما أنا ذاهب إلى موعد غرام .. وجلست على مائدة
الإفطار أتناوله فى شهية دون أن يدخلنى أى إحساس بقلق أو خشية .

ماذا يضرنى أو يضير العمل إذا تأخرت عن موعدى نصف ساعة أو حتى ساعة
من ناحيتى أنا .. لا أظنه سيصينى أكثر من كلمة تأنيب من الرئيس .. سأعرف
ولا شك كيف أردّها له .. أما ناحية العمل .. فلا أعتقد أن تأخيرى يضيره
كثيراً .. لأننى لو جمعت كمية العمل التى أعملها فعلاً خلال ساعات العمل
الست لما كانت أكثر من نصف ساعة .

وهكذا خرجت من الدار ، ناعم البال مطمئن النفس .. ليس بى من خوف
ولا عجلة .. أو كما يقولون — فى بطنى بطيخة صيفى — !!

ووقفت فى محطة الترام المزدحمة المكتظة بخليط عجيب من الناس ، وأقبل على
« حسين » بائع الجرائد ، وقد مد إلى يده بكومة منها ، وقال بلهجة مليئة بالثقة
والاهتمام :

— الحالة صعب .. اليهود كانوا حايئسفوا الجامعة . لولا ربنا ستر .
وتناولت منه بضعة جرائد ومجلات ، وطويتها تحت إبطى .. فقد كنت أعلم
تماماً كل ما بها .

وأخذت أقلب الطرف فىمن حولى ، ولفت نظرى رجل متفخ الأوداج ،
بأدى التألق ، قد مال طربوشه على أحد حاجبيه ، وعلق سبابته وإبهامه بطرف
شاربه يشبعه برماً ولفا ، وأمسك بيده الأخرى عصاً اتكأ بها على الأرض ومال
بجسده عليها ، وبدت عيناه حائرتين زائغتين .. بين نوافذ الدور المحيطة ، وبين
الحريم الشارد فى الطريق ، والواقف على الأرصفة .

وأقبل الترام فاندفعنا إليه واستطعت أن أحشر جسدى بين الجمع الوقوف متعلقًا بإحدى الحلقات الجلدية المدلاة من سقف الترام .

وبعد هنيهة رأيت « الكمسارى » مقبلا يشق طريقه بين الأجساد المتراسة وهو ينقر بقلمه على خشبة التذاكر ، ويصيح بين آونة وأخرى — ورق — فأخرجت من جيبي ثمن التذكرة وتناولت منه تذكري .

وتابع الرجل طريقه يبيع الورق لغيرى من الركاب .

والثفت حولى فوق وقع بصرى على ذلك الرجل المتفخخ الأوداج ، المبروم الشارب ، الأرسقراطى المظهر ، ورأيت « الكمسارى » يشق طريقه إليه .. ولا شك أن الرجل قد أحس هو الآخر به فقد بدا عليه مظهر المطارد .

وهنا بدأت أرقب نوعًا عجيبًا من المطاردة الصامتة .. بين « الكمسارى » وبين الراكب المتأنق الأرسقراطى الذى يحاول أن يفلت من ثمن التذكرة ، دون أن تنهاوى أرسقراطيته أو تحد من كبريائه .

كان أول ما فعله الرجل حين أبصر « الكمسارى » مقبلا عليه هو أنه استدار بشيء من العظمة وأعطى ظهره لبائع — الورق — ممسكًا شاربه يمينه .. موليًا وجهه إلى خارج الترام . كأنه يستنشق النسيم .. أو كأن المناظر التى يمر بها الترام .. لم تقع عليها عيناه من قبل فهى تستلفت كل اهتمامه ، أو كأنه — سرحان — لا يحس بشيء من هذه الدنيا الصاخبة حوله .

ولقد بدا الرجل كذلك فعلا .. حتى كدت أخدع فيه ، فأظن حركته تلك التى أعطى بها « الكمسارى » ظهره .. حركة غير مقصودة .. وأنه فعلا شارد الذهن ، لا يحس بالكمسارى ولا يقصد التهرب منه .. لولا شيء واحد هو الذى جعلنى أكشف الرجل .. وهو استراقه البصر — من تحت — ونظرته إلى « الكمسارى » بنصف عينه .. ومراقبته له خفية.... وتتبعه له فى حركاته وسكناته كأن الاثنين فى مبارزة .

وقام « الكمسارى » .. بحركة تطويق واسعة النطاق .. قادته مباشرة أمام

مواجهة خصمه .. وبدأ هجومه بلا رفق ولا هودة .. وانطلقت منه أول قذائفه .. « ورق يا بيه ».

ولكن — البيه — تنحى بسرعة .. فأصابت القذيفة رجلاً بجواره .. سرعان ما مدّ يده بالنقود إلى « الكمسارى ».

ولقد كانت حركته في الدفاع حركة ماهرة .. دلتنى على أن الرجل متمرن في الزوغان . وأثبتت لى أنه كان فى تمام اليقظة ، وأنه كان يتبع جيداً حركات خصمه ، فلم يستطع أن يأخذه بطريقة المفاجأة .

إن الرجل لم يكذب بحس « بالكمسارى » حوله ويقترب منه حتى نظر إلى سقف الترام .. ثم بدا كأنه على وشك أن يعطس ورأته يمد يده فى جيبه باحثاً عن منديله .. ووضعه على أنفه وأخذ يعطس عطسات ، مكتومة ، وكان يلف عقب كل عطسة ربع لفة .. بطريقة غير مقصودة .. حتى انتهى الأمر به بعد بضغ عطسات إلى أن يعطى « للكمسارى » ظهرة مرة أخرى .

ولم يئس « الكمسارى » . بل أصر على أن يعاود الهجوم مرة أخرى .. وكان الرجل قد بدأ ينشر بين يديه جريدة تظاهر بأنه انهمك فى قراءتها وأنها قد شغلته عن كل ما حوله ، فلم يعد يحس لا بكمسارى ولا بغيره .. ومع ذلك كنت أعرف تماماً أن « الكمسارى » لم يفلت من مراقبته لحظة واحدة بدليل هذا الالتفاف البطيئ حول نفسه .. والذى يجعل ظهره دائماً « للكمسارى » .

ولست أشك فى أن الرجل كان سيتنصر فى النهاية .. وأنه كان سيفلت من ثمن التذكرة .. لولا أن حدث أمر جعل المعركة تنقلب فى غير صالحه .. وجعله يسلم فى النهاية .

لقد سقط الرجل بعد أن تكأأ عليه خصومه .. وبعد أن استعملوا معه طريقة الكماشة التى لم يستطع أن يفلت منها .

لقد أخذ « الكمسارى » يطبق عليه كطرف من أطراف الكماشة .. أما الطرف الآخر .. فقد كان فى هيئة مفتش .. يقول للرجل فى أدب : « تذكرة

يا بيه « ، وهنا رأيت الرجل يترنخ ويمد يده في جيبه فيخرج « شلن » .. ويمد يده به إلى المفتش قائلاً : « هات الباقي » .

وتناول المفتش « الشلن » وناول الكمسارى وأخذ منه تذكرة فمزق طرفها وسلمها للرجل .

وفجأة انقلب الحال .. وتطورت المطاردة .. بعد أن أخذ الكمسارى « الشلن » .. وزاغ به بين الركاب دون أن يعطى الرجل بقية النقود .

لقد تبدل الأمر .. فإذا .. بالكمسارى هو المهرب الزائع .. وإذا به يحوم من بعيد حول الرجل .. دون أن يقترب منه قط .

لقد أخذ يكيل بنفس الكيل الذى كال له به .. ويادله استهبالاً باستهبال ، واستعباطاً باستعباط .. والرجل قد انقلب حاله .. انقلباً تاماً .. فتبدل شروده بيقظة .. وصهيته تحفزاً .. ونظرته للكمسارى من تحت لثحت .. أضحت بحلقة وذعراً .. وخشيته منه ، وتجنبه له .. قد أصبحت لهفة عليه ، ورغبة فى الوصول إليه .

وهكذا أخذ الترام يقطع المحطة تلو المحطة ، والرجل يزداد قلقاً وتحفزاً وعيناه تزدادان تعلقاً بالكمسارى .. حتى شغلنى عنه صوت امرأة أجنبية قد جلست على كرسي قريب .

وأخذت تنادى « الكمسارى » فى إلحاح .

وسمعت رجلاً بجوارى بـ يتصعب — بشفتيه ، ويهز رأسه فى أسف .. ويوجه الحديث إلى قائلاً .

— يا سلام .. على الأمانة .. يا خسارة على المصريين .. لو كانت مصرية !!

كانت انتهزتها فرصة .. وصهيت عن التذكرة .

يا خسارة على ولاد العرب !

واستنتجت من حديثه .. أن المرأة الأجنبية تنادى « الكمسارى » بذلك الإلحاح لأنه قد نسى أن يأخذ منها ثمن التذكرة ، ولم أستطع سوى أن أو من على

قوله ، ولا سيما بعد ما رأيته من صاحبنا الأرستقراطى وتفنته فى الزوغان من « الكمسارى » .

وبدأ الركاب يشتركون فى إبداء آرائهم .. ويشيدون بأمانة السيدة خاصة والأجانب عامة .. ويرددون الأمثلة المختلفة .

ولم يعدم الأمر .. أن يكون بينهم من زار — بلاد بره — أو من يعرف بعض من زارها .. فأخذ يضرب الأمثلة بأمانة القوم هناك ، وأن بائع الجرائد يترك الجرائد على الطريق .. والناس يأخذون الجريدة التى يريدونها .. ويضعون القرش فى صندوق بجوار الجرائد .

وأخذ البعض يعلقون على هذا المثل بقولهم : إنه لو حدث عندنا مثل هذا .. لما وجد البائع .. لا الجرائد ، ولا النقود .

وهكذا انهمك الركاب جميعاً فى الحديث .

وسمعت فصلاً كاملاً عن أمانة الأجانب ، وأن حرماننا من هذه الفضيلة .. هو سر تأخرنا .

ولست أنكر .. أنني قد أقيمت بدلولى فى الدلاء .. وأنى اشتركت كغيرى فى ضرب الأمثلة التى سمعتها عن الأمانة فى — بلاد بره — ا

وأخيراً .. وصل « الكمسارى » إلى المرأة .. فإذا بها تهتف به .

— أين النكلة الباقية من القرش الذى أعطيته لك ؟

وأحسنا جميعاً بخيبة أمل .. وكان دثناً بارداً هبط علينا .. بعد ما اتضح لنا .. أن صياح المرأة لا يمت للأمانة بصلة .. وأن هذا الإلحاح منها فى طلب « الكمسارى » لم يكن إلا من أجل « النكلة » الباقية من القرش الذى دفعته ثمتاً للتذكرة .

وشرد بى الذهن .. فتذكرت أنه ليس أسهل علينا من أن نندفع دائماً .. فنشيد بأخلاق الأجانب .. ومقدرة الأجانب .. وفضل الأجانب .. ونسلب أنفسنا من كل خلق .. ونحرمها من كل مقدرة وفضل . فتنسب النقائص لأنفسنا .. والفضائل لسوانا .. يدفعنا إلى ذلك مركب النقص الذى نحسه فى

أنفسنا ، ولو يحشا عن الواقع لوجدناهم شرًا منا .

إن الإنسان هو الإنسان .. فى كل أمة ، وفى كل جيل .

إنى لأذكر ذات مرة .. كنت أدرس فيها أنا ومصرى آخر فى إحدى مدارس الجيش البريطانى ، وكان الطلبة معنا خليطًا من جميع الأجناس : إنجليز ، وبولنديين ، وأستراليين ، وبضعة رجال من جنوب إفريقيا .

وعندما حل موعد الامتحان .. كنت أنا وصاحبى قد استوعبنا كل ما درسناه جيدًا .. فقد كنا نحس من الامتحان خشية ورهبة ، وكنا واثقين أن الغش فى مثل هذه الامتحانات التى يراقبها الإنجليز أمر مستحيل .

فهم قوم أخلاقهم مثلى ، ويجب أن نعتمد نحن على أنفسنا ... فنضرب لهم مثلاً .. إنهم ليسوا خيراً منا .

وبدأ الامتحان ، وانهمكت فى الكتابة .. معتمدًا على نفسى ، ولكن لم تمض برهة حتى وجدت صاحبى يمد يده إلى بورقة .. فتناولتها منه ، وبنى ارتباك شديد ، وقرأتها ، فإذا بها إجابة لبعض الأسئلة .. فتملكنى الحقن على صاحبى ، لأنه سيفضحنا وسط الأجانب ، وأصابنى خوف شديد ، وأخفيت الورقة تحت النشافة .. وأخذت أستعين بما فيها خفية .

ورأيت جارى الآخر ، وهو إنجليزى الجنس .. ينظر إلى بين آونة وأخرى .. فازدت حرصًا على إخفاء الورقة ، خشية أن يتبين أنى أغش .

ومضى الوقت ، وأنا أرى جارى يزداد تلفتًا إلى ، ويدو عليه القلق . وبعد فترة أخرى .. رأيت أن الأمر لم يعد يقتصر على جارى فقط بل سرى بين بقية الطلبة ، وأنهم كلهم قد أخذوا يرمقوننى بغيظ ، ويدو عليهم قلق شديد .

وأخيرًا .. طفح بهم الكيل ، ولم يعودوا يطيقون صبرًا على أن يروا جريمة الغش ترتكب أمام أعينهم . فرأيت جارى قد نهض حائقًا وهجم على .. فانتزع الورقة من تحت النشافة ، وعاد إلى مقعده بهلوء ، وجلس ينقل منها بمنتهى

البساطة .

إي والله ، هذا ما حدث .. لقد كنت أتوقع عندما نزع منى الورقة أن يذهب بها إلى مراقب الامتحان .. ويخبره بجنابة الغش التى ارتكبها أحد المصريين .. ولكنى وجدت أن كل ما فعل هو .. أن أخذ الورقة ليغش منها .. ناظرًا إلى قائلاً : « إني بليد جدًا » ..

اتضح لى فى النهاية أن الورقة كانت مكتوبة بمعرفة المراقب .. وأنها كانت تمر على كل طالب ليغش منها ما يريد ثم يسلمها إلى جاره .. وهكذا ثار الطلبة عندما حجزت الورقة عندى .. ولم ير جارى بدءًا من أن يهجم على لى لىترعها منى .
واتضح لى كذلك أن مهمة المراقب الكبرى لم تكن فى مراقبتنا نحن بل فى مراقبة الباب حتى لا يطب علينا أحد من الخارج .

هؤلاء هم الإنجليز .. وغيرهم من الأجناس .. نحسن الظن بأخلاقهم ، ونربأ بهم عن الغش .
إن الإنسان .. هو الإنسان .. غشاش مخادع كذاب منافق .. فى كل أمة ، وفى كل جيل .

لا تقولوا : رحم الله آباءنا وأجدادنا .. لأنهم كانوا خيرًا منا ، وأفضل خلقًا .. لا تقولوا ذلك .. فما كانوا يقلون عنا .. رداءة ..
لقد كانوا أنانيين مثلنا .. كذابين مثلنا .. آثمين مثلنا . إن هذه العصا من تلك العصية ، أو هذا النعل من ذاك الوطا .

لا تقولوا : إنكم رأيتم فى — بلاد بره — الأمانة والصدق والإخلاص .. فقد رأينا نحن — بلاد بره — عندما أتت إلى — بلاد جوه — وخبرنا جيدًا أهل « بلاد بره » .

أو قد نسيت جيوش الحلفاء .. وكيف كانوا يبيعون مهماتهم ، وأسلحتهم ، وعرباتهم المسروقة بأبخس الأثمان ؟

هل نسيت .. أن اللصوص .. كانوا هم أنفسهم جنود الحليفة ، وضباط (أرض النفاق)

الحليفة ٢١

سلوا كبار المتعهدين ؟ كيف كانوا يرشون — الصاجن — أو — الكابتن — حتى يسمح بقبول البضائع ، رغم أنها غير مطابقة للعينات .. فكانوا بذلك يسيبون خسائر لأمتهم التى هم أمناء على أموالها .. لقد كانوا الصوصا .. ومرتشين ، وغشاشين .. وخونة .. سرقوا من أمتهم ، وغشوا أمتهم ، وخانوا أمتهم .

هؤلاء : هم أهل — بلاد بره — الذين نرى فيهم مثلاً عالياً .. نتشدد دائماً .. بحسن خلقهم .. هل هناك أشد منهم انحطاطاً ، وأردأ خلقاً ؟ لا تحزنوا على أنفسكم .. فكلنا .. فى الهوى سوا .

لا تخطوا من قيمة أنفسكم .. فما كنا شراً منهم . ولا كانوا خيراً منا . وكان الترام قد وصل إلى المحطة التى أبغى النزول فيها .. فشقت طريقى بين الأجساد ، حتى استطعت أن أهبط من الترام .. ووصل إلى صوت الرجل الأرسقراطى يصيح بالكمسارى بعد أن فاض به :

— انت يا جدع انت .. فىن الباقى ؟

ولم تكن المسافة بين مقر عملى ومحطة الترام طويلة .. وكنت دائماً .. أقطعها مسرعاً فى بضع لحظات .

ولكننى اليوم أحسست برغبة فى — التبختر — رغم علمى أنى قد تأخرت عن موعدى ، ما يقرب من الساعة .

وأخيراً ، وصلت إلى المكتب ، وجلست على مقعدى فى هدوء بعد أن ألقيت التحية على الزملاء الذين كانوا يحملقون فى وقد تملكهم الدهش .

كنت أعلم أن دهشهم لم يكن قد سببه تأخرى قدر ما سببته طريقي فى الدخول .. فى الساعة التاسعة .

لقد كنت أتبع طريقة فى الدخول — فى المرات القلائل التى تأخرت فيها عن موعدى من قبل — لا تتناسب قط مع طريقي التى دخلت بها اليوم .

كانت لى طرق ثلاث ، أتبعها دائماً عند التأخر .
أولها : هى أن أقبل عليهم بطريقة توهمهم أنى حضرت مبكراً جداً ،
وانهمكت فى العمل .. وأنى قد ذهبت لأقضى بعض المهام ، وأنى عائد منها فى
التو .

وكيفية تنفيذ هذه الطريقة : هى أن أمر على أى مكتب آخر قبل الذهاب إلى
مكتبى .. وليكن الأرشيف مثلاً .. فأحمل منه بضعة دوسيهات ، وأسير وأنا
أقلبها وأفحصها .. وقد بدا علىّ أبلغ آيات الانهماك .. وأدخل إلى المكتب ..
دافعاً الباب بقدمى .. وأنا مستمر على النظر فى الدوسيهات دون أن أكلّم
أحدًا .. أو ألتفت إلى أحد .. ثم أقذف بالدوسيهات إلى المكتب فى ضيق وتبرم ..
وأتمم ببعض كلمات يفهم منها من حولى .. أننى — قرغان — وأننى الوحيد
الذى أشتغل .. فإذا ما أنبأنى أحد أن — اليه — أى الرئيس — طلبنى حملت
الدوسيهات مرة أخرى .. ودخلت عليه .. وبدأته أنا بالحديث قبل أن يبدأنى
هو .. شاكياً من أنه ليس هناك من يتعاون معى .. وأنه — ما من أحد أقبل على
الشغل — وأنى لن أستطيع أن أتحمّل مسئولية ما قد حدث .. فلقد فعلت كل ما
فى وسعى .. وأخلّيت نفسى من المسئولية .

وتضرب لكمة مع — اليه — الرئيس ، وينسى ما ينوى أن يطلبه منى ..
وينسى بالطبع ، أنه قد طلبنى .. فلم يجدى .. وأنى تأخرت عن موعدى ..
و — يندب — معى فى الموضوع المرتبك الذى دخلت أعرضه عليه .. وليس
أسهل علىّ من أن أقدم موضوعاً مرتبكاً .. لأن كل الموضوعات عندى مرتبكة .
هذه طريقة للدخول فى حالة التأخر .

أما الطريقة الثانية . فهى أن أدخل حزينا مكتئبا .. مدعياً أننى لم أتم طوال
الليل .. لأن زوجتى .. أو حماتى .. كانت مريضة جداً .. وأبدأ بوصف ليلة
سوداء .. قضيتها فى الجرى وراء الأطباء .

أما الطريقة الثالثة .. وهى فى نظرى بمثابة الحالة — ج — فهى أن أدعى أننى

أنا نفسى مريض ، وعلى وشك الهلاك .
وهكذا كان يدفعنى جنبى وخشيتى من العواقب إلى أن أجد مبررات
لتأخرى .. ولقد كانت تلك المبررات دائماً .. تضمن لى أجمل العواقب وخير
النتائج .

أما اليوم .. وقد انطوى الجبن فى نفسى .. وبرزت فيها الشجاعة .
ولم أعد أحس بأى خوف مما قد ينتج عن تأخرى فى الحضور .. فأنى لم أشعر
بحاجتى إلى أن ألتبس أى مبرر للتأخر .. بل دخلت إلى المكتب — علناً —
وصحيحاً معافى .. وضاحكاً مستبشراً .
ونظر إالى الزملاء فى دهش ، وردوا على تحيتى الصاخبة . وهمس لى « بهجت
أفندى » بلهجة الناصح :

— البيه طلبك خمس مرات ، وعرف أنك ما جتش .
وكان فى قوله ما يكفى لأن أنهار وأتماذل .. وأن أندفع إلى « البيه » فأخترتلى
الأعذار لتأخرى .. وأطلب منه العفو .. ولكنى نظرت لى « بهجت أفندى »
بساطة ، وهزرت رأسى متسائلاً :

— ما قلش عايز إيه ؟
وتعجب صاحبى من برودى وهدونى .. وأجابنى بأنه — طلبنى ليس إلا —
وقال على سبيل التحذير .. إن البيه هائج ناثر .
ويخيل إالى .. أنه يجب علىّ قبل أن أسترسل فى ذكر ما حدث أن أعطيكم
صورة واضحة لهذا « البيه » وأن أصفه لكم قطعة .. قطعة .
« البيه » هو إبراهيم أفندى عبد المتعال .. رئيس قلم .. فى وزارة .. يتراوح
عمره بين الأربعين والستين .

ولست أريد أن يؤخذ من قولى هذا دليل على غباوقى أو على عدم كفايتى فى
تقدير أعمار الناس ، لأن لى كل العذر فى أن أعطى للرجل عشرين سنة —
براحا — لكى يتراوح عمره فيها .

وماذا أقول ، وأنا أراه يومًا في الأربعاء ، ويومًا في الستين ، وأخرى عجوزًا في أرذل العمر ؟

إنى أرى عمر الرجل يتوقف على العوامل الآتية :

حلاقة ذقنه .. صبغة شعره .. عراكه مع زوجته ، هزيمته أو انتصاره في الطاولة في الليلة السابقة .. كمية ما احتسأه من النبيذ والعرق .

فقد أدخل عليه يومًا فأجد وجهه برآقا لامعا .. وشعره أسود فاحما ، وعينه ضاحكتين ، فلا أعطيه من العمر أكثر من أربعين عامًا ، وقد أدخل عليه يومًا آخر .. فأجده مغمض العينين .. أبيض الشعر .. أسود لحم الوجه ، تناثرت في ذقنه الشعيرات البيض ، فلا أعطيه من العمر أقل من ستين عامًا . ولولا أنه لم يذهب للمعاش بعد ، لأعطيته أكثر من ذلك .

أما وصف الرجل .. فقد كان ممتلئ الجسد .. أحمر الوجه .. ذا ثلاثة كروش : كرش في بطنه ، وكرش في ذقنه ، وكرش في قفاه .
أما الكرش الأولى ؛ وهى أكبرها حجمًا .. فقد كانت أبرز ما فيه تلك الكنية الذهبية التى تتدلى عليه من جيب الصدى .

وأما الثانية : فقد كانت تهدل أسفل ذقنه حتى تخفى ياقته ، وجزءًا من الكرافة .

وأما الثالثة : فقد كانت من نوع دهنى ، متحجر .. تقوم على قفاه .. كأنها سنام الجمل .

فإذا ما تركت هذه الظواهر الطبيعية الثلاث ، وجدنا الرجل في حد ذاته معقولا كأي آدمى من أبناء آدم .. وعلى عينيه وضع تينكم القطعتين من الزجاج اللتين تميزان ابن آدم عن بقية الحيوان .

أما شاربه فهو لا يستقر على حال .. يومًا مبرم ويومًا مهتل .. ويومًا حليق ، ويومًا مسترسل .

وكانت علاقتى بالرجل على خير ما يرام ، وقد لا أكون مبالغًا إذا ما قلت :

إننى كنت أحب الموظفين إليه .. لا لقدركى فى العمل أو لتفوقى على غيرى من الزملاء .. بل لأنى استطعت أن أفهمه .

والواقع أنى لا أرى فضلًا يمكن أن ينعم به الله على عبده قدر أن يعينه على أن يعينه على أن يفهم رئيسه ، ويعرف يروضه ويسوسه ، ولا شك فى أن أسعد الناس فى الحياة ، هم أقدرهم على فهم الناس .

كان « إبراهيم أفندى » .. أو — البيه — كما تعودت ألسنتنا أن تنطق به ، من أكسل خلق الله وأبلدهم .. ولم يكن يفعل شيئًا أكثر من — الإمضاء — وحتى هذه الإمضاء التى كان يصممها على الأوراق ، كان غالبًا ما يضيّق بها ذرعًا .

كنت أدخل عليه بالدوسيهات ، وكانت إمضاءاته دائمًا تتوقف على حالته النفسية .. لا على فهمه للموضوع ، ولا على استحقاق المسألة للقبول أو للرفض .. وكنت كما سبق القول أقدر الناس على ترويضه ، وعلى أن أحول غضبه رضا ، وكنت أحس حينذاك ، أن الرجل على كبره لا يزيد عن أن يكون فى قرارته طفلًا صغيرًا .

كنت إذا ما رأيت الرجل غاضبًا ، تركت الدوسيهات جانبًا ، وأقبلت عليه أحبيه فى أدب واحترام ، وسرعان ما أسوقه إلى أحد الموضوعات الثلاثة التى لا يمل أبدًا من تكرارها والحديث فيها .

ولم تكن هذه الموضوعات إلا مفاخر يشيد فيها الرجل بنفسه ، وأشار به أنا فى هذه الإشادة حتى أجعله يشعر بمنتهى الرضا والسعادة .

كانت أول هذه الموضوعات .. حكاية قصصها الرجل على ما يقرب من سبعمائة مرة .. وكنت فى كل مرة أسمعها أدهش منها وأبدي تعجبًا كأننى لم أسمعها من قبل .. ثم أعلق عليها بما استطعت من كلمات التقدير والإعجاب .

خلاصة الحكاية .. أن الرجل — كما يزعم — كان فيما مضى من كبار « الفتوات » وبطلا من أبطال حمل الأثقال .. ممن تخشى سطوتهم ويهاب غضبهم ، وكان له صديق — غلبان كده زى حالاتك (كذا كان يقول الرجل

فى كل مرة .. وكنت أنا أبتسم موافقاً على قوله (وكان يجب فتاة لا تكاد تشعر به .. ففى ذات يوم ذهب إليه ، وقد بدا عليه الهم وملأه الاكتئاب وسأله أن يصنع فيه معروفاً لن ينساه مدى العمر .. واستفسر منه عما يطلب . فإذا به يرجوه أن يشتبك معه أمام الفتاة التى يحبها .

ويرفع الرجل منظاره فيضعه على المكتب ويتم قصته قائلاً :

— أجل لقد وجدته يرجونى أن أشتبك معه أمام — البنت — وأتهجم عليه ، ولكنى لا أضربه ، بل يثور هو فى وجهى ويناولنى بوكساً خفيفاً .. فأصرخ أنا وأفر هارباً ، وهكذا يبدو هو فى نظر الفتاة بطلا .. ويستطيع بذلك أن يكتسب حبها .

وفكرت فى الأمر جيداً ، وهممت بأن أرفض .. فقد كان كثيراً على أن أضرب من فتى هزيل كصاحبى .. ولكن دافع الصداقة والإخلاص دفعنى للقبول ، واتفقنا على الموعد ، وتركت له تدبير المسألة .

وذهبنا إلى المكان المتفق عليه ، وهو مقهى أمام دار الفتاة ، وانتظرنا حتى أطلت من النافذة ، فبدأنا تبادل السباب ، ونهضت من مكانى متجهماً على صاحبى ، ونهض هو مندفعاً إلى وناولنى — البوكس — المتفق عليه .

ولكن الظاهر أن صاحبى كانت قد أخذته الجلالة .. وتملكته النشوة ، وحمى بعض الشيء ، فجاءت لكلمته أقوى مما كنت أتصور ... وأحسست منها بألم شديد جعلنى أستشيط غضباً ، وأنسى كل ما اتفقنا عليه ، وأمسك بصاحبنا الهزيل .. وعينك ما تشوف إلا النور .. لقد حملوه من المقهى إلى الإسعاف .. ويسكت « إبراهيم أفندى » .. فأسأله أنا ذلك السؤال الذى أعرف أنه ينتظر أن أسأله إياه :

— والبنت يا سعادة البيه ... عملت إيه ؟

ويضحك إبراهيم أفندى فى تخابث .. وينظر إلى نظرة ؛ يفهم منها أنها قد أحبتة ، ثم يقول ضاحكاً :

— يا واد عيب .. دا كان زمان .

وهنا أندفع في عاصفة من التكريظ ، وينساب من فمى سيل من المدح وأقول كل ما أستطيع قوله من أكاذيب أرضى بها الرجل .

وقد تكون قصة الرجل على شئ من الطرافة ، وقد يحتمل الإنسان سماعها مرة ، ومرتين وثلاثاً .. أما أن تقص على سبعمائة مرة — بلا مبالغة — (فقد كان يقصها على بمعدل يوم بعد يوم) فذلك ما لا يحتمل .. ولكنى مع ذلك استطعت احتمالها في سبيل أن أرضى الرجل ، ولم أمل من التعليق عليها والإفاضة في مديحه وتكريظه ، وهذا هو ما كنت أراه فضلاً في .. وقوة احتمال للمكارة . أما الموضوع الثانى فقد كان موضوع الترقية ، وكيف أنه رغم كفايته وقدرته لم يحظ بمثل ما حظى به من هم أقل منه كفاية وقدرة .. وذلك لأنه صريح شجاع لا يحب التملق ولا المداينة — ووافقته أنا على ذلك مع علمى أنه أكبر مداهن متملق رعديد — ثم يقص على كيف كان « فلان باشا » زميله في المدرسة ، وكيف كان « فلان بك » معه في مكتب واحد ثم أضحى وكيل وزارة ، ولم يزل هو رئيس قلم .

وهكذا يندفع الرجل في ذكر فضائله ومزاياه ، وأنه ليس هناك من يقدر تلك المزايا والمواهب .. وأندفع أنا في موافقته على طول الخط .

أما الموضوع الثالث فقد كان موضوعاً داخلياً .. أعنى خاصاً بحياته الداخلية .. وعلى وجه الدقة .. خاصاً بعلاقته مع الست « أم على » حرمه المصون .

كانت شكوى الرجل من امرأته ، وفضفضته بما تفعله فيه هو خير ما يروح به عن نفسه ، وكان يبدأ الفضفضة عادة بسؤاله — أنت متزوج يا « فلان أفندى ؟ فأجيبه بالنفى ، فينفخ بشدة كمن يزيح عن صدره كابوساً يطبق عليه ويقول : يا بختك !

وأنتظر أنا عليه برهة حتى يشم نفسه ثم أسأله عن الموضوع فيبدأ بوصفه

قائلا :

— الوليّه .. حاتيب خيرى ، يا أخى المحكوم عليه بالسجن المؤبد يخرج بعد عشرين سنة ، وإذا كانت أخلاقه حسنة يشيّلوا عنه ستين ، وأنا بقالى خمسًا وعشرين سنة مع الوليّه مش قادر افلت أبداً منها .

— إيه اللى حصل يا سعادة اليه ؟!

— موريانى المر .. سودت عيشتى .. انبارح طول الليل تدق بالهون .. آلى إيه بتششبش علشان فيه ناس عاملين لها عمل ، ومستكرة الشيايبك علشان ما بصببش للجيران .. قل لى أعمل إيه ؟
وأجابه أنا بمنتهى البساطة :

— طلقها ؟

ثم أبداً فى إقناعه أنه ما زال شاباً ، وفى أوج قوته ، وأظل أنفخ فيه مدحاً وتقريضاً حتى يحس بالرضا التام .

وهكذا كنت أستعمل مع صاحبنا كل ما وهبه الله لى من قدرة فى النفاق والرياء والمداينة ، وكنت بهذه الطريقة أريح نفسى من شرّه وأتقى غضبه .. ما ذكرت مرة واحدة أنى عارضت له رغبة ، أو خالفت له رأياً .

وكنت بين آونة وأخرى أقدم له بعض الهدايا.. بضمن صورى زاعماً أنى حصلت عليها لقطة، وأذكر أنى قدمت له مرة صندوقاً من الشوكولاته يقدر ثمنه بثلاثة جنيهات. وسألنى عن ثمنه ، فقلت له ابتعته لقطة بخمسة قروش ، ولم يدهش الرجل بل نظر لى ببساطة ، وقال لى :

— اوعى يكون أغلى من كده ؟!

لقد كنت أستعين على الرجل بالجبن والنفاق والرياء .. أما الآن ، وقد تناولت جرعة الشجاعة ، وتطاير عنى الجبن وتبدل النفاق والرياء ، ترى كيف أستطيع أن أتعامل معه .. وهل أستطيع أن أحتمل غباوته وحمقه وسخافته وسلاطة لسانه ؟! لقد غادرت مكنتى ودفعت بابى ، وأنا أقول فى نفسى :

— اللهم رفقاً لى .. وبه .

(٥)

اللعبة الكبرى

هذه اللعبة ، لعبة الحكم والحكام ، وما
يتبع ذلك من انتخابات وبرلمانات وأحزاب
وسياسة ، هي شر ما ابتليت به مصر !!
إنها العقبة الكثود ، والأغلال الثقيلة ،
التي تعرقل سير الأمة وتثقل كاهلها .

دفعت الباب .. واقتحمت الحجرة وأنا أحس بجراحة لم أعودها قط من نفسى
عندما أتجاوز باب الرئيس .. ووجدت الرجل جالساً على مكتبه .. وقد بدت
عليه بوادر الشر ، وكأنه يتحفز للانقضاء .

ولم أشك عندئذ أن الرجل فى أسوأ حالاته النفسية .. التى لا تنتج إلا أثر
معركة حامية — على الريق — بينه وبين حرمة المصون .. وكان يجب على
والأمر كذلك .. أن أبدأ بالترفيه عنه ، والتسرية عن نفسه .. وفرفشته ونعنته
بشتى أحاديث النفاق والرياء والمداهنة .. ولكنى شعرت أنى لم أعد أجيد هذه
الطرق ، وأن نفسى قد بدأت تعافها .. وأن الشجاعة الكامنة فى جوفى تأبى أن
تنزل بى إلى هذا الدرك .

ونظرت إلى الرجل وأشرت له بالسلام وسألته :

— هل طلبتنى ؟

ونظر إلى الرجل مكشراً عن أنيابه وسألنى فى غضب :

— أين كنت ؟

ولم يكن لدى أى شك فى أنه على استعداد لقبول أى عذر أعلى به تأخىرى ،
وأنه فى أشد الحاجة إلى أن يسرى عن نفسه بالفضفضة والشكوى ، ولكنى أجبته
فى غير اكتراث :

— لقد تأخرت بعض الشىء .

وهز رأسه متسائلا :

— ولم تأخرت ؟

— لأنى تأخرت فى الاستيقاظ .

وبدأ صبره ينفد ، وحملق فى بعينه وقال مزجرا :

— ولم تأخرت فى الاستيقاظ ؟

— لأنى قد تأخرت فى النوم .

— ولم تأخرت فى النوم ؟

فأجبه بىرود :

— هذا ليس من شأنك .

ذهل الرجل فما كان يتوقع منى هذه الجرأة فى الرد .. وأخذ يرمقنى شررا
وتوقعت أن ينفجر ، فبدأت أتحفز للرد عليه وأصررت على أن أكىل له الصاع
صاعين .. ولكنى — لشدة دهشتى — رأيت قد كظم غيظه وأشار إلى
بالاقتراب والجلوس .

وجلست أمامه متأقفا .. فقد أدركت أنه ينوى أن يملى على الأسطوانة
إياها .. أسطوانة الشكوى والفضفضة .. ويقص على ما تفعله به امرأته ..
ويستشيرنى عما يفعله بها ، وأن على بعد ذلك أن أملى عليه الأسطوانة المقابلة ..
التي أشير عليه فيها أول ما أشير بطلاق امرأته ، ثم آخذ بعد ذلك فى امتداحه والثناء
عليه .

وبدأ الرجل حديثه ، وهو ينفخ ويزفر قائلا :

— إن الحياة مع هذه المرأة لم تعد تطاق .. ذهبت بالأمس إلى مقهى النيو بار

وجلست ألعب عشرة مع « عبد الحميد بك » ، وفي الساعة الثامنة طلبت واحد زبيب ، ثم تركت المقهى إلى ..

وبدأت أنا أتملعل .. فقد كنت أعرف كل ما سينوى قوله ، ولم أكن أحس فى نفسى كثير صبر على احتمال سماعه ، وسألت نفسى كيف استطعت أن أحتمله كل تلك المرات السابقة .. ولم أجد بدا من مقاطعة الرجل متممًا حديثه قائلا فى سخرية :

— تركت المقهى إلى كازينو الشرق ، وقضيت وقتًا بريقًا مع كيكسى الراقصة ، ثم ذهبت إلى البيت ترنخ من السكر .. فقابلتك زوجتك بخناقة .. لرب السما .. هل عندك أكثر من هذا ؟ ما ذنبى أنا ؟ تثقل على كل يوم بما فعلت وفعلت زوجتك .. لعنة الله عليك وعليها ، ثم كيف تبيع لنفسك وأنت فى هذه السن وهذا المركز التلكؤ على المقاهى والتسكع على البارات مع الراقصات ، ثم تذهب إلى البيت سكران طينة ، وتشكو مع ذلك مما تفعله بك زوجتك . ثم رفعت بصرى وحملت فى وجه مليا وأردفت قائلا :

— لقد فضفضت أنت عن نفسك كثيرًا فيما مضى .. هل تسمح لى بلحظات أففضض أنا فيها عن نفسى ، وأزيج بها العلة التى وضعتها على قلبى . أولا .. هل تستطيع أن تذكر لى ما فائدة ذلك — الهباب — الذى تضعه على رأسك .. هذه الصبغة التى تلوث بها شعرك .. هل خدعت بها أحدًا سوى نفسك ؟ .. هل تعتقد أن هناك حمارًا — سواك — يتوهم أن هذا لون شعرك الحقيقى ؟ .. هل تظن الناس قد أصابهم العمى وقلة التمييز .. بحيث يكفى هذا السواد الذى تضعه على رأسك ، لإقناعهم أنك ما زلت فى شرخ الشباب ؟ هل يعقل أن يكون رجل مثلك .. فى وجهه مثل ما فى وجهك من تجاعيد له مثل هذا الشعر الحالك السواد ؟!

ثم هب أنك معجزة عصرك ، وأن الله قد أنعم عليك بحلكة فى الشعر أبدية ، ثم تفسر للناس هذا السواد الذى يبدو فى أرضية رأسك ؟ ماذا تخشى من بياض

الشعر ، وماذا تبغى من تسويده . مزيدًا من جمال ؟ وإيهامًا بفتوة ؟
إن لكل سنن مميزاتها ، ومميزات الشباب جماله وقوته ، ومميزات الكهولة
وقارها وهيبتها ، وأنت بصيغة شعرك قد قلبت سنن الطبيعة ومسخت نفسك
فأضعت وقارك وهيبتك دون أن تكسب جمالًا ولا فتوة .

إني ما رأيت أتعفه منك مخلوقًا ، تضيع ثلاثة أرباع يومك في أحاديث تافهة ،
ومصالح الناس معطلة .. لا هم لك إلا الشكوى من امرأتك ومن حالتك : فلان
باشا كان زميلك ، وفلان بيه أضحى وكيل وزارة ، وأنت ما زلت رئيس قلم ..
احمد الله لأنك أصبحت رئيس قلم ، تور الله في برسيمه ، ماذا كنت تريد أن
تكون أكثر من ذلك ؟

ورأيت الرجل قد اصفر وجهه وفغراه من فرط الدهش ، وأصبح من فرط
الذهول لا يكاد ينطق ببيت شفة ، وكأنه على حد قولهم « قد نزل عليه سهم
الله » فنهضت ببساطة وغادرت الحجرة في سكون كأننى لم أفعل شيئًا .
جلست إلى مكتبى ونظر إلى جارى ليسألنى عن حالة البيه .. فأجبتة
مبتسما : أحسن .

وبدأت أقلب فى الدوسيهات المحتشدة على مكتبى ، دوسيهات مكتظة
بالأوراق .. مليئة بالتعقيد والحشو واللغو .. وكلها مصالح معطلة .. تتسكع فى
دروب الروتين الحكومى وحواريه .. تظلل تلف وتدور حتى ينهكها التعب فتترقد
فى ملفاتها .

ونظرت إلى ركن الغرفة ، فوجدت أكوامًا من الملفات قد خيمت عليها
العناكب وعلتها الأتربة .. كلها مصالح أناس قد أنهكها الروتين الحكومى
فرقدت فى غيبوبة .

ولأول مرة أحسست بمرارة ، وتملكنى هم وأسى ..
وهذا والله هو الداء المستعصى والعلة المستحكمة . هذا هو السرطان الذى لا أمل
للأمة فى الشفاء منه .

هذا البطء المميت فى الأعمال الحكومية ، وفى قضاء مصالح الشعب الذى يتناول الموظفون أجرهم من قوته .

إن أكثر ما يحز فى النفس هو أن العلة لا علاج لها ولا أمل فى البرء منها ، لقد قال الشاعر :

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماسة أعيت من يداويها

ولكننى أعتقد أن الشاعر لو عاش فى زمننا هذا لا ستبدل بالحماسة الحكومة وقال :

« إلا الحكومة أعيت من يداويها » .

إن الآلة الحكومية ، تسير كالسليخة تتسكع وتتهادى وتغفو وترقد .

آلة خربة عتيقة ، محطمة مهشمة ، مركبة على قاعدة من السخافات والتعقيدات ، يديرها أناس كأنهم تنابلة السلطان ليس لهم فى العمل رغبة ولا دافع ، كأنهم فى سخرة .. ليس هناك منهم من يحس بحقيقة واجبه .

هذا هو أحد الملفات الراقدة أمامى ، لننظر ما به .

إنه ملف « السيدة زهرة عبد الحميد » زوجة المرحوم « إبراهيم أفندى عبد الواحد » الموظف بوزارة الأوقاف .

هذه المرأة تطلب تنازل الحكومة عن نصيبها فى معاش زوجها الراحل لأن كل ما سيقى لها من المعاش هو أربعة جنيهات ، ولم يترك لها الرجل أى ريع تعيش منه سوى معاشه .

الملف منتفخ ، حاشد بالأوراق ، مكتظ بالتأشيرات والإمضاءات ، وكيف لا ينتفخ وقد مضى على طلب المرأة سنتان ، والدوسيه يتهادى بين أروقة الوزارة ويغفو فى الأدراج ويرقد على المكاتب ، وفتحت الملف وقرأت آخر — تأشيرة — أنعم عليه بها فكانت كما يلى « يرفض الطلب لأن ميزانية الدولة لا تتحمل كل هذه الأعباء » .

برافو ، هذا والله منتهى الإخلاص لميزانية الدولة ، ترى ماذا كانت تفعل ميزانية الدولة لو لم يتح لها الله مثل هذا الحارس الأمين الذى يخشى أن يرهقها بالجنبيين اللذين كانا على وشك أن ينتزعا منها ويتركها خراوة خاوية !؟ هذا الحارس الأمين الذى رفض أن يسمح بالجنبيين لأرملة « إبراهيم أفندى » ، لكى تستعين بهما على الحياة — بفرض أنها ما زالت على قيد الحياة —

ترى أين ذهبت هذه الأمانة وهذه الشفقة بميزانية الدولة عندما وافق منذ بضعة أيام على صرف ألفين من الجنيات لأرملة المرحوم فلان باشا !!!
أغلب الظن أن ميزانية الدولة لا توجهها إلا الجنيات القلائل ولا ترهقها إلا المبالغ التافهة ، أما هذه الآلاف التى تتدفق فهى أحمال خفيفة لا تثقل كاهلها ، ولا تنقض ظهرها .

ولقد تركت أنا الملف يأخذ غفوته النهائية على مكتبى ، ماذا كنت أستطيع أن أفعل ؟

أجل .. ماذا كنت أستطيع أن أفعل ، قبل أن أتناول جرعة الشجاعة ؟ لا شئ ، ليذهب الملف وصاحبه إلى حيث ألفت .

أما الآن ، وقد أضحيت رجلا شجاعا ، فقد أحسست أن الأمر يختلف تمام الاختلاف ، وأنه يجب على أن أفعل شيئا .

و لم يطل التفكير حتى فتحت الملف وبدأت أكتب مذكرة جديدة بالموضوع لرفعها إلى صاحب السعادة الوكيل لإعادة النظر .

وانتهيت من كتابة المذكرة وأعدت قراءتها لنفسى راضيا مسرورا ، وكان بها ما يلى :

مذكرة

« مرفوعة إلى حضرة صاحب السعادة الوكيل لإعادة النظر فى موضوع تنازل الحكومة عن نصيبها الذى تستحقه من معاش أرملة المرحوم إبراهيم أفندى عبد الواحد » .

« رفضتم سعادتكم طلب الأرملة المذكورة لأنكم لا ترغبون في إرهاب ميزانية الدولة ولا نشك أن التأشيرة قد حدثت خطأ ، أو هي نوع من السهر أو زلة القلم لأن المعروف عن سعادتكم ، أنكم من غواة إرهاب الميزانية ، وأنكم تتحينون الفرصة — للبعزقة — في أموال الدولة ، وليس أدل على قولنا هذا مما يأتي :

١ — سعادتكم ، أول عبء يرهق ميزانية الدولة ، فأنتم ولا شك تعرفون مدى جهلكم بالشئون المالية ، وتعرفون أدوار الاستثناءات التي مررت بها ، وتعرفون أنكم لم توضعوا في مركزكم إلا لعلاقتكم بمن تعرفون .
والتي لولاها لكنتم ما زلتم تغطون في الدرجة السادسة كغيركم من عباد الله الموظفين .

٢ — سعادتكم تجيدون — البقششة — من أموال الدولة ، والإغداق على الأقارب والمحاسيب .

٣ — سعادتكم تحبون جدًا صنع المعروف في بعض الجهات ولبعض الناس بشرط أن يكون هذا المعروف من ميزانية الدولة ، وبشرط أن يكون مرهقًا لها .
وعلى ذلك فقد أدهشتنا جدًا تأشيرة سعادتكم التي تقولون إنكم لا تحبون أن ترهقوا الميزانية ، ولهذا أعدناه إلى سعادتكم للتكريم بإعادة النظر عسى أن يكون ما زال لديكم بقية حياء .»

ثم وضعت الملف جانبًا ، عازمًا أن أرفعه بنفسى إلى سعادة الوكيل المذكور .. وأمسكت بملف آخر ، لم يكن أقل من الآخر انتفاخًا ، وبدأت أقلب فيه . فلم أتمالك نفسى من الضحك .

هذا الملف قد وصل هو الآخر إلى حالة اليأس ، وأضحت وقفته في مكتبى وقفة شتوية .

ماذا به ؟ مسألة هينة جدًا ، في غاية التفاهة ، ومع ذلك فالقواعد الحكومية ؛ لا يمكن أن تتجاوز عنها .

الملف لأرملة أخرى ، لكنها لا تطالب باستثناء ولا تنازل ، بل تطلب حقاً لها
يجب أن تأخذه .. إنها تطلب المكافأة القانونية التي يجب أن تصرفها الحكومة
بمجرد وفاة زوجها ، حتى تتمكن بواسطتها من العيش ، هي — ولا شك —
فقيرة وفي أشد الحاجة لهذا المبلغ من المال . ومع ذلك فقد مضت سنة ونصف على
وفاة زوجها دون أن تقبض شيئاً .

لماذا ؟ الأمر بسيط جداً ، وسخيف جداً .

لأن الأوراق التي كان ينقصها بعض الاستيفاء ، تمت كلها ما عدا أمراً
واحدًا ، وهو اسم المأذون الذي عقد قران الأرملة المذكورة على زوجها المرحوم
منذ ثلاثين عامًا على الأقل .

أى والله هذا هو السبب !!

ولقد استمر الملف راقداً .. سنة ونصفاً ، وسيرقد إلى ما شاء الله حتى يعرف
اسم المأذون ١٩

يا للسخف ! إني والله مخلوق سخيف جبان .. أو هكذا كنت ؟

وفتحت الملف وأمسكت القلم وكتبت في إحدى الأوراق ، اسم المأذون
أحمد إبراهيم على .

أى اسم !! ماذا يضربني لو كتبت من زمن مضى وأنهيت المسألة ، وساعدت
المرأة المسكينة على صرف النقود .. من الذى سيناقشني في اسم المأذون ؟

وهكذا شمرت عن ساعد الجد وعزمت أن أكون شجاعاً في عملي ، وعلى أن
أنهى كل هذه المسائل المعطلة وأدفع بمصالح الناس الراقدة على المكاتب وفي
الأروقة .

وأخذت أعمل بمجد ونشاط حتى خطر لى فجأة خاطر أوقفني عن العمل .
ما قيمة أن أنجز هذه المصالح ثم تتعطل بعد ذلك عند الرؤساء ، وحتى لو
جاوزت هؤلاء الرؤساء فلا شك أنها ستأخذ نومة طويلة في مكتب الوزير .

أجل .. إن معظم هذه المسائل ستعرض على الوزير ، ومن يدري ربما حوّلت
(أرض النفاق)

على مجلس الوزراء ؟

وشرد ذهنى بين الوزير وبين مجلس الوزراء أو ما يسمونه الهيئة الحاكمة .
هذه فى مصر هى اللعبة الكبرى ، واللاعبون فيها هم الساسة .. أما الجمهور
المتفرج فهو الشعب التعس .

هذه اللعبة ، لعبة الحكم والحكام ، وما يتبع ذلك من انتخابات وبرلمانات
وأحزاب سياسية ، هى شر ما ابتليت به مصر !!
إنها العقبة الكثود ، والأغلال الثقيلة ، التى تعرقل سير الأمة وتنقل كاهلها .
ما هى السياسة فى مصر ، وما هى الأحزاب ؟ هل جنت مصر منها شيئاً أم
جنت هى على مصر ؟ .

السياسة فى مصر .. هى الحرفة التى توصل إلى الحكم ، والأحزاب هى فرق
تتبارى وتتسابق فى الوصول إلى الحكم ، والحكم مفروض فيه أن يكون الوسيلة
لقيادة البلد والنهوض به والعمل على رخاء الشعب ، ولكن الحكم فى هذا البلد
ليس وسيلة لشيء ، اللهم إلا رخاء هذه الفرق السياسية المسماة الأحزاب ، أما
رخاء الشعب وقيادته وإصلاحه والنهوض به فتلك أشياء ، قد لا تأتى فى أذهان
الحاكمين إلا عرضاً ، أو لا تأتى أبداً .

هذا البلد لا يحتاج إلى شيء كحاجته إلى الاستقرار .. استقرار وهدوء توضع
فيه المشروعات التى تؤدى إلى رخاء الشعب .. ثم تنفذ فى صمت وسكون وفى
عقل وحكمة .. بلا تهريج ولا ضوضاء ولا شغب .. ولا دعاية ولا حفلات ولا
زينات .. بل تحدد الأهداف التى سنصل إليها ، والطريق الذى سيوصلنا ،
والزمن الذى يستغرقه الوصول . ثم نسير فى طريقنا قدماً .. بلا تلوؤ ، ولا هزل ،
ولا عبث .

ولكن كيف يمكن الوصول إلى ذلك الاستقرار ، وفى بلادنا فرق تتبارى فى
لعبة الحكم الكبرى ، واللعبة تحتاج إلى تصفيق وصفير .. وتنطيط وشقلمبة ١٩
كيف يمكن الاستقرار .. وهذا الفريق ينقض ما أبرم ذاك .. ويحل ما ربط ،

ويربط ما حل .. ويؤخر ما قدم ويقدم ما أخر !! وهكذا نجد أنفسنا دائماً بفضل
مجهود الأحزاب السياسية التي تتوانى على الحكم كأننا « يا بدر لا رحنا ولا
جينا ». كيف يمكن الإفادة من المشروعات .. إذا كان غرضها الأساسي .. هو
الدعاية والمحافظة على كراسي الحكم ، والحصول على هتاف الشعب لا على
فائدته ؟

كيف يمكن الوصول إلى الاستقرار إذا كانت اللعبة الكبرى قد تحكمت فينا ،
وسيطرت على عقولنا ؟!

تبدأ اللعبة الكبرى .. بتلك المهزلة المسماة بالانتخابات .. والتي لم تحدث
قط في أى عهد من العهود .. منذ بدأنا حياتنا النيابية .. أن سلمت من أن ترمى
بالتزوير والغش .

ومهزلة الانتخابات عندنا شيء ظريف يعث التسلية في نفوس الجماهير ،
والفرق خلالها تنشر أفرادها بين الجماهير ، ويلقون اليفط كأنهم أصحاب
سيرك .. ثم يخطبون في الجماهير .. قائلين كلاماً « يموت من الضحك »
يتلخص في أنهم .. أى أفراد الأتيام (سيجعلون السماء تمطر ذهباً وفضة) .
وهكذا يروح الشعب كأنه في مولد .. وهو شعب « هليلي » يحب
التفاريح ، ثم يحين وقت الانتخابات فيجريها رجال الإدارة بمعرفتهم .. بصرف
النظر عن رغبة الجماهير .

وتظهر نتيجة الانتخابات فإذا تيم من الأتيام قد نال كل الأصوات والباقي لم
ينل شيئاً .

وتتم بعد ذلك بقية اللعبة .. فيبدأ مجلس النواب .. في الظهور واللعب ،
ويتكوّن معظمه من أفراد تيم واحد بينهم بضعة أفراد من الأتيام الأخرى . إما أن
يشتموا ويقاطعوا من أغلبية المجلس وإما أن يتسحبوا .

وعمل مجلس النواب الأساسي هو التصفيق بحماسة لكبار أفراد التيم ، أو كما
يسمون التيم الأول ، وهم الوزراء وعلى رأسهم صاحب الدولة كابتن التيم .

مجلس النواب ليس عليه سوى التصفيق بشدة . والموافقة على طول الخط .. والإعجاب والتقدير لأى عمل ، وكذلك الإعجاب والتقدير للعمل الذى يناقض هذا العمل بدون أى خجل ولا استحياء .. ما دام الكاتبن يريد ذلك .. وماذا يضيرهم من الإعجاب والتقدير ؟ ما دام فى هذا الإعجاب والتقدير ضمان لبقائهم ، وبقاء تيمهم .

فإذا ما تركنا « السكندتم » فى تصفيقه وتهليله وانتقاله إلى جدول الأعمال ، ثم التفتنا إلى « الفرست تيم » ، وقد انهمك فى اللعب .. لعب الحكم .. راعنا ما رأينا .

التيم حائر قلق .. يخشى على نفسه من الأتيام الأخرى التى أخذت تضع له العقبات و « الخوازيق » وتتهافت بسقوطه ، وأفراده منهمكون فى قضاء مصالحهم والعمل على رخاء أنفسهم والأقربين إليهم ، ثم يفرعون فجأة على صوت ضجيج الشعب الساخط فيتظاهرون بالعمل لمصلحته محدثين فى مظاهرهم أكبر ضجة وأكبر دعاية ، محاولين استرضاءه بوسائلهم الجوفاء .. ومشاريعهم الشبيهة بالطليل .

والشعب بين الأتيام ضائع حائر .. منصرف بكليته إلى مشاهدة اللعبة .. متلهف على التغير والانقلاب .. يجب أن يسقط هذا ، ويرفع ذاك .. ثم يسقط ذاك ويرفع هذا .. لمجرد التسلية .. والمشاهدة .. يشاهد أحد الأتيام فى اللعب .. فيسخط عليه ويكرهه ويطلب إخراجه من الميدان . فإذا ما بدأ التيم الآخر فى اللعب .. عاد إلى سخطه وطلب الأول .. ونسى كل ما كان من أمره ، هو شعب طيب ، سهل الخداع ، سريع النسيان ، حائر بين هذا وذاك .. لأن هذا شهاب الدين .. وذاك أخوه .

كيف يمكن الاستقرار إذا .. وهذه اللعبة تسيطر على العقول وتشغل الأذهان ؟ .. كيف يمكن الاستقرار ، ومحترفو السياسة مغفلنون فى البلد مسيطرون على دفة أمورها ؟

وأخذت أجهد الفكر في طريقة تخلص البلد من ساستها ، ومن أتيامها ، ومن لعبتها الكبرى .. من حكم وانتخابات ونواب .. إلخ .
وخطر لي فجأة خاطر عجيب .. وفكرة مدهشة .
لِمَ لا نحاول أن نفصل لعبة الحكم عن الحكم فعلا ؟

إن السياسيين والأتيام والجماهير لا غنى لها أبداً عن لعبة الحكم . لا بد من أحزاب وقيام وزارات وسقوط وزارات وكل ما ينتج عن ذلك من ضجيج وتهريج وإشاعات ودعايات .. هذا كله لا يمكن أن يستغنى عنه البلد .. فذلك أشياء مسلية جداً وحرام أن نحرّم الشعب مشاهدتها .

ولكن ما الداعي لأن نربط بينها وبين مصلحة البلد ؟
لِمَ لا نجعل التسلية شيئاً والمصلحة شيئاً آخر ؟ لِمَ نحاول أن نربط بينهما ..
فتضيق مصلحة البلد ؟

أجل .. والله إنها لفكرة هائلة .

نبقى الأحزاب كما هي .. والبرلمان كما هو .. وكل شيء كما هو ، ولكننا نجعل عملهم مجرد لعب وهو وتسلية . فلتجر الانتخابات ولتؤلف الوزارات ولتعقد البرلمانات .. ولتستمر لعبة الحكم كما هي .. على ألا تكون أية صلة بينها وبين الحكم فعلا .

دعوا هؤلاء في لعبهم ولهوهم وتهريجهم وخطبهم .. دعوهم يتسابقون إلى الحكم .. دعوهم يتشاقمون ويتخاصمون ، ويتبادلون التهم والسباب . دعوهم يفعلون كل شيء .. إلا شيئاً واحداً ، وهو الحكم .

يجب أن نضع في الحكم فعلا رجالا لم تلوّثهم الأتيام ، ولم تلقنهم أصول التهريج ، ونفرض عليهم تنفيذ مشروعات معينة ، في مدة معينة .. على أن يقوموا في كل عام بتنفيذ الجزء الذي يجب تنفيذه خلال هذا العام .. ويقودوا نهضة البلاد في جميع الشئون : اقتصادية وزراعية وصناعية وعسكرية .. يعملون في صمت وسكون ، ويدعون الصياح والضجيج للأتيام المنهمكة في لعبة

الحكم .

واستحكمت في رأسي الفكرة وملأني منها إعجاب شديد ، ووجدت فيها الحل الأكبر لصلاح هذا البلد فهي تضمن مصلحة الشعب دون أن تضر بمصلحة محترفي الحكم والسياسة .. وسرعان ما أخرجت من أحد الأدراج ورقة بيضاء .. وبدأت أسطر فيها ملخص الفكرة .. عازما أن أعرضها على أولى الأمر .

ومضت برهة ، وأنا أكتب وأشطب حتى انتهى بي الأمر إلى أن أصوغ المشروع في صيغة مرضية .. وتلوته بضع مرات ، ثم أخذت في تبليغه ، وانتهى بي الأمر إلى أن أصر على عرضه على الوزير مباشرة !

وماذا في ذلك ؟ .. إنه لا شك سيقدر الظروف التي دعتني إلى التفكير في هذا المشروع .. « مشروع فصل الحكم عن لعبة الحكم » ، وهو لا شك سيقدر أن حاجة البلد تستدعي إخراج هذا المشروع إلى حيز التنفيذ ، ثم إنه لن يضره منه شيء .. فهو سيبقى وزيراً كما هو ، وسيبقى له الجاه والمظهر ، والعربة والسعاة ، وسيذهب إلى مجلس النواب ويتحدث بما تعود أن يتحدث به من سقط الكلام ، وسيبقى كما هو صاحب معالي . فماذا يريد أكثر من ذلك ؟

وهكذا اختمرت الفكرة في رأسي ، وسرعان ما نهضت من مكنتي حاملا ورقة المشروع متجهاً إلى مكتب الوزير .

وكان مكتب الوزير هذا يعتبر عندي من المناطق المحرمة التي لا أجسر قط على الاقتراب منها . فقد كنت أحس للوزير بهيبة وخشية .. لشدة ما وجدتها تتطاير من نفسي ، وأنا أتجه إليه حاملا في يدي المشروع الخطير .

ودفعت باب المكتب ببساطة ودلفت إلى الداخل وتقدمت إلى صاحب المعالي ووضعت أمامه الورقة في سكون ثم أدت له ظهرى وغادرت المكتب عائداً إلى مكنتي كأني لم أفعل شيئاً .

وجلس على المكتب وانهمكت في إنهاء بقية الملفات المتأخرة ، ولكن لم تمض لحظة حتى وجدت البية « الرئيس » مندفعاً من حجرتة كأنه الزوبعة وهجم

علّى يهزنى من كنفى صارحًا :

— أيها المجنون .. أنت الذى كتبت هذا ؟

ودفعته جانبًا مظهرًا فرط اشمئزازى من غضبه وثورته ووقع بصرى على الورقة التى كتبت فيها المشروع إياه ، والتى تركتها منذ لحظات على مكتب معالى الوزير ولحت عليها تأشيرة بإمضاء الوزير جاء فيها ما يأتى :

« يكشف على قواه العقلية » .

وعاد الرجل الثائر يصيح لى :

أنت الذى كتبت هذا ؟

وأجبت ببرود :

— أجل .. أنا الذى كتبت .. ماذا به ؟ .. كفر ١٩

— لا شك أنك جنتت .

واندفع الرجل عائدًا إلى حجرته ، آمرًا إياى بالانتظار حتى يتخذ معى الإجراء اللازم ، ولكنى لم أر من الصواب أن أنتظر حتى أرى هذا اللازم الذى بنوى إجراءه معى وقلت : إن من الخير لى أن أغادر المكتب .. إذ لم يعد لى مقام بين هؤلاء المنافقين المداهنين .

ولم تمض برهة حتى كنت أنطلق فى الطريق عائدًا إلى البيت ، ولكنى لم أكد أسير بضع خطوات حتى التقيت بمظاهرة كبيرة حشد فيها جمع خفير من الطلبة يهتفون بضعة هتافات مختلطة .

ونظرت إلى الصبية وساءلت نفسى : ماذا يريد هؤلاء الحمقى !! وماذا يمكن أن يفيدوا أو تستفيد البلد من هذا العبث ؟ . وهممت بأن أوجه القول إليهم ناصحًا .. عندما أبصرت بحجر قد ارتفع واستقر على أحد فوانيس النور فحطمه ، ثم أبصرت بجمع من الرعاع قد اندفعوا إلى واجهة حانوت فحطموها وأخذوا ينهبون البضائع التى بها .

وأبصرت بصاحبه الكهل ، وقد تكأ كئوا عليه وأخذ هو فى الصراخ

والاستنجاد ، فاندفعت لنجدته وأمسكت بواحد منهم فألقيت به على الأرض .
وهنا أحسست باللكمات والضربات تنهال على كالطر ، وصدق على المثل
« الكثرة تغلب الشجاعة » . فلقد تلقيت علقه .. لم أتناول مثلها في حياتي .
وأخيرًا تمكنت من الهروب .. محطم الأعضاء .. لا تكاد تخلو بقعه في
جسدي من كدم أو خدش .

ووصلت إلى البيت ، وأنا ألث من فرط الإعياء ، وقد ورمت إحدى عيني ،
حتى أحسست أني لا أكاد أبصر بها .

وتلقاني أخي عند الباب مرتاعًا وسألني :

— ماذا أصابك ؟

— الحقني .

وارتميت على الفراش ، وأنا أشير بأصبعي إلى فمي .

وعاد أخي يسألني في دهش وذهول :

— ماذا تريد . ماء ؟

فهزئت رأسي ، فعاد يسأل :

— أسبرين ؟

فأشرت بالنفي ، واستمررت على الإشارة يدي إلى فمي ، ولم يفهم أخي

ماذا أريد .. فصاح بي وقد تملكه الذعر :

— تكلم .. ماذا بك ؟ ، ماذا تريد ؟

وأخيرًا استطعت أن أتكلم فقلت له لاهثًا :

— الحقني بشوية ..

— شوية إليه ؟

— شوية جين .

(٦)

فضيلة الجبن

حيا الله الجبن .. فما رفع منار الفضيلة غيره ..
إن أفضل خلق الله أجبنهم .

نظر إلى أخى فاغترًا من الدهش فاه وهز رأسه متسائلا :

— شوية جبن ؟

فأجبت بصوت خافت ضعيف :

— أجل .. إني لم أعد أحتمل هذه الشجاعة التى ستؤدى إلى التهلكة ..
لشد ما صدق الرجل قال إنها بضاعة خاسرة .. يوم واحد منها قد فعل إلى
ما فعل .. فما بالك بالتسعة الباقية ؟ .. لا .. لا .. هذا كثير .. كثير جدًا .. إني
لا أتصور ماذا يمكن أن يحدث لى فى بقية المدة لو انطلقت بين الناس على هذه
الحال ؟

وصمت برهة ثم أردفت متوسلا :

— أرجوك .. أدركنى بجرعة جبن .. اذهب إليه وصف له حالى ..
استعطفه واسترحمه وقل له إني راقد على الفراش أشلاء محطمة وأعضاء مهشمة .
قل له إني على وشك أن أفصل من عملى .. وأن الوزير طلب منهم أن يكشفوا على
قواى العقلية .. قل له ارحم المسكين التمس الذى دفعت به إلى بئس المصير
بفضل جرعة الشجاعة .. لا كنت ولا كانت الشجاعة .. قل له أن يبحث فى
قاع الأدراج وفى الشوالات الفارغة عله يجد بقايا جبن تذهب عنى الشجاعة

وتنقذنى من شرورها .. استعمل معه كل ما استطعت من وسائل الوعيد
والتهديد .. قل له إنه سيكون مسئولاً عن كل ما يحدث لى خلال الأيام التسعة
الباقية وأنى سأكون ضحيته .. وأنى سأبلغ النيابة .. افعل معه كل ما يمكنك .
اضربه .. أو توسل إليه .. ولكن اتنى منه بجرعة جبن تذهب عنى شجاعتى
وتعيدنى إلى ما كنت عليه .

ومضت فترة سكون .. لم ينس أخى خلالها بينت شفة فقد ارتج عليه من فرط
الدهش وأخذ ينظر إلى نظرتة إلى أبله ذى جنة .. وبدأ لى أنه لم يستقر فى ذهنه غير
قولى : إن الوزير طلب منهم أن يكشفوا على قواى العقلية وأنه لم يعد يشك فى أن
بعقلى لوثة ، وأن كل ما قلته عن جرعة الشجاعة والجبن ليس إلا هذيان مجبول ..
وأن ما لى من كدمات وضربات ناتج عن اشتباكى مع الناس وأنا فى حالة هياج .
وهكذا أقنع أخى نفسه بأنه أمام مجنون خطر ..

ووجدته يتسم لى ابتسامة زائفة ستر بها ما اعتمل فى نفسه من الفزع والخوف
علنى ، وأخذ يربت علنى برفق ويقول لى مهدئاً :

— نم .. نم .. استرح ، هدى من روعك .. سأحضر لك ما تريد من
شوات الجبن ، فأنا معك أن هذه الشجاعة شىء خطر .. وأنها لا بد مؤدية بك
إلى التهلكة .. اطمئن .. سأحضر لك الجبن بأية وسيلة .. فقط اهدأ ..
واسترح .

ولم يكن فى قول أخى شىء يبعث على الغضب ، فقد كان هو الرد الطبيعى
على ما سأله إياه .

لقد طلبت منه أن يحضر لى شيئاً من الجبن .. فأنا لى أنه سيحضره ووافقنى
على أن الشجاعة شىء خطر ، ومع ذلك استفزنى قوله ، أو على الأصح استفزتنى
للهمجة التى أسر بها إلى قوله ، لهجة اللين المفرط والركة المتناهية ، لهجة جعلتنى
لا أشك فى أنه يعاملنى كمجنون وأنه — على حد قولهم — (واخذنى على قد
عقلى) .. وليس أدل على ذلك من أنه لم يحاول أن يتفاهم معى فيسألنى من أين

سيأتى بالجبن ؟ ..

ولا حاول أن يستفسر عن كيفية حصولي على جرعة الشجاعة كأن المسألة طبيعية جدًا .. وكأن حوانيت الأخلاق تملأ الميادين والطرقات .. أو كأن الشجاعة يسرح بها الباعة على العربات .

ونظرت إليه في ضيق وحنق وسألته متهمًا :

— هل تعرف من أين ستأتى بالجبن ؟

— أجل .. أجل .. أعرف تماما .. لا تتعب نفسك كثيرًا .. إنها مسألة هينة .

وزاد في الحنق من هذا الأبله الذى يصبر على معاملتى كمجنون واستمررت على تهكمى منه قائلا له :

— أنا أعرف أنها مسألة هينة ، ولكنى أريد فقط أن أتأكد من معرفتك لخانات الرجل .

— يا أخى لا تتعب نفسك كثيرًا .. إن الجبن ملء الطرقات والأسواق وسأعرف كيف أحصل لك عليه .. وأخلصك من هذه الشجاعة التى ستودى بك .. ؟

وهنا غلى مرجلي ولم أعد أحتمل فصحت به غاضبًا :

— أيها الغبى السخيف . أية أسواق هذه المليئة بالجبن ؟ هل تظننى مجنونًا أخرف بما لا أعى ؟ كف عن هذه الموافقة الحمقاء على كل ما أقول .. واعلم أننى فى كامل عقلى ، وأنى فى حال طبيعية جدًا .. لم يطرأ على أى تغيير .. عدا ما أحدثته فى نفسى جرعة الشجاعة .. فأنا والأمر كذلك لست بمجنون .. قد تكون نتيجة الحاليتين واحدة .. وقد تتساوى الشجاعة فى هذا الزمن مع الجنون ، ولكنى أؤكد لك أنى أبعد ما أكون بمن الجنون

وكان أخى يهز رأسه موافقًا على كل ما أقول دون أن يحاول أن يفسر بنية شفة خشية أن أعود إلى حالة الهياج — كما كان يتصور — وأكملت حديثى قائلا :

— وهكذا ترى أن علاجى كائن فى جرعة جبن .. لست أدرى إذا كنت ستجد منه عند التاجر شيئاً أم لا .. فقد أنبأنى أنه ليس لديه من هذا النوع من الأخلاق الرديئة ذرة واحدة .. ولكن من يدرى .. ربما كان لديه بعض منه وسط — الكناسة — القديمة . أو ربما كان لديه شوال منسى أخفى تحت بقية الشوالات ، على أية حال اذهب إليه .. وقل له : إن أخى — فلان الفلانى — الذى أخذ منك بالأمس شجاعة عشرة أيام ، قد جعلته فى يوم واحد راقداً بلا حراك .. وارم العين .. مشجوج الرأس ، تعارك — فى أربع وعشرين ساعة — مع حماته ، ومع سائق الأتوبيس ، ومع باشجاويش القسم ، ومع رجل يضرب امرأته . ثم قبض عليه بتهمة الصهيونية . واعتدى على رئيسه بالإهانة والسب . وتقدم إلى الوزير بمشروع كانت نتيجته أن طلب الكشف على قواه العقلية .. ثم تعارك مع بعض الرعايا فأكمل منهم — علة — لم يذق مثلها فى حياته .. كل هذا فى أربع وعشرين ساعة ، وهو راقداً الآن فى انتظار نجدة من الجبن — يا تلحقه يا متلحقوش — إن جانوت الرجل كائن فى آخر الطريق على يدك اليمنى .. بالقرب من شجرة الجميز الكبيرة . وهو رجل طيب جداً .. ولا شك أنه سيرقى لى .. وسيرسل إلى النجدة .

أما إذا لم تجد عنده للجبن أثراً .. فستكون — واقعة سودة — وسأضطر أن أحبس نفسى فى الحجرة حتى تنقضى العشرة أيام .. دون أن أتصل بأحد . كل ذلك وأخى يهز رأسه موافقاً ، على طول الخط .. وأخيراً قال فى لهجة مؤكدة :

— لا .. لا .. اطمئن ، إن شاء الله سأجد عنده مطلبنا ، إذ ليس من المعقول أن يكون قد نفذ .. لا بد أن يكون هناك — على حد قولك — شيء منه فى الكناسة .. أو فى قعور الأدراج أو الشوالات .. اطمئن واعتمد على كل الاعتماد .

وأخذ أخى ينسحب من الحجرة بانتظام حتى وصل إلى الباب فخرج فى

سكون وأغلق الباب خلفه ، وبعد لحظة سمعت صوت الباب يغلق بالمفتاح .
يا للخائن .. المخادع .. لقد أغلق الباب علىّ إنه ما زال يعتقد أنى مجنون ،
ولقد وافقنى على ما قلت وتظاهر بتصديقى حتى يهرب ويسجننى فى الغرفة .
ووجدت أن المسألة ستزداد حرجاً .. وستطور تطوراً لن ينتهى بأية حال
إلا إلى أسوأ الأمور ، وأننى سأتهم بالجنون وسيحاولون معاملتى كأننى مجنون ،
ولا أظن هناك أبعد إلى جنون العاقل سوى أن يتهمة الناس بالجنون وأن يؤولوا
كل أفعاله وأقواله إلى أنها صادرة من مجنون ، ولن يعدموا بعض ما يرر لهم
ظنونهم .. فلا أظن هناك فارقاً كبيراً بين الإنسان فى حالة الجنون أو فى حالة العقل ..
ولا أظن هناك حدوداً معروفة فاصلة بين الجنون وحالة العقل .. إذ ليس هناك
مقاييس للعقل تجعلها مستوى للمقارنة .. فالمسألة .. كلها مسألة نسبية ،
والعاقل فى قوم مجانين يتساوى مع المجنون فى قوم عقلاء ، ومن متبى العقل متبى
الجنون .. فأعقل الناس أشدهم نبوغاً ، وأشدهم نبوغاً أكثرهم جنوناً .
وهكذا سأجد نفسى متبهاً بالجنون .. ويزيد الطين بلة هذه الشجاعة التى
تملأ نفسى .. فلو كنت على حالتى الأولى من الجبن .. لاستطعت بسهولة أن
أثبت لهم صحة عقلى ، بمختلف أنواع النفاق والرياء .. ولأستطعت أن أداريهم
وأسايرهم وأتبع معهم اللين ، والسياسة ، والمكر ، والدهاء ، أما وأنا على ما فى
من شجاعة وجراءة وصراحة ، فالله وحده يعلم ما سينتهى به أمرى معهم .
وأخذت أفكر فى حل ينقذنى مما أنا فيه ومما أوشك أن أقع فيه .

أين المخرج ؟ كيف النجاة ؟

هذا الأحق الذى أغلق الباب علىّ ، ولم يعد لى فيه أى أمل لكى يذهب إلى
الرجل ويحضر لى جرعة الجبن .. فهو يعتقد اعتقاداً جازماً أننى مجنون ، وعلى
ذلك لم يبق أمامى سوى الاعتماد على نفسى .. و « ما حك جلدك مثل
ظفرك » .

أجل يجب أن أسرع بالفرار قبل أن يسرى فى الدار نبأ جنونى .. وقبل أن يطبق

على القوم .. ويضيقوا على الخناق يجب على أن أتحمّل على نفسي وأسرع إلى الرجل .. وأريه ما قد وصلت إليه .. وأقنعه بأنّ لم أعد أحتمل أيام الشجاعة الباقية ، وأتوسّل إليه أن يعيدني إلى ما كنت عليه من الجبن .
وكان من العبث أن أحاول الخروج من الباب .. فقد أحكم أخى غلقه ، وكانت أية محاولة أبذلها ستثير ضجة تنبه أهل الدار .. وعلى ذلك فلم يبق أمامي سوى النزول من الد .

النزول من النافذة ؟! .. أنا أفكر في النزول من نافذة الحجرة الكائنة في الدور الثاني ؟ .

ولم لا ؟ .. هذا شيء كان يتعذر على عمله فيما مضى . أما الآن .. وأنا الرجل الشجاع .. فلا أظنه بالمتعذر على النزول من نافذة الدور التاسع .
وهكذا لم تكّد تمضي برهة قصيرة على خروج أخى حتى كنت قد امتطيت النافذة .. كأني « طرزان » وبدأت أهبط متسلّقا عمود الشرفة أسفل الحجرة متكئا بيدي على كورنيش يحيط بالعمود ، ولم أكن أشك أن المسألة ستنتهي على خير حال ، وأنى سأصل إلى الأرض سليما .. حتى بدأ الكورنيش يتهاوى تحت يدي فإذا بيدي تفلت ، وإذا بي أقطع بقية الطريق إلى الأرض في لمح البصر .
سقطت على الأرض ، وكانت السقطة — سليمة — بإذن الله ، ولم يحدث لي منها إلا التواء بسيط .. في القدم ، سبب لي بعض العرج .. وخرجت من الدار متسللا وأنا — أذك — بقدمي .

ولم أبكّد أغادر الباب .. حتى وجدتها ؟!

من ؟ هي .. هي بعينها أو بعينها وشفتها ونهديها .. وساقها ؟ هي جارتى .. أو جارة الوادى .. أو جارة السوء ، التي طالما أقضت مضجعي وألّبت عواطفى وأهاجت مشاعرى .

جارتى التي لا ترحم .. جارتى التي طالما هتفت بها : يا جارتى لو تعلمين بحالى .. جارتى التي أعلنتها على حربا شعواء .. ونصبت لي من عينها مدفعي

برن .. سرعى الطلقات .. لا أكاد أقف فى النافذة حتى ينال على منها وابل من النظرات شديدة الفتك محكمة التصويب لا ترضى بغير القلب هدفها .. أما شفتها فقد جعلت لى منها قاذفات اللهب .. شفتان حارتان ملتئمتان .. يحس لهما من بعد .. ما نظرت إليهما إلا وأحسست بلسعة ، وكأنى بهما لو مستهما قطرة ماء — لطشطشت — وتبخرت أو مستهما شفاه أخرى — لبقبت — واحترقت .

أما صدرها فقد ركبت به قنابلها الشديدة الانفجار .. قنبلتين قد رفعت عنهما طابة الأمان .. فهما عرضة للانفجار فى أى لحظة لا باللمس .. بل بمجرد النظر .

أما الساقان فقد كانتا من نوع ذرى لم يكشف عنه بعد ، ولا جرب أثره ، ولكن مجرد التلويح به .. كان كافياً للانهيـار والتسليم .

لقد وجدتـها أمامى .. جارتى المسلحة .. التى طال هجومها على .. واشتد حصارها حولى وأنا صافد أمامها .. لم ينهد لى حصن .. ولا دكت لى قلاع .. أذافع وأقاوم وأصد الهجمة تلو الهجمة .. مستعيناً فى دفاعى بشىء واحد هو الذى أعاننى على المقاومة ، وهياً لى الدفاع .. شىء واحد هو الذى صد عنى كل تلك الغارات والهجمات .

أى شىء .. ذلك الذى أعاننى وهياً لى المقاومة ؟ الضمير ؟ أبداً .. فالضمير شىء لا يستيقظ إلا بعد أن تقع الواقعة وتم الهزيمة .. فيبدأ وخزه وتأنيبه الذى لا جدوى فيه ولا فائدة منه .

حب الفضيلة ؟ لا تكونوا سخفاء .. فتذكروا أشياء وهية لا وجود لها فى عالم الحقيقة .. واذكروا قول الشاعر :

مررت على الفضيلة وهى تبكى

فقلت علام تنتحب الفتاة ؟

قالت كيف لا أبكى وأهلى

جميعاً دون خلق الله ماتوا ؟

إذن أى شيء ذلك الذى أعاننى على المقاومة ؟ والدفاع ؟ حتى لا أسقط
متداعياً أمام جارقي المسلحة .

إنه الجبن !!

أى والله الجبن !!.. لا تدهشوا ، ولا تنكروا على قولى .. فكلنا ذلك
الرجل .

حيا الله الجبن .. فما رفع منار الفضيلة غيره .. إن أفضل خلق الله أجبنهم .
كيف ؟.. الناس من حيث رغبتهم فى النساء نوعان .. نوع زاهد فاضل ،
ونوع مستهتر مهتك .

والنوع الفاضل نوعان .. نوع فاضل حقاً ، ونوع مخادع يعرف كيف يستر
آثامه فيبدو أمام الناس فاضلاً .. وهذا النوع الأخير يستوى مع المستهتر
المتهتك ..بقى أمامنا النوع الزاهد الفاضل حقاً .. ما هى علة زهده وفضيلته ؟.
أمر واحد .. هو جبنه وخوفه من أن يفتضح أمره .. أترى لو أتاحت لأحد من
هؤلاء الزاهدين الأفاضل فرصة أن يتمتع نفسه بإحدى حوريات الجنان وسهلت
له المسألة بحيث لا يفضح أمره ولا يعود عليه منها أى ضرر أو عاقبة .. هل تراه
يقاوم، أو يتورع ؟!

لقد كانت جارقي العزيزة التى يجرى فى عروقها ماء الشياطين تهاجنى بلا رفق
ولا هوادة .. وكنت دائماً أتقى هجومها بدرع حصينة من الجبن .
أقف فى النافذة .. فأجدها على أهبة الهجوم ، ويبدأ هجومها دائماً بخلع
الفستان .. ثم يستمر بعد ذلك بطريقتين : الطريقة الأولى الجمباز ، والثانية
طريقة القراءة ..

أما الأولى .. فالجارية العزيزة اللذيذة .. لا تكاد تخلع الفستان .. حتى
تتوارى وراء « برفان » قصير لا يبدو منه سوى رأسها وكتفها .. ثم تنهمك فى

خلع بقية ملابسها وهي تنعم على بين آونة وأخرى بابتسامة تيل حرارتي وتهديع من ثائرتي .

وبعد لحظات تخرج إلي وقد ارتدت — شورت — وبلوزة حرير .
وتبدأ الجارة بعد ذلك في اللعب والقفز والانحناء والالتواء .. مسلطة على ما لديها من أسلحة وقنابل ومدافع .

أما الطريقة الثانية .. طريقة القراءة .. فهي لا تكاد تخلع فستانها حتى تستلقي على الفراش وتأخذ في القراءة ، وهي في قراءتها لا تقرأ كبقية عباد الله .. بل تتقلب وتتلوى وتثنى وتمطى ، ثم تلقى بالكتاب فترة تمسك بقطة صغيرة تحتضنها وتقبلها .

ولا أجد أنا في النهاية خيرًا من الانسحاب من النافذة عائداً إلى قواعدي سالمًا أو غير سالم .

كانت الجارة ولا شك تستدعيني ، ولم يكن هناك أحب إلي من أن أسلم إليها نفسي رافعاً الراية البيضاء ، ولو لم يكن بنفسى رغبة فيها وتشوق إليها لأغلقت النافذة وكفيت نفسي شر القتال ، ولما تركت رابضاً وراء النافذة أصلى نيران العيون وهب الشفاه .

كنت أقاوم بالجبين .. كنت أقول لنفسى : إن هذه مسألة خطيرة ، وإننى رجل متزوج ، وإن من العبث أن أعلق نفسى بمتعة تحيطها الأشواك ، وأنه قد يرانى في رفقة الجارة أحد معارف السوء — وما أكثرهم في مثل هذه الظروف — فتبلغ زوجتى ، أو قد يرانا أحد الجيران فينشر أمرنا ثم ما النهاية ؟ إما متعة زائلة ، تنتهى بالملل ، وإما علاقة دائمة وفيها شر مستطير .. لا .. لا .. إن من الخير .. أن أتقى شرها وأنأى بنفسى عنها .

وهكذا كان الجبّين .. وخشية العواقب تلبسنى درعاً من الفضيلة .
أما اليوم ، فقد ذهب الجبّين ، وتبددت من نفسى مخشية العواقب ، وهملوت تلك الدرع الزائفة من الفضيلة ، فماذا أفعل ؟ !

(أرض النفاق)

كانت تقف أمامي في الشرفة وقد ارتدت ثوباً من الحرير الأبيض ذا كم جابونيز
كشفت عن ذراعها وعن جزء كبيرة حوله ، وقد تهدل شعرها وانساب على كتفيها
وبرز صدرها حتى فسرت كل قطعة به .

ونظرت إليّ الجارة الفاتنة وابتمت ، وسرعان ما تحولت ابتسامتها إلى
قهقهة عندما رأته — أذك — بقدمي ثم أشارت إليّ بقبلة من أطراف أصابعها .
ولو كنت في حالتي الطبيعية لمولت في مشيتي هارباً خشية عيون الجيران
وألستهم .. ولكني ، والشجاعة تملأ نفسي ، لم يسعني إلا أن أرد على تحيتها
بأحسن منها ، وأرسلت لها قبلة طرقت في الهواء .

ودهشت الحسنة من تلك الشجاعة التي حطت عليّ فجأة وهزت رأسها
متسائلة كأنها تسألني : « إيه جراك » ؟ فأشرت بسبابتي إلى رأسي ، وهزرت
أصابعي بحركة مستديرة قاصداً أن أقول لها : « جنتيني » !
وانطلقت منها ضحكة أخرى نزلت عليّ برداً وسلاماً .. وأشارت بيدها
كأنها تقول « تفضل » .

مرة واحدة !! ترى كيف أستطيع أن أرفض دعوة الحسنة بالفضل !
ورفعت لها يدي إلى رأسي بمعنى « متشكر » .. ولكنها كررت الدعوة .
فرفعت سبابتي وإبهامي — كأني أبرم بهما شواربي — وهزرت رأسي
متسائلاً : هل يوجد لديك رجل ؟ .. فهزت رأسها بالنفي .

وملاحتني النشوة .. ورأيتني أندفع نحو دارها ، لا يقف في طريقي جبن
ولا تقدير عاقبة ولا خشية نتيجة .. لقد استسلمت سريعاً أمام هجوم المرأة ..
وانهارت مقاومتي .. فرفعت الراية البيضاء .
لقد هزمتني شجاعتي شر هزيمة .

واندفعت إلى دار الحسنة .. أعرج الساق .. وارم العين ممزق الثياب ، غير
آبه لما أنا عليه من — بهدلة — و — قلة قيمة — ولو كان لي بعض الجبن لتريثت
طويلاً قبل الاندفاع فما كنت أجسر قط أن أبدو أمام حسنة ، بهذه الهيئة المشينة

والشكل المزرى .

ولكن اشتياقي إلى الحسنة مضافاً إلى الجرأة المستحكمة في نفسى لم يتركألى
الفرصة أن أفكر فى شكلى أو فى ساقى العرجاء أو فى عينى الوارمة ، بل كان كل
همى هو اقتناص اللذة العابرة والفرصة السانحة متمثلاً بقول الشاعر :

وانهب من اللذات جهلك واعلمن .

أن القبور عديمة اللذات
علام الزهد والتقوى والورع ؟ أزهد على ظهر الأرض وفى باطنها ؟ أتقى فى
الحياة وفى الممات ؟

لا تضق همًا بأمس وغد
أمس ولى وغد لم يولد
· ويلنا إن ضاع يومى من يدى
عاطلاً من زينة اللهو وما
صقلت أطرافه شمس المدام
وهكذا ازدحمت فى رأسى كل فلسفة الخيام ، ووجدتنى بعد لحظة .. أصعد
سلم الدار .. وأقف أمام الحسنة وجهاً لوجه .
من يصدق هذا ؟ .. أنا الرجل الفاضل الزاهد .. الجبان .. الرعديد ، أقتحم
دار الحسنة ، وأجلس وإياها فى حجرة واحدة ، وقد كان أقصى ما أستطيع فعله
هو استراق النظر من النافذة !
وجلس وإياها وقد تلاصق جسداًنا وشرى منهما تيار أشبه بالتيار
الكهربائى ... وبدأت أملئ البصر منها من قرب ، وأحقق فى الأسلحة التى طالما
صوبتها لى وأصلتنى بنيرانها .
ورأيتنى مغالياً فى خشيتى منها ، ووجدت البعد والحرمان قد بالغاً فى تأثيرها ،
وأضفياً عليها روعة .

لا جدال فى أن المرأة كانت جميلة ، ولكنها ليست بذلك الإفراط الذى كنت أتوقعه منها .

إن شفتيها أو قاذفات اللهب .. لم يكونا كما خيل لى من السخونة والحرارة .. أو على الأصح كانت سخونتهما مبعثها لإصبع الأحمر الذى رسمهما بإتقان ، وهى سخونة .. باردة زائفة .. الفرق بينها وبين سخونة الشفاه الحقة .. كالفرق بين صورة اللهب ، واللهب نفسه .

وأبصرت مدفعى « البرن » من قرب .. فإذا بطلقاتهما « فشك » مجرد طرقة فى الهواء ، ولا إصابة .. وإذا بالريميل يبدو واضحاً فى جفونهما .

لقد وجدت المرأة المسلحة .. أسلحتها بعيدة المرمى .. إلا على بعد ، ولكنى لا أنكر أنى كنت أتحرق شوقاً إليها ورغبة فيها ، فهى كما قلت امرأة حسناء .. عارية الأذرع ، متهدلة الشعر ، ناضجة الجسد ، وأهم من هذا كله .. ليست زوجتى .

قد جمعتنى وإياها حجرة واحدة .. ولم يكن الشيطان ثالثنا .. لأنه كان أحدنا .

وبدأنا الحديث ناعماً رقيقاً ، وكانت الشيطانة — خفيفة الدم — فسرعان ما رفعت الكلفة بيننا .. وأحطت الحسناء بذراعى ، وضممتها إلى صدرى .. وأحسست بمجسدها ليّناً دافئاً ، وتملكتنى نشوة جارفة .. وعجبت لنفسى كيف استطعت الصبر طوال تلك المدة التى طالما استدعتنى الفاتنة خلالها ، وكيف وقف الجين امامى سداً منيعاً يصدنى عنها ؟ ولم تمض لحظة حتى التقت منا الشفاه ، ووصل إلى أذنى همساتها الرقيقة ، وأصوات أخرى آتية من بعيد .

أصوات ما أبعداها عن الهمسات .. أصوات جعلتها إلى أذنى نافذة الحجرة المقابلة .. حجرتى أنا .

أجل . لقد عاد أهل الدار إلى حجرتى ليطمئنوا على بعد أن أنبأهم الأخ العزيز بنجر جنونى ، فوجدوا أننى قد هربت من النافذة .

وأصخت السمع .. مرهقاً أذنى ، وكانت شفتائى ما زالتا على شفتى
الحسنة ، واستطعت أن أميز بين الأصوات بكاء امرأتى ، وصراخ حماى ، وهى
تنبيههم أنها أول من اكتشف مسألة جنونى عندما تهجمت عليها وهى تضرب
الخادمة .

ومر بذهنى خاطر طارئ .. خاطر بسيط جداً .. ومع ذلك جعلنى أرتجف
رغم كل ما فى من شجاعة !!

ترى ماذا يحدث لو فتحت نافذة الحجر التى أجلس فيها والتى تواجه نافذتى
مباشرة ؟ ماذا يحدث لو أزيل هذا الحاجز الخشبى الرقيق .. فوق بصر أهل الدار
على ، وقد احتضنت الجارة العزيرة .. وألصقت شفتى بشفتيها ، ورحلت وإياها
فى نشوة من الهوى ١٩

أنا رجل شجاع .. ومفعول جرعة الشجاعة أكيد فعال .. ولست أشك أنى
أستطيع بفضلله أن أجوض أحمى المعارك ، والأقى أشد الأهوال .. ولكن شيئاً
واحداً هو الذى لا أستطيع مواجهته ولا حتى تصوره .. وهو أن يقع على بصر
امرأتى وحماى .. وأنا فى هذا الوضع العجيب .

أجل .. لقد نزلت على أصواتهم كالصواعق . وأحسست منها برودة سرت
فى جسدى .. أضاعت كل ما أكسبتنى الحسناء من حرارة ونشوة ..
وجدتني — ألتع — شفتى على شفتيها كأنى ألتعها على ضريح أحد الأولياء ..
وأحسست منى الحسناء شروداً وبروداً .. فهمست متسائلة : « مالك ؟ »
وأجبتها ببساطة ، وأنا أسحب شفتى من شفتيها .
— لا شيء .

ثم بدأت أسحب جسدى ببطء وأبتعد عنها شيئاً فشيئاً .. وهمست إليها :
— عن إذنك .. خمسة .

وهزت رأسها متسائلة فى دهش :

— إلى أين ؟

ورفعت يدي إلى فمي وعدت أمس :

— أشرب .

— سأحضر لك كوبًا من الماء .

ولكنني هزوت رأسي بالنفي .. فتضاحكت .. وقالت مازحة :

— ويسكى صودا ؟

— لا .

— ويسكى سك ؟

— لا .. أريد جبن سك .. جبن مركز .

ثم أدت ظهري وانطلقت أعدو بساق العرجاء .. وجاوزت الباب ، وهبطت الدرج كأني قذيفة مندفعة ، تاركًا الحساء تضرب كفًا بكف .

وقد تملكها مني ذهول شديد .

وانطلقت في الطريق غير ملتفت بئمة ولا يسرة ، وقد استقر في الرأي على أمر واحد .. وهو الوصول إلى تاجر النحاس بأقصى سرعة .. قبل أن يصادفني إنسان وقبل أن تقودني شجاعتى إلى ما لا قبل لي به .

وهكذا أخذت أعدو حاملًا شجاعتى ، حتى وصلت أخيرًا إلى الحانوت المنشود ، حانوت الأخلاق .. فوجدت التاجر الكهل ما زال في جلسته كما هو حتى ، لكأني لم أفارقه لحظة ، وارتيمت أمامه على أحد الشوالات مبهور الأنفاس ، منهوك الأعضاء ، وهتفت به :

— أغثنى .. أدركنى .

وقطب الرجل جبينه وتملكته دهشة وهز رأسه متسائلًا :

— ما بك ؟

— شجاعة .. ضحية من ضحايا الشجاعة .

— ولكنه لم يمض عليك سوى يوم واحد ، وما زال أمامك تسعة أيام :

— هذه هي المصيبة .. تصوّر يا سيدى .. يوم واحد من الشجاعة قد فعل لي

ما ترى .. عرج وعور وجنون ورفث من الشغل .. ومن يدرى ربما رفت من البيت أيضًا ؟ فقد يكون أحد من أهل الخير رآنى وأنا أدخل دار الحسنة فيبلغ امرأتى .. تصور يا سيدى .. هذا ما فعله يوم واحد . فما بالك بالتسعة الباقية ؟ أرجوك يا سيدى .. أغثنى .

ورأيت الرجل يهز رأسه أسفا :

— هذا ما كنت أتوقعه .. لقد نصحتك فلم تقبل النصح .. وأيت إلا أن تركب رأسك فحجرت الشجاعة .. ما ذنبى أنا وقد حذرتك فضررت بتحذيرى عرض الحائط .. إني لست مسئولاً عما حدث لك .. إن كل المسئولية واقعة على عاتقك .

— لا يهمنى كثيراً أن تكون أنت المسئول أم أنا .. إن كل ما أريد هو علاج سريع لهذه الشجاعة .. إني أتوسل إليك .. إني أرجوك .

— وماذا أستطيع أن أفعل لك ؟

— جرعة جبن .. تكفى للتسعة الأيام التالية .. جرعة جبن تتعادل مع الشجاعة فتجعل منى إنساناً طبيعياً أرجوك .. أنا فى عرضك .

— ولكنى قلت إن هذا النوع من البضاعة قد نفذ ، ولم يبق لدى منه ذرة واحدة .. لا جبن ولا نفاق ولا كذب ولا رياء ، ولا لؤم ولا خسة ، هذه أصناف قد استنفدت كلها .. فماذا أستطيع أن أفعل لك ؟

— ابحث يا سيدى .. ابحث .. نقب وراء الشوالات وخلف الأدراج ، اكس أرض الحانوت فقد يكون بها أثر جبن من بقايا الماضى .. من يدرى ؟ ابحث يا سيدى أرجوك إنها مسألة حياة أو موت .

وبدأ صبر الرجل ينفد ، وقال فى شيء من الحدة :

— قلت لك إنه ليس لدى منه ذرة واحدة ، وأنا لا أقول إلا ما أعنى قوله .. أنا أعرف حانوتى .. شبرا .. شبرا وأعرف كل ما به ، فوفر على نفسك مشقة الرجاء الذى لا طائل تحته .

وتملكنى من قول الرجل يأس شديد ، وأطرقت في حزن واستسلام ..
وسادت فترة صمت طويلة ، رفعت رأسي وقلت للرجل مستعطفًا .

— إذا لم يكن لى علاج عندك لهذه الشجاعة .. هل تسمح لى أن أمكث
عندك التسعة الأيام الباقية .. حتى تنتهى بسلام ؟

— على الرحب والسعة .. إن الحانوت حانوتك .

وصمت الرجل برهة ثم رفع حاجبيه وأردف قائلاً :

— لقد خطرت لى فكرة .. فيها لك نوع من العلاج .
وسألته بلهفة :

— ما هى ؟

— إننا نستطيع شفاء الشجاعة التى بك ، ولكنه ليس شفاء بمعنى الكلمة ،
بل هو استبدال الشجاعة بشيء آخر .. فإنك تستطيع أن تختار لك نوعاً آخر من
الأخلاق .. فتأخذ منه جرعة تسعة أيام .. فيحل فى نفسك عمل الشجاعة ..
ما رأيك ؟

وأخذت أفكر فى المسألة ، وأستعرض جميع الأنواع البائرة التى حواها
الханوت .. الإخلاص والصدق والوفاء والأمانة والمروءة والكرم .

إن فكرة الرجل صائبة .. فلا أظن هناك أخطر من الشجاعة ولا أشد أثراً ،
ولا شك أنى أستطيع أن أنتقى من بين هذه الأصناف صنفاً محتملاً .. يستطيع
المرء أن يصبر على مكارهه ويحتمل أضراره خلال التسعة الأيام الباقية ..
وأحسست كأنما قد انزاح عن كاهلى عبء ثقيل وقلت للرجل :

— هذه فكرة صائبة .. إن أى شيء يمكن احتماله .. غير الشجاعة .

وألقيت نظرة أخيرة على الشوالات .. وأخذت أقلب البصر فيها حتى استقر
على واحد منها .. خيل لى أنه أخفها ضرراً .. فقلت للرجل :

— أعطني جرعة من هذا .

— تقصد شوال المروءة ؟

— أجل .. ما رأيك ؟

— لا بأس بها ..

وبدأ الرجل يعيئ لى فى قرطاس مروعة تسعة أيام .

ثم أعطانى إياه ومد يده مودعًا ، ولكنى عدت أقول له مستعطفًا :

— لى رجاء أخير .

— ما هو ؟

— هل تسمح لى بتناول جرعة المروعة هنا .. إلى أخشى على نفسى من

العودة ، وأنا رجل شجاع .. إلى أخشى أن ألقى أهل الدار وما زال لى أثر من

شجاعة .. ثم من يدرى .. ربما تدفعنى شجاعتى فى الطريق إلى أن ألقى قرطاس

المروعة فى الأرض ، وأعود إلى الدار رجلاً شجاعًا .

ومز الرجل رأسه بالموافقة .. ثم مد يده فأخرج كوبًا وجرعة ماء وأذاب فيه

قرطاس المروعة ثم أعطانى الكوب فتناولت الجرعة .

وهكذا شفيت من الشجاعة لأصاب بالمروعة .

ترى أكنت مستجيرًا من الرمضاء بالنار ؟

من يدرى !!؟

(٧)

ذو مروءة

يا أهل القذارة .. رحاكم .. إن النظافة من
الإيمان .. وهى نوع من الإيمان لا يكلفكم
كثيراً ولا قليلاً .. لا يكلفكم أكثر من أن
تعودوا .. لا يكلفكم أكثر من أن تتأسوا
قليلاً فن القذارة .. وتكفوا عن غلوائكم
فيه .. إذا كنتم لا تطيقون النظافة ، فكونوا
قذرين .. ولكن بقدر .

لم تكد جرعة المروءة تستقر فى جوفى حتى أحسست بعضلاتى التى شدتها
جرعة الشجاعة تتراخى وتنكمش ، وخيل لى أن جسدى قد رق ، وأن نفسى
تسامى ومشاعرى ترهف .

لقد أشاعت جرعة المروءة فى نفسى إحساساً عجيباً بالحب والحنان والرقّة
والعطف ، وملأت قلبى برغبة جارفة فى مواساة الناس وتخفيف أحزانهم
وتضميد جراحهم .

فكان أول ما فعلت هو أن نظرت إلى التاجر المسكين فأحسست بالرتاء له
والعطف عليه .. يا للرجل البائس الشقى ! يا لطول ما أضتته الوحدة وآلمته
الوحشة والفراغ !.. يا لطول ما قبع وسط بضاعته الخاسرة الكاسدة .. بضاعته
الطيبة فى عصر ملأ أسواقه الفساد !! بضاعته الخيرة فى زمن غذاء أهله الشر
والسوء .

إيه يا تاجر الحق فى أرض النفاق ! يا بائع الصدق فى دنيا الرياء يا مُهدى
الشجاعة لمعشر الجبناء ! والإخلاص لجمع ضاع بينهم الحق وعز الوفاء !! لشد
ما آلمتنى فجيعتك وأوجعتنى خسارتك .

واقتربت من الكهل الطيب فضمته إليّ في عطف وحنان وقلت له في لهجة تفيض ألماً وحزناً :

— لشد ما عانيت من وحدتك يا سيدى وقاسيت ، إني لا أطيق أن أتركك هكذا وحيداً محزوناً ، سأجعل من نفسى رفيقاً لك يؤنس وحشتك ويشاركك في ضرائك .. أجل يا سيدى لقد عزمت أن أقضى معك بقية عمرى .

ونظر إليّ الرجل بطرف عينية وقال في هدوء :

— أشكر لك مروءتك الطارئة ، ولكننى لست في حاجة إلى من يعيننى فالعون من عند الله ، ولقد تعودت طول الوحشة حتى ألفتها ، ولم أعد أحس منها بضيق أو ملل .

وصمت برهة ، ثم أردف قائلاً :

— خير لى أن أذكرك بشيء يجب أن تضعه نصب عينيك ، إياك أن تعطي وعداً يربطك بقية العمر ، فلا لزوم لأن تعدنى مثلاً بأنك عزمت على أن تقضى معى بقية عمرك ، بل الأضمن أن تقول : إنك عزمت على أن تقضى معى بقية عمر مروءتك ، البالغة تسعة أيام ، هذا هو المدى الذى تستطيع أن تلقى فيه الوعود .. تسعة أيام فقط ، أما بعد ذلك ، بعد أن تبدد من نفسك المروءة ، وتصبح كما كنت خلواً منها فلا ترتبط بوعد أبداً لأنك لا شك حانث به .
وهمت بأن أجادل الرجل وأخبره أن هذه المروءة طبيعية ، وأنها تستمر فى نفسى إلى آخر العمر ، وأنى سأتى إليه إذا ما تبددت لأتناول منها جرعة أخرى لأعيدها إلى نفسى ، لأنى ما أحسست قط بلذة كلذة المروءة ، لذة صفاء النفس والرغبة فى فعل الخير .

ولكن الرجل أسكننى بإشارة من يده وقاطعنى قائلاً :

— أعرف كل ما ستقول ، لقد جربت أثرها وأحسست بكل ما أحسست

به .. اذهب يا بنى ، أعانك الله عليها !

ونظرت إلى الرجل فى دهش وساءنى منه أن يرفض العون الذى عرضته

عليه ، وأنه يأبى أن أبقى إلى جواره لأعينه على احتمال وحدته ، ولم أجد بداً من الانصراف ، ولكنى قبل أن أنصرف خطرلى أن أعين الرجل بطريقة خفية ، لا تمكنه من رفضها .

إن الرجل لا شك فى حاجة إلى المال فهو على ما يبدو رقيق الحال لا يملك غير تلك الشوالات المكتظة بالبضاعة البائرة ، ويعلم الله كيف يحصل على معاشه فهو لا يقبل لبضاعته ثمناً ، بل يؤجل الحساب ليوم الحساب ، وعلى ذلك فإن أى مبلغ أدسه له خفية بين الشوالات لا شك سيسر له حاله ويعينه على قضاء حاجته . وانتهزت فرصة غفلة من الرجل فأسرت بأخراج محفظتى وأخرجت كل ما بها من نقود فدسستها بين الشوالات بحيث تظهر أطرافها ويسهل على الرجل رؤيتها ، ثم شددت يد الرجل شاكرًا وانصرفت فى طريقى عائداً إلى الدار .

وهكذا كان أول ما فعلته بعد أن أصبحت رجلاً ذا مروءة ، هو أن تركت للرجل المسكين كل ما كان معى من نقود وسرت فى الطريق خاوى الوفاض لا أحمل مالا ولا همًا ولا حقداً ولا ضغينة .. لا شئ أبداً إلا أكداً من المروءة تشع من نفسى وتضىء جوانحى كأنها الفوسفور فى الظلمة الحالكة .

سرت فى الطريق متجهاً إلى البيت ، ولم أكد أقرب من الباب حتى صادفت كلباً قد تمدد على الأرض وتدل لسانه وأخذ يلهث من فرط العطش .

أى عالم هذا الذى نعيش فيه ؟ عالم القسوة والغلظة والجمود !! هذا الكلب المسكين يكاد يموت من فرط العطش ، والناس تمر به دون أن يفكر واحد منهم فى أن يمد يده إليه بجرعة ماء .

أيها العزيز ، أبشر . لقد صادفت ذا مروءة ، سيروى غلتك بعد طول ظمأ . واقتربت من الكلب وربت عليه برفق وأشرت إليه أن يتبعنى .

ودخلت الدار والكلب معى ، ولم يكد أخى يلمحنى من النافذة حتى صاح فرحاً وهتف بمن فى الدار :

— لقد عاد .

ثم أطل عليّ من النافذة قائلاً في رفق :

— أين كنت ؟ لقد كدنا نحن خوفاً عليك .

ولم أجب بل أشرت إليه رافعاً يدي إلى فمي حتى يحضر للكلب جرعة ماء ..

ولكن الغبي لم يفهم .. وسمعته يجيب بمتى الأدب والركة :

— أجل .. أجل .. لقد أحضرته لك من أفخر الأنواع وأشدّها تأثيراً ، لقد

صدق ظنك ، إذ رفض الرجل في بادئ الأمر أن يعطيني إياه زاعماً أنه قد نفذ ،

ولكنني عرفت كيف أوثر عليه وأنتزعه منه .

ولم أعرف ماذا يعني أخي بهذه — الخطرقة — فهزرت له رأسي مستفهماً عما

يقول ، فأجاب :

— لقد قال لي إن لديه عينة من نوع جديد ، نوع مركز جداً ، تكفي جرعة

منه لأن تجعل عنترة بن شداد أجبن خلق الله .. إنه أحسن أنواع الجبن الموجودة

في السوق .

وفهمت ما يعنيه الأخ الغبي .. وأدركت أنه ما زال يعتقد أنني مجنون .. وأنه

يرى أن يقنعني بأنه قد أحضر إليّ جرعة الجبن التي طلبتها .. حتى يهدئ من

روعي ويطيّب خاطري .

وصحت به ضاحكاً :

— أي جبن هذا الذي أحضرته أيها الخمار ؟ لا شك أن بعقلك لوثته .. إلى

أريد جرعة ماء أسقي بها هذا الكلب الظمآن .

وبدت الدهشة على وجهه وأجاب مرتبكاً :

— حالا .. سأحضر لك الماء .

واختفى من النافذة وسمعته يقول لمن بالداخل :

— الظاهر أنه قد شفى .. لقد كان ما به نوبة طارئة .

وبعد لحظة وجدته قد هبط إليّ حاملاً في يده كوزاً مملوءاً بالماء وتقدم به إلى

الكلب الذى أخذ يعب ما به عبا .
وارتوى الكلب .. ومد فمه ففعل بأخى .. ما فعل الثعبان بصاحبه حين
أحس بالدفء والشبع .. أجل .. لقد عض أخى .
كان الكلب مسعورًا ، وانطلق فى الدار يشبع أهلها نهشًا وعضًا حتى استطعنا
أخيرًا أن نوقفه ، ولكن — بعد خراب مالطة — فلقد عض ما لا يقل عن سبعة
أشخاص .

ولم تمض لحظة .. حتى كان الأهل جميعًا نزلًا مستشفى الكلب ١١
لم ينج منهم إلا واحد .. هو أنا .. صاحب المصيبة وصاحب المروءة .
وتملكنى الحزن ، وملاأتى التشاؤم ، فقد كرهت أن يكون أول قصيدتى
كفرًا ، وأن أبدأ مروءتى بإرسال أهلى جميعًا إلى مستشفى الكلب ، ولكنى
أخذت أعزى النفس بأن كل ما حدث لم يعد أن يكون من فعل القضاء والقدر ،
وأنى لو لم أحضر أنا الكلب ، لاستضاف هو نفسه ، وحضر إلى الدار دون
حاجة إلى دعوة ، وأن الله ما دام قد كتب على الأهل رحلة إلى مستشفى الكلب
فلن ينف فى طريقهم مخلوق ، ولو لم يعرضهم الكلب لعضوا أنفسهم .
وهكذا سريت عن نفسى وأقنعتها بأن المروءة لا دخل لها فى كل ما حدث ،
وعزمت أن أحتمل لوم الأهل وتقريعهم بصدور رجب وحلم شديد ، ولم
يغضبني قط أن أسمع من حماق — أنى طول عمرى جلاب المصايب — وأنها لم
تر من ورائى إلا كل النوازل والكوارث . وأنى لا شك قد — سلطت — الكلب
عليها و « انشك » كل الأهل الأعضاء حقنة كلب « على الماشى » وهم يستنزلون
على غضب الله ويستمطرونه اللعنات .
ولم أجد خيرًا من أن أترك الدار وأنأى بنفسى عن أهلى برهة حتى تخف حدة
غضبهم .

وغيرت ثيابى ، واغتسلت ، وتسليت من البيت .. بعد أن أعدت ملء
الحفظة الخاوية بالنقود .

سرت فى طريقى ، وقد تملكنى إحساس جارف بالعطف على الناس والراء

لهم بلا أدنى سبب ، وتمنيت لو وهب لى الله عدة أجساد أنشرها بينهم .. أحمل عنهم أعباءهم وأخفف مصائبهم .. وضايقنى أن أجد نفسى عاجزاً عما أود فعله لهم ، فقد كانت قدرتى — كإنسان — محدودة .
ولكنى هدأت نفسى وطيبت خاطرى قائلاً : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وأنه ليس على إلا أن أفعل كل ما فى طاقتى .

وبدأت أفكر فى أنجع الوسائل لتخفيف ويلات الناس ، فاستقر رأى على أن أذهب فوراً إلى أحد الأحياء البلدية . فلاشك أنى واجد فيها مرتعاً لمروءتى ، وأنى سأحصل على مورد خصيب للهموم والبلايا ، فى أزقتها وحواريها وحول أضرحة الأولياء فيها .

وبدأت أستعرض لنفسى الأحياء إياها .. الزاخرة بالمصائب .. الرازحة تحت عبء الأمراض والأقذار . بولاق ، القللى ، زينهم ، الحسينية ، عيش الترحمان ، السيدة ، الحسين .

ولم أجد هناك معنى للمقارنة فقد كانت كلها فى الهوى سوا .. وأخيراً اخترت « القللى » .. فقد وجدت أنى أستطيع الوصول إليه بسهولة وكنت قريب العهد بزيارته ، فقد ذهبت إلى إحدى ورش النجارة هناك ، وما زالت صورته مطبوعة فى ذاكرتى .

لم يكن الوصول إلى القللى بالأمر الشاق ، فقد كان فى قلب القاهرة ، ولم يكن على إلا أن أركب أى ترام أو أتوبيس يمر بشارع الملكة ، ثم أنزل قرب الإسعاف عند الكنيسة ثم أعبّر الشارع الجديد المسمى بشارع « الجلاء » ، وأدخل فى أحد الجحور المفضية إليه فأجد نفسى فى القللى ، وما أدراك ما القللى ١٢

شارع ترامت فيه الخضرة ذات اليمين وذات اليسار ، ولست أقصد بالخضرة خضرة الأشجار .. بل خضرة عروق الملوخية .
خطر لى وأنا أجول فى الشارع أن الأسماء التى يكتنى بها عن مصر .. كأرض

الفراعة وبلاد الأهرام ، ينقصها اسم قد يكون أصدقها وأدقها تعبيرًا ، وهو أمة الملوخية .

أجل والله إنها أمة الملوخية ، على جوانب الطريق أكوام من القمامات أظهر ما فيها عروق الملوخية ، والعربات المتجولة منتشرة على الطريق أظهر ما فيها — ورق العنب يا ملوخية — وفي كل دار لا يصل إلى أنفك إلا رائحة واحدة .. ثقلية الملوخية ومن كل نافذة لا تصب على رعوس المارة إلا حلل الملوخية ، حيا الله الملوخية ، وأمة الملوخية .

سرت في القللى على قدمي طبعًا .. فالطريق أو السرداب لا يكاد يسمح بالمرور إلا على القدمين فهو طريق بينه وبين المدنية مائة عام .. طريق أغلب الظن أنه يتمتع باستقلال تام ، وفي الوقت نفسه بالموت الزؤام .

أما عن تمتعه بالاستقلال التام .. فأمر لا يحتاج إلى مناقشة فلا أظن للحكومة سلطانًا على المكان أو أهل المكان ، وكيف يكون لها سلطان على شيء لا تكاد تحس بوجوده .. ما للحكومة وهذه الأمكنة العفنة المنتنة ؟! ما لها ولهذه القاذورات المتراكمة ! ما لها ولهذه السرايب الضيقة التي لا تتسع لمرور عرباتها الفخمة الطويلة العريضة ! ما لها تقضى مضجعها وتشغل بالها بهؤلاء — الرعا ع الحوش — ومساكنهم وطرقاتهم ! ماذا يعنىها من القللى ما دام طريق الملكة بفخامته وأبهته قد ستر أطلاله وأخفى خرائبه ، فما عاد منظرها الكريه يؤذى العيون القريرة ، وما عادت رائحتها التنتة تزكم الأنوف التي تعودت على الاتكنسون ، والسوار دى بارى ؟! ما لوزير الأشغال ومدير التنظيم ومدير النظافة و .. و .. و .. ! ما لكل هؤلاء ولهذه الجحور المظلمة والكهوف الخربة ، ما دامت — بوابير الزلط — والعمال .. دائبين مجدين في تنسيق الزعفران وتبليط الخليفة المأمون والدق والزمالك !! ما لهم وللجحور التي لا تبصرها إلا عين هؤلاء التعسين المساكين !! ما لهم وللجحور التي ما دار بخلد هم قط أنها كائنة منهم على قيد خطوات وهم يطوون بعرباتهم الطرقات الفخمة

الواسعة !

ترى لو أننا حكمنا على أحد هؤلاء بالسكنى فى جحور القللى أو بولاق أو زينهم أو الماوردى .. ماذا كان يصيب الحى العس ؟!

تصوروا معى لو أننا أمسكنا بوزير الأشغال وأجبرناه إجباراً على السكنى فى القللى . ماذا يمكن أن يحدث ؟!

أول ما يحدث هو أن يستدعى الوزير الوكيل ومدير التنظيم وغيرهما من المسئولين ويسألهم فى حق ودش كيف يبقى حى كالقللى فى قلب القاهرة وهو على حالته تلك من القذارة والتانة ؟!

كأنه — لافض فوه — لم يكن يعيش فى القاهرة من قبل ، ولم يكن يعلم أن القللى .. وغيره من أمثاله .. كائنة فى قلب القاهرة .

وهنا يأمر الوزير المصلح فوراً بإصلاح الحى رفقا بأهله ، وخرصا على صحتهم وراحتهم ، ولا تكاد تمر بضعة أيام حتى تجد العمل والإصلاح والهدم والإنشاء قد قام على قدم وساق ، وإذا بالقللى قد مسته يد ساحر ، كما مست من قبل أرضاً بوراً يملكها واحد من أصحاب السلطان فشقت فيها الترع والمصارف وأفاضت على ما حولها خيراً عميماً .

مرت بذهنى كل هذه الخواطر وأنا أسير فى السرداب الضيق .. أشق طريقى وسط كراسى الخوص التى فاضت بها المقاهى القائمة على الجانبين فرصت فى عرض الطريق .

وكان أول ما لفت نظرى فى الحى وأهله هو ما تجلى فيه من روعة الفن .. فن القذارة الرائع .

إن الحكومة لا شك مقصرة فى أمر هؤلاء العس ، ولا شك أيضاً أن ما بهم مرجعه الأول إلى الفقر الذى يكبلهم بأغلاله ، ولكن ما ضرهم لو ضغطوا على أنفسهم ، فحاولوا أن يكونوا من تلقاء أنفسهم أكثر نظافة ! ما ضرهم لو طلقوا

بالثلاثة فن القذارة ؟!

(أرض النفاق)

ولا تظنوا بقولي « فن القذارة » سخرية أو مبالغة .. فأني والله جاد في قولي كل الجد .. إذ لا شك في أن المسألة فن .. وأن أي إنسان غير هؤلاء المتبحرين في فن القذارة لا يمكنه أن يفعل مثل ما فعلوا ، ولا يمكنه أن يصل به الحال إلى مثل ما وصل حالهم ؟

وكيف لا تكون القذارة فنا .. وأنا أبصر هذه المرأة الفنانة وقد جلست على قارعة الطريق بجوار الجدار .. لا فارق هناك بين لون وجهها وملابسها والأرض .. فهي مثل لصديق قول أبي العلاء « أديم الأرض من هذه الأجساد » أو هذه الأجساد من أديم الأرض .. وفي حجرها تمدد وليدها .. أو قطعة أخرى من أديم الأرض ، وقد رمدت عيناه .. وحط الذباب على وجهه زرافات ووحدانا ، وأمامها قفص قد رصت عليه بضع قطع من « نبوت الغفير » (وإن كنت أشك كثيرا في أن نبوت الغفير يمثل هذه القذارة) وبضع قطع أخرى من الحلوى المختلفة الأحجام والألوان والتي قد وجد الذباب فيها مرتعا آخر غير عيني الطفل ، وبجوار المرأة طفل آخر يجبو على قوائمه الأربع فيستقر به المقام على كوم من القمامة .. هو خليط من قشور الخضر والأتربة والماء العطن .. « والبطيخ البابت » ، ويفزع الذباب من وصول الصبي فيطير عن كوم القمامة ، ولكنه يتبين أن القادم صديق .. أو هو جزء حي من القمامة ، فيحيط رحاله مرة أخرى مرحبا بالطفل .

هذه المرأة .. لا شك فقيرة .. ولكن ما دخل فقرها ، في هذا التفنن في القذارة ؟! ماذا يكلفها أن تغسل طفلها ؟! ماذا يكلفها أن تبعد نفسها عن كوم القذارة ؟! ماذا يكلفها لو غطت حلواها (إذا كان لا بد لها من بيع الحلوى) بقطعة قماش نظيفة ؟! ماذا يكلفها لو أمسكت في يدها منشفة رخيصة من القش تذب بها الذباب عن وجهها وعن طفلها ؟!

لن يكلفها كل ذلك إلا أمرا واحدا .. وهو إتلاف تابلوه القذارة الذي تفننت في عمله بالاشتراك مع زرافات الذباب وأكوام القمامة .. هذا التابلوه الحي

المتحرك .. سيذهب برونقه نظافتها ونظافة أولادها .. وتلك المنشة التي ستمسكها ستخرق المحالفة القائمة بينها وبين الذباب .. فلا يعود إلى معاونتها في إبراز فنها .

وتابلوه آخر .. ذلك الرجل الذى وقف على ناصية أحد الأزقة وقد وضع أمامه « طبلية » رصت عليها « شقق البطيخ » وبدأت « الطبلية » كأنها مصيدة ذباب ، وكأن شقق البطيخ ورق ذباب ، والرجل نفسه — أجاركم الله — تمثال للقذارة .. يتمخط ويصق بين ثانية وأخرى .. وقد لوثت يده بماء البطيخ الأسود — بعد خلطه بما تيسر من الأتربة — وحوله قد تناثر قشر البطيخ واللب .. وعلى مقربة منه جدار يقضى الناس حاجتهم بجواره فهو بمثابة (مبوله) تفوح منها رائحة الصنان .. وجواره نافذة تسكب منها امرأة من سطل في يدها ماء أسود قذرًا .

أليس هذا والله فئًا ؟ ماذا يكون فن القذارة أكثر من ذلك !!

يا أهل القذارة .. رحماك .. إن النظافة من الإيمان .. وهى نوع من الإيمان لا يكلفكم كثيرًا ولا قليلًا .. لا يكلفكم أكثر من أن تتعودوه .. لا يكلفكم أكثر من أن تتناسوا قليلًا فن القذارة .. وتكفوا عن غلوائكم فيه .. إذا كنتم لا تطيقون النظافة ، فكونوا قذرين ، ولكن بقدر . لتجعلوا لكم يومًا فى الأسبوع تمتعون فيه أنفسكم بالقذارة . تتمرغون فى التراب ، وتطلقون أطفالكم فى أكوام القمامات ، وتسكبون من النوافذ ما شتم من الماء الآسن .. وتحفلون فيه بتكريم الذباب والبق وكل أنواع الحشرات التى تعاونكم على التمتع بالقذارة . أما فى باقى الأيام فاغتسلوا واغسلوا أطفالكم ودوركم ونظفوا أزيائكم وادفنوا القمامة ، وحاربوا الذباب وغيره من حلفاء القذارة .. افعلوا ذلك .. جربوا النظافة .. فأنى أؤكد لكم .. أنها لن تكلفكم شيئًا ، وأنكم « ستستحلونها » وتطلقون القذارة .. بلا رجعة .

فإذا لم تفعلوا .. فأنى أهيب بالحكام .. أن يفرضوا عقوبة الجلد على عشاق

القذارة وفنائها .. وأن يجلدوكم حتى تستقيم قناتكم .. أو تموتوا .
فخير لكم .. أن يموت منكم البعض جلدًا من أن تموتوا كلكم من جراثيم
القذارة .

سرت في الطريق .. أنقل البصر بين تابلوهات : القذارة ، والفقر ..
والمرض .. ونفسي تفيض عطفًا على أهل الحى .
وبودى أن أفعل شيئًا لأرفع عنهم ذلك البؤس الذى حط عليهم على أجد مخرجًا
للمروءة التى تصطبخب في نفسى .. حتى وقع بصرى على شحاذ قد انكمش
أسفل جدار .. ومد يده في صمت وسكون .. وبدت عليه المذلة والحاجة .
نظرت إلى الرجل .. فأحسست برثاء له شديد .
كان الرجل .. مقطوع الساق والذراع ، ولم يكد يرانى ، حتى تطلع إلى
ببصر متلهف .

وهمت بأن أضع يدى في جيبى لأعطيه شيئًا من النقود .
ولكننى تذكرت أن هؤلاء الشحاذين فئة مخادعة ، وأنهم يتخذون الشحاذة
حرفة .

وكان تذكرى .. ما قرأته في بعض الصحف عن الثروات التى يخلفها بعض
هؤلاء عقب موتهم .. يجعلنى دائمًا أحجم عن مد يد المساعدة إلى أى شحاذ .
ولكننى .. في هذه المرة — والمروءة تملأ جوانحى — وجدت نفسى أتريث
أمام الرجل ، وأنعم الفكر برهة .
أليس من المحتمل .. أن يكون هذا الرجل بائسًا فقيرًا ، محتاجًا إلى المساعدة ،
وأنه ليس مخادعًا ، ولا محتالًا ؟

وهل يعنى ، مجرد أن يخلف بعض الشحاذين ثروة .. أنهم جميعًا .. من
أصحاب الثروات ، وأنهم جميعًا محتالون ؟ وإلى من تقدم يد الإحسان إذا كنا
سنمنعها عن كل سائل ؟

لا .. لا .. هذا فرض خاطئ .. يجب ألا نأخذ الكثرة بالقلّة .

يجب ألا نأخذ البريء بذنب المجرم .
يجب أن أمد يد المعونة إلى الرجل ، مهما كان الأمر .
واقتربت من الرجل ، فوجدته يقول لى بلهجة المتوسل :
« إننى لم أذق طعامًا منذ يومين !! »
ووجدتنى أهتف بنفسى « فرجت » .
أجل .. والله .. إنها « فرجت » !
لقد حل الرجل المشكل ، وأنقذنى من حيرتى وترددى .
إن الرجل قد وضع حاجته بما لا يقبل الشك .
إنه جائع .. لم يأكل منذ يومين ، وهكذا أستطيع أن أقدم له مساعدة عملية
« مضمونة الأثر » وذلك بإطعامه فعلا !! فأكون بذلك قد أسدبت إليه
معروفًا ، وأنا ضامن أنه لم يخدعنى .
وهكذا استقر بى رأى على أن أطعم الرجل .. أطعمه بنفسى .. لا .. أن
أعطيه نقودًا لكى يشتري بها طعامًا . حتى لا أعطيه الفرصة للاحتيال وحتى
أضدّن — إذا كان جائعًا حقًا — أن يأكل أكلة دسمة محترمة .
هذا هو المعروف ، وتلك هى المروءة .. معروف فى موضعه ، ومروءة
نتيجتها مضمونة مائة فى المائة .
ووقفت أمام الرجل ألقى عليه التحية :
— السلام عليكم يا حاج .
وأجاب الرجل بصوت متوسل ، ولهجة منكسرة :
— وعليكم السلام يا بنى ورحمة الله .
— أحقًا .. لم تأكل منذ يومين ؟
— من امبارح الصبح .. وأنا لم أذق لقمة .. أعطنى قرشًا لله .. أشتري به
شقة حاف .
— لا .. لا .. شقة حاف .. لا تنفع .. ولا تسمن .. ولا تغنى من

جوع !.. لا بد لك من غذاء كامل .. يرى عليك .. ويعوّضك الأكلات التي ضاعت منك .

ونظر إلى الرجل في ذلك متوهمًا أني أسخر منه ، وأجاب :
— يا سيدى .. شقة كفاية .. ربنا يعمر بيتك .

— ما رأيك في أن تتناول الغداء معى .. إني لم أتناول الغداء حتى الآن ويمكننا أن نتغدى سويًا .

ورأيت الرجل يرمقنى بطرف عينيه بنظرة فاحصة .
وبدا له أني إما أبله مجنون .. أو ساخر منهمكم .
وأخيرًا أجابنى :

— يا سيدى أنا رجل مسكين .. حرام عليك !!

— حرام على ! إني لا أسخر ، ولا أمزح .. إني أتكلم جادًا .. وإني أصر على دعوتك للغداء معى .. وماذا في ذلك ؟ هل هناك فارق بين عبيد الله ؟
وهكذا استطعت أن أقنع الرجل بصدق رغبتى . في أن يتناول الغداء معى ، وحاول الرجل التهرب ، ولكنى أصررت .

وأخيرًا .. نهض يتوكأ على عكازه ، وسار بجوارى .
وأخذت أفكر في أنسب الأماكن ، لتناول الغداء مع الشحاذ المحترم ، وكان أول ما خطر ببالي .. هو : أن أصطحبه إلى الدار . فقد كان التناقض بين منظرنا سيثير الدهشة واللغط في أى مطعم أطرقه وإياه .. فما تعود الناس .. أن يصبروا « أفنديا » محترما مثل يَدْعُو « شحاذًا » لتناول الغداء معه .

ولكن قليلًا من التفكير جعلنى أستبعد نهائيًا فكرة الذهاب إلى البيت .. ترى ماذا يمكن أن يلقانى به الأهل لو ذهبت إليهم مصطحبًا هذا الذى ينضح قذارة .. وطلبت منهم أن يجهزوا لنا الغداء ؟

ماذا يمكن أن يحدث لى منهم ؟ وعضة الكلب المسعور الذى استصفته من قبل ما زالت تحز في أجسادهم ،

لا .. لا .. إن من الحق أن أحاول اصطحابه إلى الدار .. فلا أظن الأهل يستطيعون الصبر على هذه المرة !

أين نذهب ؟ .. كيف نأكل ؟ .

نبتاع سنلوتش بالطعمية والبقول .. ونأكله ونحن سائران ؟

وفجأة لاحت لى لافتة ، وجدت فيها خير حل للمشكلة لافتة كتب عليها :

« المصمت الوطنى الوحيد » لصاحبه « الحاج عبد القادر عيد » .

وجدتها أخيراً .. حمداً لله !

هذا « المصمت » هو خير ما نتناول فيه الغداء .. فإن دخولنا فيه لن يشير

الدهشة ، فهو جامع حاو لكل من هبّ ودب .

عمم .. ولبد .. وطواقى .. وطرايش .. من كل صنف .. ومن كل نوع .

وأهم من هذا وذاك .. لقد كنت متشوقاً لأن آكل فنة كوارع بالثوم ..

وهكذا أستطيع أن أرضى نفسى ، وأرضى الرجل .. دون أن أخشى لومة لائم .

وسحبت الرجل من ذراعه السليمة .. ودلفت به إلى الداخل .. واحتلنا

منضدة فى أحد الأركان .

وصفقت ييذى منادياً المعلم .

ومضت برهة قبل أن يجيئنى أحد ، فقد كان المكان يعج بالزبائن ، وكان

صبيان المحل فى حركة دائمة .

وجلست أنظر إلى ناحية « القزان » الذى قام مواجهها الباب ، وقد وقف

أمامه من لم أشك قط فى أنه « الحاج عبد القادر عيد » نفسه .. فقد كان بشواربه

المبرومة ، و « لاسته » الملفوفة بعناية حول رأسه .. و « الكبشة » فى يده يقلب

بها القزان .. كأنه قائد يتوسط أرض المعركة .. وقد أمسك فى يده عصا

المرشالية .

وكانت الأبحرة تتصاعد حول المعلم « عيد » كأنها دخان المدافع .. وقد

رصت أمامه ، عشرات السلاطين ، المليئة بالعيش المكسر ، أو « الفتة الجافة » ..

وهو يسكب في كل منها بكبشة من الشورية ، التى ملئ بماء القزان ، ثم يتركها برهة حتى (تبوش) .. وحتى (تشرب ميتها) .. ثم يبدأ بتغطيتها بطبقة رقيقة من الأرز . الموضوع فى قزان آخر .

فإذا انتهى من عملية التغطية بالأرز .. كشف عن حلة (الصلصة) .. وأخذ ينقل منها بكبشة صغيرة .. بمقادير محدودة .. يزين بها سطح السلاطين . وتبدأ بعد ذلك عملية تقطيع الكرشة .. فيخرج من القزان .. كرشة كبيرة .. تتصاعد منها الأبخرة ويأخذ فى تقطيعها على رخامة البنك ، ثم توزيعها على السلاطين .

وهنا يهجم الصبيان فيحمل كل منهم نصيبه من السلاطين ، وينطلقون بين المناضد لتوزيعها على الزبائن .

ويأخذ المعلم (عيد) بين آونة وأخرى فى تجهيز الرعوس ، وتوضيها ، وفصل اللسان والجوهره ، وإخراج المخ .. ثم يقذف بالعظام إلى القطط الملتفة حوله .

وأعدت التصفيق .. فحضر إلى أحد الصبية الذى علمت بعد ذاك أنه يعمل مناديا فى (المصمت) .. إذ لم أكد أطلب منه ما أريد .. حتى وجدته قد رفع يده إلى فمه ، كمن يهم بالغناء .. ثم جعد وجهه .. وأغلق عينيه .. وصاح بصوت ملحن ، ملؤه النغمات والآهات :

« اتنين بالصلصة والكرشة .. وجوز عجالى .. وحتتين لسان .. مع التحايش » .

وهكذا بلغ النداء إلى الحاج « عيد » دون حاجة منه إلى الانتقال إليه .. ولم يصعب على أن أدرك أن « التحايش » معناها أن يكون الطلب معتنى به .

ومضت فترة قبل أن يحضر إلينا الطعام .. فأخذت أتشغل بالحديث مع صديقى! وعلمت منه أنه يدعى « الشحات » أى إنه اسم على مسمى .. وأخذ يقص على ما يعانيه من شظف العيش والبؤس ، حتى أقسمت فى نفسى أن أتولى

أمره بصفة دائمة أو أحاول أن أجده له عملاً لا يحتاج للحركة .
وأخيراً أحضر الصبى الطعام وبدأنا تناوله .
وأنهينا من الطعام وحضر إليّ المعلم « عيد » نفسه لتناول الحساب ، ونويت
أن أكون كريماً معه حتى يعرف أنني ابن ناس .. وحتى لا يكون اصطحابي
للسحاذ سبباً في إضاعة مركزى أمامه .. وحتى يعرف أن طعامي مع السائل ليس
إلا من باب التواضع والمروعة والإنسانية .
وفرك المعلم يديه وبدأ يسرد لى قائمة الحساب .. فإذا كل ما تناولناه لا يزيد
ثمنه على الريال .

(٨)

فى مجمع الشحاذين

إن هناك الملاين .. ممن يستحقون العون ،
ولا يجسرون على أن يمدوا أيديهم للسؤال ..
أولئك الذين فقدوا كل شىء .. إلا ماء
وجوهم .. والذين أضاعوا كل ما يملكون .
إلا كرامتهم .

ومددت يدى لأخرج المحفظة .
ومضت فترة وأنا أنقل يدى من جيب لجيب دون أن أجد للمحفظة أثرا ..
وأحسست بالعرق يتصبب من جبينى من فرط الخجل .. ماذا أفعل أمام
الشحات وأمام الحاج « عيد » أنا الأفندى المحترم الذى أريد أن أظهر بمظهر
« الفنجرى » ، فإذا بى لا أجد ثمن ما تناولته من طعام .
ورأيت الشحات ينظر إلى نظرة فاحصة بطرف عينه ، ووجدت القلق قد بدا
على وجه الحاج « عيد » والحق قد بدأ يسرى فى ملامحه .. فأسقط فى يدى ،
وأحسست كأننى قد غرقت فى جوف بحر ، وأنه ليس لى مخرج من ذلك المأزق
الذى وضعت فيه نفسى .
وفجأة رأيت المخرج .. فقد هبط على منقذ من السماء .. منقذ لم أكن أتوقعه
قط ، فقد رأيت الشحات يرفع بصره إلى المعلم « عيد » ويقول له ببساطة :
— معلش يا معلم .. الظاهر إن الأفندى نسي المحفظة .. خلى الأكل على
حسابى المرة دى .

ونظر المعلم « عيد » إلى نظرة ملؤها الازدراء .. ثم أولانى ظهره وانصرف ، وأحسست بالعرق يقطر من جسدى بعد أن تناولت الغداء على حساب الشحات .

تملكنى الذهول وأحسست أنى أكاد أجن مما حدث .

من يصدق هذا ؟ .. أنا الرجل — الفنجرى — المحترم الذى يفيض مروءة ، وكرماً ، وأريحية .. الرجل الذى قطع كل تلك المسافة من داره إلى حى القللى ، ليغدق على البؤساء من فيض كرمه ويعطيهم مما أعطاه الله ، ويبه لهم من إحسانه ما يثلج به صدورهم ، ويقضى حوائجهم .. ينتهى به الأمر إلى أن يتناول غداءه على حساب أحد الشحاذين !
هذا والله منتهى السخرية ؟

أيجسن على شحاذ ؟ ولم يمض على تناولى جرعة المروءة بضع ساعات ؟
أيطعمنى سائل جائع أكتع كسيح ؟ .. وأنا صاحب الفضل والإحسان !!
والله ما كنت أقبلها قبل أن أتناول الجرعة .. فما بالكم وأنا أحس بالمروءة تنقل أمعائى ؟

ثم .. المحفظة !! أين المحفظة ؟

إنها السبب فى كل ما حدث .. إنها هى التى وضعتنى فى هذا المأزق الحرج .. إنها هى التى سببت لى كل ذلك الخذلان والخيبة .

أين ذهبت ؟ لقد بحثت عنها فى كل جيوبى دون أن أجدها أثراً ، مع أنى واثق أنى قد وضعتها فى جيبي قبل أن أترك الدار .

ومضت برهة وأنا جالس على المائدة التى تناثرت عليها بقايا الطعام .. شارد الذهن غارب البال .. ما زالت يدي تنقب فى جيوبى باحثه عن المحفظة .. والشحات جالس أمامى يمسح فمه بطرف كفه المهلهل القدر .. وأسند عكازه الأسود على طرف المنضدة .. وأخذ يوجه إلى من آن لآخر نظرات مسترقه من طرف عينيه .. خيل إلى أن فيها لمحة سخرية خفيفة .

ولم تكن حالة الحرج والخجل التي أنا فيها قد تركت لى الفرصة كى أفكر فى أن هذا الشحات لا بد أن يكون مخادعًا محتالًا ، وإلا فكيف يدعى أنه لم يذق الطعام منذ يومين مع أن له فى المصمت حسابًا جاريًا ؟

إن المعلم لم يحاول مناقشته عندما طلب منه أن يجعل الطعام على حسابه بل انصرف دون أن يتبس بينت شفة .. فلا شك أنه مطمئن إلى الرجل .. وأنه يجد فيه « زبون سقع » .

وبدأت أوجه إلى الشحات نظرات الشك ، ولكنه لم يابه لنظراتى ونهض فى سكون متناولا عكازه واتجه إلى خارج المصمت وأنا سائر خلفه مطأطئ الرأس وقد تملكنى خجل شديد ، إذ أحسست أن كل من فى المصمت يحملون فى باعينهم وأنهم يشيرون إلى بأصبعهم قائلين : هذا هو الأفندى .. الذى أطعمه الشحات .

وسرت والشحات فى الطريق الضيق وكلانا مطرق صامت يسترق النظرات إلى صاحبه بين آونة وأخرى .. وأنا حائر لا أدرى كيف أتصرف معه .. هل أشكره على كرمه وأريحيته لأنه أطعمنى من جوع .. أم أزجره وأؤنبه لأنه خدعنى وسخر منى ! وأخيرا قلت له :

— ما الذى أجبرك على البقاء يومين بدون طعام .. إذا كان لك حساب جار فى المصمت ؟

ونظر إلى الشحات رافعًا حاجبيه فى شىء من الدهش وأجاب :

— الظاهر أنك على نياتك قوى .

— على أية حال .. إذا كنت قد خدعتنى .. فأنا لا شك معذور ، فهذه الحال التى أنت عليها تجزم بأنك لم تذق الطعام لا منذ يومين .. بل منذ ستين ، والواقع أنك لم تخدعنى لأنى أوكد لك أنك بائس تعس .. ماذا يجديك ما اخترتته من النقود .. إذا كان أثرها لم يظهر عليك .. إن قيمة النقود ليست فى النقود بل فيما

تفعله النقود ؛ هبك جمعت أموال العالم وخزنتها في حفرة في أرض غرفتك .. واستمررت على ما أنت عليه من السؤال والعري ، هل هناك فارق بينك وبين الفقير المحروم الذى لا يملك شروى نقيير ! إنك أشبه بالحمار الذى يحمل قرب الماء وهو يلهث من العطش .. ولكنك معذور فلست وحدك تفعل هذا .. ولا أظنك تختلف كثيراً عن معظم أثريائنا .. الذين يخزنون أموالهم ويحرمون أنفسهم ويضيعون أعمارهم سدى ، ويخيل لى أن خير ما يمكن عمله لهؤلاء هو أن تسحب نقودهم من خزائنها وتصرف عليهم حتى يتنعموا بالحياة ويزكوا عن أنفسهم دون أن يعلموا أن هذه هى نقودهم .. بل يستمر لإيهاهم أن نقودهم ما زالت مخزونة حتى تظل نفوسهم قريرة راضية فالسألة لا تزيد عن مجرد وهم، وليست متعتهم بالنقود المخزونة سوى متعة وهمية ، وإلا فقل لى بربك هل هناك فارق بين خزنك النقود وخزنك أكواماً من الزلط .. ما دامت النقود ستبقى فى خزائنها دون أن ينتفع بها أحد ؟

ونظر إلى الشحات من أسفل إلى أعلى ، وأجابنى ببساطة :
— الظاهر أنك متفلسف :

— متفلسف أو غير متفلسف .. إنك رجل تعس شقى ما فى ذلك شك ، ومهما كان من أمر فليس لى إلا أن أشكر لك أنك أطعمتنى ، وأعدك بأنى سأعود إليك لأرد لك ثمن الأكلة .. لأننى كما ترى قد نسيت المحفظة .

وابتسم الرجل وأجاب فى سخرية :

— لا داعى لأن تعود ثانية .. إنك لم تنس محفظتك .

ثم مد أصابعه وأخرج من صدره .. المحفظة !!

— إى والله ! محفظتى بعينها فقد نسلها منى الرجل ونحن فى طريقنا إلى

المصمت وعاد يسألنى .

— أما زلت تصر على أنك لست « على نياتك » !

وتناولت منه المحفظة وقد تملكنتى الدهش وازداد لى الإحساس بالحياة

والخجل .. ودفعت يدي في المحفظة فأخرجت منها بعض النقود وقلت للرجل :

— خذ الريال .. ثمن الأكلة وشلن بقشيش لك .

وأخذ الرجل الخمسة والعشرين قرشًا فدهسها في جيبه .

وهنا لمحت سائلا آخر قد عصب عينيه ووقف على ناصية أحد الأزقة ماذا

يده ، فاندفعت إليه في حركة غير إرادية لأهبط له بعض النقود ، ولكن

« الشحات » جذبني من ذراعي ونظر إليّ نظرتة إلى ذى جنة وسألني متعجبًا :

— إيه يا سيدنا .. إيه حكايك .. مغرم شحاتين . وإلا غاوى إحسان !

— أبدًا .. أبدًا .. مسألة مروءة ليس إلا .. أنا ذو مروءة أو مصاب

بالمروءة .. ليس الذنب ذنبى إنما ذنب الجرعة التى تناولتها .

— ذنب الجرعة .. أية جرعة ؟

— جرعة المروءة .

— ألللمروءة جرعة ؟

— طبعا .

— ومن أين حصلت عليها ؟

— عند تاجر الأخلاق ! .

— وماذا أجبرك على تناولها ؟

— مكروه أخوك لا بطل .

— لا أفهم .. من الذى أكرهك على تناول جرعة المروءة ؟

— أنا أكرهت نفسى .

— ولِمَ ؟

— لأستعين بها على إزالة الشجاعة .

ثم أخذت أقص على الرجل القصة باختصار . وسردت له كل ما حدث من

جراء الشجاعة ، وكيف استعجرت من الشجاعة بالمروءة .. وهنا هز رأسه ،

وقال في سخرية :

- تمامًا كالمستجير من الرمضاء بالنار .
- لا أظن .. ليس هناك شر من الشجاعة .
- وهنا لمحت سحاذًا آخر وقد وقف أمامه رجل بادی الطيبة بهم بأن يعطيه قرشًا ، فأثار المنظر نخوتي وهجمت على الشحاذ حتى أشارك الرجل الطيب في الإحسان إليه ، ولكنني وجدت الشحات جذبني إليه مرة أخرى وحال بيني وبين التقدم إليه ، وهتف لي :
- ماذا تريد أن تفعل ؟
- أعطى الرجل حسنة .
- أى رجل ؟
- الشحاذ طبعًا .
- الظاهر أنك غير مؤمن .
- حاشا لله .. ماذا دعاك إلى اتهامى بهذه التهمة الباطلة ؟
- المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين .. وأنت تأبى إلا أن تلدغ من الحجر عشرات مرات .. ما دخل المروءة بهؤلاء ؟ يجب أن تضع المروءة في موضعها وتعطى الإحسان لمن يستحقونه .. ما دمت تتلهف على فعل الخير والمروءة .. فخير لك أن تتقدم بالإحسان إلى الرجل الآخر .
- أى رجل ؟
- الرجل المحسن .. الذى يمد يده بالنقود إلى الشحاذ .
- ماذا تقول ؟. أأتراك السائل .. وأمد يدي بالإحسان إلى المحسن ؟
- أجل .. وإذا أمكنك أن تنتزع كل ما مع الشحاذ فتعطيه المحسن فلا شك أنك تكون قد فعلت خير المعروف وأعظم المروءة .
- وهزرت رأسى مستنكرًا .. إن « الشحات » لا شك يريد أن يزج بى فى مأزق ، أو هو رجل أحمق شاذ . فليس أدل على ذلك من تبرعه بإطعامى على حسابه وإنقاذى من المعركة التى كانت توشك أن تقع بيني وبين المعلم « عيد » صاحب

(المصمت) .. ثم تطوعه لإعادة المحفظة إلى بعد أن أطمأنت في جيبه واستقر بها المقام .

كيف يريد الرجل أن أتقدم بالنقود إلى الرجل المحسن ؟
إن الرجل يبدو « مستورا » وليس به من حاجة إلى الإحسان ، ولست أشك
في أن إحساني إليه سيخدش كرامته ويثير غضبه على .

وعدت أسائل الشحات وأستجوبه :
— أى قول هذا الذى تقول ؟ وأى عمل أحقق تدفعنى إلى فعله ؟ وأى ورطة
هذه التى تريد أن تزج لى فيها ؟

وتوقف الرجل ونظر إلى نظرة فاحصة . ثم أطرق وأجاب :
— أنت رجل طيب .. وذو مروءة حقاً .. وحرام أن تذهب مروءتك أدراج
الرياح .. سأفكك درساً تتفجع به وسأحيطك بما لم تحط به علماً .. هيا بنا ؟
— إلى أين ؟!

— إلى المجمع .

— المجمع اللغوى ؟!

— لا .. إلى مجمع الشحاذين .. سأدفع بك بين الكواليس لتبصرهم عن
قرب .. سأريك هؤلاء الذين استدرؤا دمعك على خشبة المسرح وأطلعك على
خفاياهم .. حتى تعرف بعد ذلك كيف توجه مروءتك ، وإين تلقى بإحسانك
ومعروفك .

وسرت والشحات الأكبر قاصدين مجمع الشحاذين .. وظل الرجل يدفعنى
من زقاق إلى زقاق ، ومن جحر إلى جحر بين أكداس القمامة والنفوثة حتى
دلف فى النهاية إلى حارة مسدودة قد شاعت فى أركانها ظلمة حالكة ، ثم توقف أمام
باب فى نهايتها وطرق الباب بعكازه .. ولم قض لحظة حتى فتح الباب وأطلت منه
عجوز شمطاء سوداء هجفاء لم تكدر لى حتى بدا عليها الدهش ورفعت حاجبها
الأشيب متسائلة عنى أكون .

وأشار لها صاحبي مطمئنًا مفهمًا إياها أنى لست بذى خطر .. وأنى رجل طيب « على نياقي » .. وأنى ضيف عنده .

ودخلنا فى ممر مظلم ، وعرفنى الشحات بالعجوز قائلًا :
— الحاجة نودق (بفتح الدال) رئيسة المجمع .. وشيخة الشحاذين .
وسمعت العجوز ترحب لى قائلة بصوتها الرفيع من خلال فكيها المتداعيين :
— أهلا وسهلا .

وانتهى بنا الممر الضيق الذى اجتزناه إلى حجرة رحبة تسالل إليها الضوء من خلال نوافذ عالية ذات قضبان حديدية كنت ألمح أقدامًا تمر بها من آن لآخر .. فأدركت أن الحجرة هى بدروم يعلموه أحد الأزقة .

وبدت لى الحجرة أشبه بمحجرات النوادى الرياضية التى يستعملها اللاعبون فى خلع ملابسهم .. مع فارق القذارة المتناهية .

كانت أرض الحجرة غير مبلطة ولا مسفلتة ، بل أرض طبيعية قد فرش عليها هنا وهناك بعض زكايب وحصر .. أغلب الظن أنها تستعمل للنوم، ووضعت بمحار الحائط بعض الدكك والمقاعد الخشبية المتداعية ، ودق فى الحائط مشاجب ومسامير علقت عليها ملابس قديمة وأربطة قدرة ، وفى ركن من أركان الحجرة وضع جردل ماء وبجواره قلة . وعلى أحد الجدران علقت مرآة مكسورة سوداء ، وفى وسط الحجرة قامت بضعة دواليب وصناديق .

وتلفت حولى فلم أجد فى كل ما رأيت شيئًا يستحق المشاهدة أو يستحق ذلك المشوار الذى قطعته مع الرجل بين الأزقة والمحارى .. وقلت الطرف بين صاحبي وبين مظاهر الفقر المدقع القائمة حولى وسألته فى استياء :

— أهذا كل ما تريد أن ترينى إياه ؟ .. هل هذا هو ما تود أن تحيطنى به علمًا ؟
أهذا هو الدرس الذى ستعلمنى به كيف أوجه مروعى ؟! أهذه هى الكواليس التى تحدثت عنها ؟! لا .. لا .. إنى لن أستمع إليك ، وسأعطى « نودق » كل ما لدى من النقود لتفك بها ضيقها .. وضيق « الغلابة » الذين (أرض النفاق)

يعيشون معها .

— صبرًا .. ولا تكن أحمق عجولا .

وكانت « نودق » قد اختفت عن أعيننا في أحد السرايب فرفع الرجل عقيرته منادياً :

— نودق .. فكيني .

ودهشت بعض الشيء ، ولم أفهم معنى قول الرجل « فكيني » !!
فقد كان مطلق السراح ليس هناك ما يقيده .. وأخذت أخمن كيف تنوى المرأة أن تفكه ..

وأخيراً حضرت العجوز ، وتناولت من الرجل عكازه وأخذت تساعده على نزغ « الهلاهيل » التي كساها جسده .. وهنا فقط عرفت ماذا عنى بقوله :
« فكيني » .

أجل لقد أخذت العجوز في فكه .. ولم تمض فترة قصيرة حتى وجدت الرجل واقفاً على قدميه سليم الذراعين .

كان الرجل قد شد ذراعه على جسده بشدة وثنى ساقه من الركبة بطريقة لا أظن أى بهلوان يستطيع أن يفعلها ثم شدها إلى فخذه بالأريطة بحيث لم يعد يشك الناظر إليه في أنه مقطوع الذراع والساق .

ونظر الشحات وقد وقف سليماً معافى وقال باسمًا :

— ما رأيك ؟ .. هذا بعض ما وراء الكواليس .

ثم نظر إلى باب الحجرة وأردف قائلاً :

— وهذه عينة أخرى مما وراء الكواليس .

ونظرت إلى حيث أشار فوجدت امرأة ضريرة قد أقبلت علينا يقودها طفل يكاد يكون عارى الجسد ، لا يستر جسده سوى قميص ممزق قذر ، وبدأ على الاثنين أبلغ آيات البؤس والتعاسة .

ووصلت إلينا تحية المرأة :

— العواف .

وأجبتها في نفس واحد :

— الله يعافيك .

ولم أر الله يستجيب دعاء بمثل ما استجاب دعاءنا هذه المرة .. إذا لم تمض لحظة .. حتى كانت المرأة قد عوفيت ... وأضحت عيناها الضيرتان — كالفناجيل — ولم يتطلب فتحهما من الحاجة سوى كوز مياه من الجردل الملقى في آخر الغرفة أزالته به آثار النشا الذي ألصق به جفنا المرأة . ودخل علينا رجل بعد ذلك .. يحمل على كتفه حجراً ويتقدم به إلى الحجرة وهو شبه عار ، وهمست للشحات :

— إيه حكاية الحجر ؟

— يضرب به صدره .

— ولم ؟

— هي طريقة قديمة .. ولكنه تعودها .. فقد ورثها عن أبيه ، وكل ما عليه هو أن يسير في الطرقات ويرفع الحجر بين يديه ، ويهوى به على صدره ، قائلاً : يا عشاق النبي .. وعلى المحسنين من عشاق النبي .. الباقي . وهكذا توالى علينا العينات المختلفة من جميع أصناف الشحاتين .. ذوى العاهات المتقنة الصنع .. ما بين عرج وعمى وعور وكساح وخرس وجنون . وسحبني الرجل من يدي إلى حجرة أخرى أنبأني أنها مخصصة للدراسة فن الشحادة .. لأن على كل شحاذ أن يحفظ ما يناسبه من أقوال وأفعال . وكانت الحجرة مشغولة ببضعة شحاذين يتلقون محاضرة عن الشحادة في رمضان .

ووجدتهم يكررون مع المحاضر « من فطر صائم له أجر دائم عند الله » وأنبأني الشحات أن لديهم مؤلفين لتأليف أغاني التسول ، وملحنين لوضع الألحان لها . وأكد لي أن المسألة ليست سهلة كما أظن .. بل إنه يستطيع أن يجزم أن التسول

هو الشيء الوحيد الذى يقوم فى مصر على أساس متين لا ارتجال فيه .. وأنه من أنجح المشروعات المصرية كافة .

ودلف بى بعد ذلك إلى حجرة المخزن المليئة بجميع الأنواع التى يحصل عليها الشحاذون عن طريق التسول من كسرات خبز وملابس قديمة وأطعمة ، وأفهمنى أن لديهم هيئة مسئولة عن بيع هذه الأشياء .

وانتقلت بعد ذلك إلى حجرة أخرى فهمت منه أنها بمثابة روضة أطفال يتولون فيها تدريب الأطفال على المهنة .

وظل الرجل ينتقل بى من غرفة إلى غرفة وهو يشرح لى كل ما يتعلق بمجمع الشحاذين حتى عدنا إلى الحجرة الأولى ، وطلب منى الجلوس على أحد المقاعد وجلس أمامى مفترشاً الأرض وسألنى وهو يفرك كفيه :

— ما رأيك ؟

— شيء عجيب !! لم يكن يخطر لى على بال قط .

— أما زلت تعتبر المروءة هى تفريق النقود على الشحاذين ؟

— لا .. لا أظن .. إن من الخطأ أن نسميهم شحاذين لأنهم شركة مساهمة .

وأطرفت وأخذت أفكر ثم سألته بعد برهة :

— إذا كيف يستطيع الإنسان أن يفعل المروءة ؟

— يفعلها فيمن يستحقها .

— ومن الذى يستحقها ؟

— كثيرون .

— اضرب لى مثلاً .

— ذلك الرجل الذى شاهدته يمد يده بالإحسان إلى الشحاذ الذى منعتك

عنه .

— أهذا يستحق المروءة ؟

— أجل .

— وكيف ؟ .. كيف يستحق المروءة ، وهو يحسن إلى غيره ١٩ ألم يكن من الخير لو وفر لإحسانه ليستعين به لنفسه !
— صدقت .. ولكنه لا يستطيع .. لأنه تعود الإحسان .. لأن الرجل الكريم المحسن لا يمكن أن يمتنع عن كرمه وإحسانه .. مهما أئخنى عليه الدهر .. هذا الرجل كان من كبار التجار ، رجل تقي ورع يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة .
وهب له الله بسطة في العيش ووفرة في النعم .. وأغدق عليه من زينة الحياة الدنيا — المال والبنين — الشيء الكثير . وكان مثلاً لامرئٍ قرير العين ناعم البال تفيض نفسه بشكر الله وحمده .
واستمرت الأقدار تصعد بالرجل إلى أوج سعادته .. تجارة رابحة وثروة واسعة وأبناء ناجحون وأحفاد يلتفون حوله يقدقون عليه من بسماتهم وضحكاتهم ما يقر به عيناً .
ومرة واحدة بدأ الرجل يهبط من القمة .. قمة السعادة .. وإذا بالقدر قد تخلى عنه وتركه يهوى إلى حضيض الشقاء .
كيف ؟ .

لقد بدأ الأمر بأن توفي زوج ابنته .. وترك ابنته وأولاده بلا عائل ولا مال .. وحمد الرجل ربه — الذي لا يحمد على مكروه سواه — أن وهب له بسطة في الرزق حتى يستطيع أن يتكفل بابنته وأولادها بعد أن توفي زوجها وقرر أن يبذل جهده لتعويض ابنته الثكلى وأحفاده اليتامى عن أبيهم وعلى أن يضمهم تحت كنفه .

وهكذا أصيب الرجل أول ما أصيب في ابنته ، ولكنه تلقى الإصابة في ثبات وتصبر وتجلد فما فزع وما جزع .. أما الإصابة الثانية التي وجها إليه القدر فقد كانت في ابنه الأصغر .. إبراهيم المهندس .
ماذا حدث له ؟

لقد جن ١١ خاتنه امرأته — بنت الحلال — فقتلها ثم جن .

وهكذا زاد العباء على الرجل .. فضم أولاد ابنه الذين قتل أمهم وجن أبوهم إلى أولاد ابنته اليتامى وأصبح عليه أن يعول الأولاد الستة وابنته وابنه الذى أضحى نزيل مستشفى المجاذيب .

تلك كانت هى الإصابة الثانية .. لقد حطمت أعصاب الرجل وهدت قواه ، إذ لم يكن من السهل على مثله وهو الرجل الهادئ الطيب أن يرى نفسه وقد أحيط بتلك الزواجر العاتية .. خيانة زوجية .. وقتل .. وجنون ، ولكنه مع ذلك استطاع أن يقاوم ويتجلد ويتألك ، وحمد الله .. وماذا يملك مثله من درع لتلقى الخطوب سوى حمد الله ، والإيمان به ..

أما الإصابة الثالثة .. فقد كانت فى ابنه الأكبر .. محمود الدكتور .

مات ١١١٩

لا لم يمّت .

إن القدر لم يترفق به إلى هذا الحد .

إن الموت لثله نعمة ، والقدر قد أصر على أن يسترد كل نعمة .. فكيف ينعم

على الابن بالموت ؟

أصيب الدكتور بداء الصدر .. التهاب فى الرئة .. ماء فى الرئة .. صديد فى الرئة .. تلفت الرئة ورقد المسكين طريح الفراش بلا حول ولا قوة وقد التف حوله أم باكية ، وأبناء « زغب الحواصل لا ماء ولا شجر » .

رقد الابن طريح الفراش .. ينهش الداء صدره وتمزق العلة رثيه ، وطال به الأمر ، وهو كما هو .. مضنى عليل .. لا يشفى فيريح أو يموت فيستريح .

رقد الابن ، وحوله زوجة كالأرملة وأبناء كاليتامى .. لا مال ، ولا عمل ، ولا عائل ولا معين إلا الأب .. والله واستعان الأب بالله .. وبدأ يفيق من هول الصدمة ، وهو يبكى على ابنه الحبيب بدمع العين ودمع القلب ، وتحامل على نفسه ، وحمد الله .. لأنه وهب له المال يستطيع أن يعول به ابنه المريض وأحفاده المساكين .

لقد تلقى الرجل إصابات القدر الثلاث !
وحمد الله أن ماله يكفي لإعانة أولاده الستة وأحفاده التسعة ، لأنه هيا لهم منه
خير عائل ومعين .

وكأنما ساء القدر أن يصمد الرجل لضربات .. فتحفز واستعد .. ثم أطلق
الرابعة .. فأفلس الرجل وضاعت تجارته وأضحى هو والاثنى عشر المساكين ..
بلا عائل ولا معين .

ماذا فعل !!؟ لا شيء . لا شيء أبداً . لقد حمد الله الذى لا يحمد على مكروه
سواه !!

وصمت الرجل ، واستطعت أن أكبت دمتين همتا بأن تفلتا من عيني ،
وقلت متسائلا :

— وكيف يعيش الرجل وأبناؤه التعسرون ؟

— ذل بعد عز .. وضيق بعد سعة .. يعيشون على فضل الله .. هبة من هنا
ومن هناك ، وبيع لكل ما كانوا يملكون من بقايا النعيم .
لقد باعوا الدور ، والأثاث ، والملابس .

ومع كل ذلك ، فما انقطع الرجل عن مد يده بالإحسان إلى كل شحاذ
يراه .. ترى من أحق بالإحسان أهو أم الشحاذ ؟

ولم أجب فما كانت لى من حاجة إلى الإجابة ، ونظر لى الرجل وهمس :

— ما رأيك ؟ ألم أحطك بما لم تحط به علما ؟

— لى والله .. لقد أحطتنى علما بالشىء الكثير .

ثم صمت برهة ، وأردفت قائلا :

— هل تستطيع أن تدلنى على بيت هذا الرجل المسكين .. حتى أذهب وأعينه

ببعض المال ؟

— ولم هذا الرجل بالذات ؟

لقد ذكرته لك على سبيل المثال .

إن هناك الملايين ، ممن يستحقون العون ، ولا يجسرون على أن يمدوا أيديهم للسؤال .. أولئك الذين فقدوا كل شيء .. إلا ماء وجوههم .. والذين أضاعوا كل ما يملكون .. إلا كرامتهم .
أولئك الذين يستحقون أن تهب لهم من مروءتك .. كل ما استطعت ، وتعطيهم من إحسانك فيضاً غزيراً .
وأؤكد لك أنك لن تجد صعوبة في البحث عنهم ، فهم تحت بصرك .. وملء يديك .

وصمت الرجل قليلا ، ثم سألتني :
— أليس عندكم خدام ؟
— عندنا طفلة صغيرة وصبي يتيم .

— هذان وأمثالهما يستحقان منك الكثير من المروءة ، هذه الطفلة التي انتزعت من أمها لتقوم بخدمتك لقاء بعض الدراهم لتعين بها ذويها على العيش .
كيف تعاملونها ؟ .. كيف تطعمونها ؟ .. هل تعاملونها كما تعاملون أبناءكم ؟
هل تطعمونها كما تطعمونهم ؟
أبداً والله !!

هل تذكرون أنها في حاجة إلى الراحة ، وإلى الرفق ، وإلى التدليل ، والحنان .. كغيرها من الأطفال .. أم أنتم لا تؤمنون بشيء سوى أنها آلة تقضى لكم حوائجكم ، وتؤدي لكم ما تطلبون .
هذا مثل بسيط ، ومثل آخر ..

أليس لكم أقرباء فقراء .. أخنى عليهم الدهر ؟
هل تودونهم وتبرونهم .. وتعطونهم بما أعطاكم الله ، وحرّمهم إياه ؟
يا سيدي .. أؤكد لك أنك لو بحثت حولك ، لوجدت الكثيرين ممن يستحقون المروءة ، ولا يمدون يدهم للسؤال .
الكثير ممن عضهم الفقر والدهر بنابه ، فلم يجسروا حتى أن يقولوا « آه .. »

بل طووا آلامهم فى صدورهم ، وصبروا ، وتجلدوا . حتى يحفظوا ماء وجوههم .

وأمنت الفكر .. فأدركت مبلغ ما فى قول الرجل .. من حقيقة .
ومرّ بذهنى الكثير ممن أذكّره من المحتاجين الصامتين ، الصابرين المتجلدين .. الذين يصيهم الله ، فيحمدون الله .

ونَهَضت من مجلسى .. فنهض الرجل ، وشدت على يده شاكراً ، وطلبت منه أن يسمح لى بالذهاب حتى أوجه مروءتى إلى حيث يجب أن توجه إليه .. وأحسن إلى أولئك الذين أرشدنى إليهم .

ووصلنا إلى الباب ، ووقف الرجل يودعنى قائلاً :

— مع السلامة . هل معك نقود كافية للإحسان والمروءة ؟

— أجل .. المحفظة مليانة .

— ليس المهم أن تكون المحفظة مليانة .

— ما المهم إذن ؟

— المهم أن تكون معك .. !!

ومددت يدى أتخس المحفظة .. وأخذت أنقل يدى بين الجيوب دون أن أجد لها أثراً .

وللمرة الثانية يمد الرجل يده فى صدره ، فيخرجها ويدفعها إلى قائلاً :

— لا مؤاخذه .. « يموت النشال وصياحه يلعب » إنها غية قديمة .. فلقد

كنت نشالاً قبل أن أمتن الشحاذة .. إن الشحاذة آمن عاقبة وأوفر ربها ، ومع ذلك .. فإن أصابعى دائماً — تأكلنى على النشل — لا مؤاخذه .

وأمسكت بالمحفظة ، فدستها فى جيبي ، ووجدت الرجل يمد يده إلى

بالخمس والعشرين قرشاً التى أعطيتها إياه وهو يقول :

— وهذه أيضاً .. خذها .. فأنت أولى بها مادمت تنوى أن تحسن بها ، فهى

حلال لك .. أعطنى قرشاً فقط .

وسأله ضاحكًا :

— ولم ؟

— حتى لا أكون قد أضعت وقتي معك سدى .. وحتى أكون قد نجحت معك كشحاذ .

ومددت يدي إليه بالقرش ثم ودعته وانصرفت في طريقي أنقب في ذهني عن بعض أولئك الذين يستحقون المروءة ممن ذكر لي الرجل أمثلتهم .

(٩)

أهل الخداع

إن الثمار في هذا البلد تجف وتذوى .. بلا
تكاثر ولا تناسل .. أما الأشواك فقد بارك الله
فيها فملأت ربوع الأرض .. إن المسألة تحتاج
إلى قانون ينظمها .. فهي ليست مسألة
أفراد ، بل مسألة أمة .

سرت في طريقى ، وأنا أنقب في ذهنى عن بعض من أستطيع أن أوجه إليهم
مروءتى ممن يستحقونها حقاً .. بعض أولئك الذين لا تذهب مروءتى فيهم أدراج
الرياح .. أولئك المنكوبين الصامتين .. الذين لا يجزعون على طلب العون ..
إلا من الله .

وكان أول من تذكرت رجلا يمت لنا بصلة قرابة بعيدة .. لست أستطيع
تحديد لها بالضبط .. ولكن أغلب الظن أن أباه هو ابن خال امرأة عم أبى .. أو
شيئاً من هذا القبيل .

كان الرجل أول من خطر لى ، وأنا أستعرض أصحاب البلايا والمصائب ،
لقد قفز الرجل في رأسى ليصبح لى : هاأنذا .. منكوب صامت ، ومصاب
مستتر .. « أعطنى من مروءتك .. وهب لى من فضلك وإحسانك » .

كان الرجل المسكين .. مصاباً بداء .. النسل والذرية ، وعلة البنين
والبنات !!

لا تتعجلوا فبيدوا دهشتكم .. وتساؤلوني : هل النسل داء .. والذرية علة ؟
وأنا معكم .. « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » .. ولكن ما رأيكم في بنين بلا
مال ؟ بنين « حاف » ؟ .. هل تظنونهم للحياة الدنيا زينة .. أم أنها مصاب
وبلاء ؟

والمصائب الأعظم .. هو أن بين المال والبنين تناقضًا شديدًا إذ قل أن يلتقيا عند
امرئ واحد .. ولو حاولنا أن نضع لهما قانونًا من قوانين الطبيعة لما كان أكثر من
أن يتناسب مال الإنسان تناسبًا عكسيًا مع ما لديه من بنين ،
فهذا المليونير العجوز لم ينجب بنين قط .. وهذا أنجب بتًا واحدة .. والثالث
عاش عزبًا فلم يتزوج . أما حنكورة والمعلم حنفى ، والشيخ أبو سريع ، فلدى
كل منهم دسته من البنين والبنات .

ولست أشك في أن هذا الأمر هو إحدى العلل الكثيرة التي رزى بها هذا
البلد .. وهو تكاثر البلد من الناحية السفلى .. وتضخمها في الجزء البائس
التعس .. فهي أشبه بنبات تتوالد أشواكه .. ويحف ثمره .

إن الثمار في هذا البلد تجف وتذوى .. بلا تكاثر ولا تزواج ولا تناسل ، أما
الأشواك فقد بارك الله فيها فملأت ربوع الأرض . إن المسألة تحتاج إلى قانون
ينظمها .. فهي ليست مسألة أفراد ، بل مسألة أمة .

إننا نجد الطبقة « المبسوطة » أو أهل النعمة .. إما أن يحجم أفرادها عن
الزواج .. أو يتزوجوا ، ثم يحدوا من نسلهم .

أما الطبقة التعسة أو أهل البؤس والفاقة .. فيأبون إلا الزواج « مشى وثلاث
ورباع » دون أن يخشوا قط ألا يعدلوا .. أما الذرية فهي عندهم كاتمل وربنا
يرزق .. أو لا يرزق .

وهكذا يضيع البلد بين أنانية أهل المال والنعمة .. الذين يأبون أن يتزوجوا أو
يتناسلوا ليريحوا أنفسهم ويقوها شر المسئولية .. وبين جهل أهل الفقر والشقاء
المتوالدين كالذباب ليستزيدوا أنفسهم فقرًا وشقاء .

لا بد من قانون لتنظيم هذه الأوضاع .. إن حرمة التنازل ليست من حق الأفراد ، بل من حق الأمة .. فالأبناء أبناء الوطن قبل أن يكونوا أبناء آبائهم .
 أى منطق هذا الذى يقول إن رجلاً كالأستاذ « فكري أباطة » أو الأستاذ « التابعى » أو غيرها من أهل الفكر .. يعيشون حياتهم عزاًياً ، ثم يذهبون بلا ذرية ولا بنين .. فى الوقت الذى ينسل فيه عكشة ، وجرجير ، وجراده — ممن لا يكادون يجدون ما يقيمون به أودهم — عشرات الأبناء !؟

قد يقول قائل : من يدريك !

إن ابن عكشة الزبال .. قد يكون على مر الأيام خيراً من ابن « فكري أباطة » .
 وإنه « قد يخلق من ظهر العالم فاسد . ومن ظهر الفاسد عالم » .. وإن فلاناً من العظماء كان أبوه إسكافياً .. وفلاناً من الوزراء ، كان أبوه حوذاً .

وقد يكون فى ذلك القول شىء من الصحة .. ولكنه لا يمكن أن يتخذ قاعدة .. وأن نحاول تبعاً لذلك أن نكثر من أبناء الإسكافية والحوذية ، لأن أحدهما أنجب لنا عظيماً ، والآخر أنجب وزيراً .. لأنه بجانب هذا العظيم ، وذاك الوزير ، قد أنجبوا لنا الملايين من التعسين والأشقياء الذين تتكون منهم العمدة التى أقيم عليها صرح الفقر والمرض والجهل على الذراعتين البينان .

ماذا علينا لو استبدلنا بأبناء عكشة الاثنى عشر .. أربعة لعكشة ، وأربعة « للتابعى » ، وأربعة « لفكري أباطة » أليس ذلك خيراً للأمة وللعكشة ، وللتابعى ، ولفكري أباطة ؟

سنرفع عبء الاثنى عشر .. من فوق « عكشة » فنوزعه على الثلاثة بالتساوى .. فيستطيع « عكشة » أن يرى أولاده الأربعة خيراً مما كان يرى الاثنى عشر .. ويستطيع فى حدوده أن يجعل منهم أبناء مفيدى للوطن فلا يتشرد منهم واحد أو يجمع آخر .. أو ينوء هو بعبئهم . أما الآخرون فلا شك فى أن كلا منهما يستطيع أن يجعل من أبنائه الأربعة خيراً من أبناء عكشة .. فالثقافة متوفرة والمادة متوفرة .. ولدى كل منهما من الوسائل ما يستطيع أن ينتج للأمة أربعة من

خيرة الأبناء .. ولا شك أيضًا أن الأبناء أو على الأقل بعض الأبناء سيرثون عن أبيهم شيئًا من ذكائه ونبوغه .

وهكذا يتضح وجوب سن قانون للزواج وتنظيم النسل . فلا تترك المسألة هكذا « سهلة » فيعقم النسل الصالح (ونقصد بالعقم .. العقم المقصود .. أما العقم الطبيعي فلا حيلة لنا فيه) ، وتملأ الأرض بالذرية التي لا يعرف أصحابها كيف يطعمونها ؟

كان الرجل الذي مر بذهني مصابًا بداء النسل ، أو مصابًا بعشرة أولاد فقط لا غير .

ليس بالرجل من داء سوى ذلك .. لم يكن به مرض خبيث ولا فقر مدقع .. لم يكن به شيء سوى وفرة الأولاد ، ولولا ذلك لما مر بذهني قط ، ولما صح أن أدخله في زمرة من يستحقون مروءة .

لو كان الرجل عزبًا .. أو لو عقلت امرأته فلم تنجب له أولادًا أو ترفقت به فأنجبت له واحدًا أو اثنين أو ثلاثة .. لما صح أن نسميه منكوبًا أو مصابًا .. ولما فكرت في أن أتوجه إليه لأمد له يد العون .

إن مصاب الرجل هم أولاده ، ولست أعنى بذلك أنهم أولاد فاسدون ، ولو كانوا فاسدين لخف المصاب وهانت العلة ، ولكنهم — مع الأسف — كلهم ناجحون ، وهذا هو سر النكبة ؟

تسألون كيف ؟ كيف يكون الأولاد الفالحون الناجحون سبب نكبة على أبيهم ؟ المسألة بسيطة .. بسيطة جدًا .. إننا في مصر .. ومصر كما لو تعلمون بلد العجائب .. وعلى ذلك فليس بكثير أن يكون الأبناء الفالحون نكبة على أبيهم ؟ إن الرجل موظف عاды .. درجة سادسة أو سابعة .. لا أذكر .. موظف من آلاف الموظفين السائرين في الركب الحكومي . ليس بمحسوب ولا قريب ولا نسيب ، وليس له ما يبيء دفعة من الدفعات التي تقفز به أمام الصفوف ، وليس له من يتهمه بالذكاء والغيرة على مصلحة العمل ، ويطلب له ترقية

استثنائية .. فهو والحال كذلك .. موظف طبيعي .. أى « منسى غلبان » وهو رجل طيب هادئ قنوع .. تزوج كغيره من عباد الله .. فأتم نصف دينه .. ثم بدأ ينجب الأولاد من بنين وبنات .. الواحد تلو الآخر .. تاركاً المسألة على طبيعتها .. دون أن يخطر له قط .. أن يحاول الحد من النسل .. لأنه متدين وهو يعتقد أن ذلك ليس من شأنه ، بل من شأن الله .. وأن عليه أن يقوم بواجبه كزوج ، وعلى الله الباقي .

وهكذا زادت الذرية .. وازدادت المصروفات ، والدخل ثابت لا مزيد فيه ، والمأهية كما يقولون « هيه .. هيه » والرجل — مهما بلغ من ضالة مرتبه — يعتبر نفسه موظفاً ، ولا بد أن يعلم بنيه وأن يدخلهم المدارس .
وأدخل الرجل أبنائه المدارس الواحد تلو الآخر .. وبدأت المسألة في أول الأمر هينة ، واستطاع الرجل أن يقوم بعبء الأولاد من أكل ولبس وتعليم .. ولكن الأولاد — مع الأسف الشديد — كانوا فالحين ، فنجحوا في المدارس وانتقلوا من الابتدائي إلى الثانوى .. وزادت المصروفات ، وأخذت المسألة تصبح عسيرة معقدة ، فلا هو بقادر على حمل العبء ولا هو بمستطيع أن يحرم الأولاد من التعليم .. وخاصة أنهم فالحون ناجحون .

وبدأ يسعى في المجانية .. ولكن وزارة المعارف الكريمة .. لا تغدق كرمها إلا على ذوى السلطان .. وذوى الجاه .. أو على من يستطيع التمسح بعبائهم ، أو من له صلة بكبار رجالها وذوى الشأن فيها .. والرجل المسكين لا يتوافر فيه أى شرط من هذه الشروط التى تراها الوزارة الرشيدة واجبة للمجانية بصرف النظر عن الفقر والحاجة .

وتطورت حياة الرجل بالتدريج .. فأضحت مشكلة معقدة ، وأصبح الرجل منكوباً نكبة طبيعية .. لا افتعال فيها ولا عنف .. كل ذلك والأولاد ما زالوا يتسربون بلا توقف ، والرجل كالتائه .. لا يعرف بالضبط الخطأ الذى ارتكبه ، حتى أوصله إلى تلك الحالة من الفقر والحاجة .. واضطر الرجل أنه يخرج أكبر

أبنائه من المدارس ليعمل ببضعة قروش تعاونه على سد حاجته ، ولكن الابن استطاع بفضل ما أصيب به من فلاح ونجاح أن يستذكر في الدار وأن يحصل على شهادة الدراسة الثانوية بتفوق ، فجلب بذلك على أبيه نكبة كبرى .. فقد كره الرجل أن يقف عقبة في طريق ابنه ، وعزم أن يدخله الجامعة .. وفعلًا أدخله وبدأ يقطع من قوته وقوت أبنائه ليدفع المصروفات .. ونجح في دفع بعض الأقساط ، ولكن انتهى به الأمر في النهاية إلى العجز التام .. وأصبح ابنه الناجح الفالح مهددًا بالطرْد .

والرجل المسكين حائر .. فهو مصاب ، وغير مصاب !! وهو في أشد الحاجة للملم واحد ، فلا أحد يحسن إليه .. ولا هو يستطيع أن يمد يده للسؤال .. لأنه أفندى موظف ، وإن كنت لا أشك أنه ليس به من سمات الموظفين غير الهيعة الظاهرة ، أعنى البدلة والطربوش والكرافتة .. أما ما عدا ذلك فإن أبأس شحاذ خير منه .

ترى من أحق من الرجل بمروءة ؟

هل هناك طريق لفعل المروءة خير من أن أعينه ببعض المال الذي يستطيع به أن يعين ابنه على أن يتم دراسته .. ويستطيع هو أن يفك به ضيقه ويزيل كربته ؟ واستقرى رأى على أن أذهب رأسًا إلى بيت الرجل وأحسست برضاء تام عما انتهيت إليه .

وكان الرجل يقطن في بيت القاضى بالقرب من سيدنا الحسين .. فاتجهت لأركب ترامًا يذهب إلى العتبة ثم أركب بعد ذلك إلى الأزهر وأتمشى إلى بيت الرجل .

ومرت إلى بضع عربات الترام كان من العبث أن أحاول ركوب إحداها ، اللهم إلا إذا استطعت تسياق أعمدة الترام وامتطاء ظهره كما فعل بعض الصبية . ومررت في الوقت وأنا واقف مكاني . وأخيرًا لم أجد بداً من أن أحشر جسدى على سلم إحدى العربات .. بعد أن استطعت أن أجد موطنًا لقدم واحد ..

وأستمرت قدمي الأخرى معلقة في الهواء .. ولم أكن أخشى السقوط ، فقد كان جسدي مضغوطاً كالسردين بين بقية أجسام الركاب .
وظل الترام يتهادى من محطة إلى أخرى ، وأنا على حالتي تلك من الشعلقة حتى وصلنا أخيراً إلى العتبة .

وشققت طريقي بين باعة الجرائد وإبر بوابير الجاز .. واللبان والشكولاتة ومساحي الأحذية .. ووصلت إلى ترام الأزهر وجلست على أحد المقاعد منتظراً أن يتحرك الترام ..

وهنا لمحت أحد الشحاذين يقبل عني ، وقد بدت عليه مظاهر البلاءه ، ولم يكن يرتدى سوى سروال ممزق يكاد يستر عورته وأخذ يصيح لي مدعياً الخرس — ا . ا . ا — وهو يشير إلى فمه بأصبعه محاولاً إفهامي أنه جائع .

ولم أتمالك نفسي من الابتسام .. وأحسست كأن الرجل ليس غريباً عني .. بل كأننا أصدقاء .. بين أحدهما والآخر معرفة قديمة .

واستمر الرجل يقول :

— ا .. ا .. ا .. ا ..

ووجدت نفسي أجيب :

— أهلا .. أهلا .

ولكن الرجل استمر على تجاهلي وادعائه البلاءه .. فعدت أسأله :

— ازاي الشغل ؟

وأحسست أن الرجل قد بدأ ينظر إلى بعين فاحصة حذرة ، فاستمررت في قولي :

— الحاجة نودق ترجوك ألا تتأخر .

وهنا فغر الرجل فاه وتملكه دهش شديد .. وكف عن « التهته » واقترب مني حتى كاد يلصق فمه القدر بأذني وسألني هامساً :

— أنت تعرفها ؟

(أرض النفاق)

— طبعاً هي والشحات ، وسنية العمشاء .. و ..

— ولكنى لم أبصرك قبل الآن ؟

— لقد انضمت حديثاً إلى المجمع .

وهنا دوت زمارة « الكمسارى » فأسرع الرجل متباعدًا . ناظرًا إلى نظرتة إلى زميل ، وبدأ يهاجم زبونًا آخر .. بصياحه : — ا .. ا .. ا ..

ووقف إلى الترام في النهاية عند الأزهر ، وسرت في الشارع متخذًا طريقى بين زرافات الناس وعربات الباعة ، وقد تعالت من حول النداءات المختلفة الملحنة ، ووصل إلى سمعى منها نداء بائع المشمش كأنه أغنية جميلة : « المشمش استوى وطاب وطلب الأكال يا حموى يا نايح » .. ثم رنين طاسات بائع العرقسوس كأنها تقاسيم القانون يتخللها صوت البائع متادياً في ثقة « خمير شفا » وقد وقف مائلاً بنصفه الأعلى واتكأت قدرة العرقسوس على جنبه معلقة في كتفه يسير جلدى ، ووضع في فوهتها قطعة مستطيلة من الثلج ، وحول وسطه قد شد وعاء نحاسياً وضع فيه الأكواب الزجاجية ، وتدلّى من الوعاء إبريق صغير بالماء لغسل الأكواب .

وأغراني منظر القدرة والثلج ورنين الطاسات بأن « أبل ريقى » بكوب من العرقسوس .. فاقتربت من الرجل وطلبت منه كوباً ووقفت أتأمله بجلبابه الأبيض ، وقد شد حول وسطه الفوطة الحمراء المخططة ، وشاعت في أساريره علامات الرضا والمرح ، وكأنه من رنين الطاسات في عرس دائم وطرب مستمر .

ورفعت الكوب إلى فمى ، وقد علتة الرغبة وتندى خارجه بقطرات الماء من فرط التلجج .. وأحسست ، وأنا أجرع العرقسوس بكثير من المتعة كأنى أجرع كأساً من الشمبانيا ، أو كأن جو الطرب والمرح الذى يحيط به الرجل نفسه قد سرى إلىّ فعلاً نفسى بالرضا .. وشعرت أن الله لا ينسى عبده ، وأنه قد يحمل قدرة العرقسوس من اللذة ما لا يحمله دنان الشمبانيا .

ولم أكد أعطى الرجل ثمن الكوب حتى لمحت على مقربة منه عربة يد محملة بالموز ، وقد رفع صاحبها عقيرته بالنداء .. فى صخب وضجيج .. طالباً من الناس أن يلحقوا أنفسهم قبل أن « يشطب » .

وهنا خطر لى أن الواجب يحتم على بالآ أدخل بيت الرجل « وإيدى فاضية » وأن يضع أقات من الموز سيكون لها وقع طيب .. فلا شك أن أولاده .. محرومون من الفاكهة .. ولا أظن دخله الضيق يتيح له أن يفرق الموز على الصغار المساكين .

واقتربت من بائع الموز ، وقد وقف أمام عربته ، ولسانه لا يكف عن الصياح والضجيج كأن به جنة .. « يا بلاش بخمسة صاغ الأقة يا موز .. » نبيع بلاش يا ناس .. « يا عالم بنص التمن » . الحق نفسك قبل ما يجبر .

وأسرعت إلى الرجل لألحق نفسى قبل ما يجبر !!
كيف لا ؟ . وهو يبيع بنصف الثمن .. يبيع أقة الموز التى ثمنها عشرة قروش بخمسة فقط .

ولم تكن لدى فكرة حقيقية عن ثمن أقة الموز .. لا لأنى لا أكل الموز بل لأنى لا أشتريه .. فأنا أجده فى البيت « مشترى » جاهزاً ، فهم يحذروننى فى البيت أن أحاول شراء أى شىء قط ، لما عهدوه فى من « خيابة » و « غشومية » ، والظاهر أنهم لم يظلمونى بتهمتهم لأننى غشيم فعلاً ، فما أذكر أنى اشتريت شيئاً إلا وكان إما فاسداً أو بضعف الثمن ، وما زلت أذكر حتى الآن التين الحامض ، والتفاح المعطوب ، وغيره وغيره .. مما اشتريته ، وكان نصيبه الاستقرار فى صفيحة الزبالة بدلاً من بطوننا .

ومن ذلك الحين ، وقد استقرى الرأى على أن أقبل نصيحتهم وألا أحاول أن أبتاع شيئاً قط .. بل أعطيتهم النقود وأترك لهم عملية الشراء .

ولكنى وجدت نفسى فى هذه اللحظة مجبراً على أن أقوم بعملية الشراء بنفسى .. مجبراً على أن أتقدم إلى الرجل وأفصاه فى الثمن وأفحص جيداً عينة

الموز ، وأناكد أنه ليس به شيء فاسد .
ووقفت أمام العربية .. وداخلني الاطمئنان .. من ذلك الضجيج الذى يحدثه
الرجل ، ومن أقواله التى يعلنها صائحًا « إنه يبيع بلاش » .. وقلت لنفسى : إن
خمسة قروش لا شك ثمن زهيد جدًا لأقة الموز .. وأنه لا يمكن لإنسان شراؤها
بأقل من ذلك .

وألقيت على الرجل التحية :
— السلام عليكم .

فلم يجبنى الرجل ، إذ حال صراخه وصياحه ونداؤه على الناس أن يلحقوا
أنفسهم دون سماع تيمتى ، فلم أجد بداً من الصياح بصوت عال صارخًا فيه :
— بكام الأقة ؟

ونظر إلى الرجل بطرف عينه ، وقد تجهم وجهه :
— بنقول بخمسة .. بنبيع بالخسارة .. والله حرام .
وسأنى أن يبيع الرجل بخسارة .. وكرهت لنفسى .. أنا صاحب المروءة
الذى أنوى أن أحسن بما أشتريه منه أن أتسبب للمسكين فى خسارة بضعة
قروش ، وتبين لى من عبوس وجهه وتجهمه أنه صادق فى قوله .
وكان الرجل قد عاود صراخه وصياحه .. فصحت به حتى يسمعى :

— بستة .. تبيع بستة ؟

وصمت الرجل ونظر إلى فى دهش ، وقال لى متسائلًا :

— إيه ده اللى بستة ؟

— الأقة .. أقة الموز .

— قلت لك بخمسة .

— لأ بستة .

ونظر إلى الرجل نظرتة إلى مخبول ، فأردفت قائلاً شارحًا وجهة نظرى :
— حرام تخسر .

— نعمل إيه .. أكل العيش عايز كده . مرة نخسر ومرة نكسب .
ولكنى أصررت على أن أشتري بستة .. وأن أتبيع للرجل « مرة تكسب »
بعد طول خسارة .

وبدأت أفحص الموز جيدًا .. حتى لا يخدعنى الرجل فيعطينى موزًا معطوبًا
ينجلىنى أمام الأولاد وأبيهم .. ووجدت الموز الموضوع على العربة من نوع سليم
ليس كثيرًا أن تدفع فى أفته ستة قروش .. بل لقد وجدته فى الواقع لقطة .. إلى
حد أنى قررت أن أعود للبائع بعد زيارتى للرجل فأبتاع منه بضع أقات للبيت حتى
أطلعهم على مبلغ مهارتى فى الشراء .

وقلت للرجل : زن لى خمس أقات .
وتناول قرطاسًا من بين كوم من القراطيس موضوعة أسفل العربة وجاهزة
للتعبئة ، وبدأ يعمى فيه الموز ، وهو مستمر فى صياحه :

— يا بلاش .. ببيع بلاش يا ناس .. بنص الثمن يا موز .. يا خسارة الموز ..
راح بلاش .

وكلما أمعن الرجل فى الصياح .. كلما أحسست له بالرثاء والعطف : ..
ولما سيحدث له من خسارة .. وازدادنى تأنيب الضمير .. وأخيرًا لم أعد أحتمل
فصحت به :

— خليها بسبعة .

ووضع الرجل القرطاس فى الميزان .. ونظر إلى كأنه لا يصدق أذنيه ، وقال
مستفسرًا :

— بسبعة ؟! سبعة قروش صاغ .

— أى نعم .. حرام عليك تخسر كل هذه الخسارة !
وأمن الرجل على قولى بهزة من رأسه ، وإن كنت علمت من نظراته أنه يعتقد
أنى مخبول معتوه .. ثم مديده بالقرطاس وتساءل ببساطة ، وهو ينظر إلى بطرف
عينيه :

— تحب نخلها بثمانية .. ولا إيه رأيك ؟

فأجبت في حماسة :

— لا مانع أبداً ؟

وحملت القرطاس ومددت يدي إلى الرجل بالأربعين قرشاً ثمن خمس الأقات ، وسرت في طريقي ، وهو يشيعني بنظرة دهش ، ويهز رأسه ، وكأنه يقول : « لله في خلقه شئون » .

وتركت شارع الأزهر وعبرت السكة الجديدة متجهاً إلى « سيدنا الحسين » .. ماراً في طريقي بعشرات الشحاذين من ذوى العاهات والأقذار .. الذين لم يستطع واحد منهم أن يستدر مني قطرة عطف .. بعد ذلك الدرس الذى تلقينته في مجمع الشحاتين من صاحبي الشحات والحاجة نودق .

سرت في طريقي لا آبه لأحد من أولئك الشحاذين حتى استوقفنى صوت يصبح بلهجة توصل :

— يا ييه .. يا سيدنا الافندى .

ووقفت لأرى المنادى . وكنت أسير إذ ذاك على الرصيف المقابل لسيدنا الحسين ، وتلفت حولى .. فوجدت المنادى رجلاً ريفياً قد جلس القرفصاء وبجواره امرأة ريفية تدلى ثوبها الأسود فغطى الأرض من حولها .. ولفت رأسها بشال أسود .. وأمامها وضع سبت متوسط الحجم مليء بالبيض ، وفوق البيض زوج من الحمام .

وكان منظرها يؤكد للناس أنها قد أتيا من الريف تَوّاً .. وكأني بهما يعرضان على الناس نموذجاً للسذاجة الريفية .

واقتربت منهما وسألت الرجل عما يريد ، فأجاب في كثير من الخجل والمسكنة :

— عدم المؤاخذة يا ييه .. احنا جايين من البلد علشان نزور الحسين ويادوبك وصلنا .. وامد إيدى أدور على المحفظة لقيتها ضاعت باللى فيها .. انسرت ..

وقعت .. خدنها ابن الحلال .. الله أعلم .. ومختارين يا سيدنا الافندى نعمل
إيه .. بس لو كان معانا أجره السفر .

وفهمت من الرجل ما يريد . ولم تكن هى المرة الأولى أن يطلب منى أمثاله
أجرة السفر ، فقد كانت إحدى طرق الشحاذة والخداع المعروفة .. وقد حدث
أن أعطيت أحدهم أجره السفر ثم مررت به بعد ساعات فتقدم إلى يعيد نفس
« المونولوج » .

وهممت بأن أقول للرجل « على الله » ولكنى وجدته يردف قائلاً :
— يا سيدى البيه .. احنا مش وش شحاته . وربنا ما يحكم علينا أبدًا .. أنا
مش عايز منك إحسان . أنا معايا سبت بيض وجوز حمام جايينه معانا من البلد ،
تعملش معروف تشتريه مننا .. وتدينا ثمنه أجره السفر .. ربنا يعمر بيتك .
وهنا قطع على الرجل كل الوسوس .. ولم يبق مجال فى أن أشك أنه شحاذ
محتال .. فالرجل لا يريد إحسانًا بل يعرض صفقة للبيع .. يريد أن يعطى البيض
ويأخذ نقودًا .. فهو رجل ساذج قد أتى وامرأته لزيارة الحسين فوقع فى يد نشال
محتال سلبها نقودهما .. والرجل لا يريد أكثر من أن يستبدل بالبيض والحمام
نقودًا تمكنه من العودة إلى بلده والنقوز من زيارة الحسين بالإياب ..

وخطر لى خاطر ملأنى طربًا .. إنى أستطيع أن أضرب عصفورين بحجر .
ماذا على لو ابتعت من الرجل البيض والحمام فأنقذته من ورطته ، ثم حملت
السبت بما فيه إلى بيت صاحبى المسكين مع ما أحمله من الموز فتكون هدية تفر بها
عينه وعين امرأته وأولاده ، وتفك ضيقهم .

برافو .. هذا توفيق من الله ، إن الأعمال بالنيات .. وهكذا يفتحها الله فى
وجه كل صاحب مروءة وذى فضل .

وسألت الرجل عن ثمن البيض والحمام ، فأجابنى بأنه لا يريد أكثر من أجره
السفر ، وهى سبعون قرشًا .. مع أن السبت بما فيه لا يقل ثمنه عن مائة قرش .
ومددت يدى فى المحفظة فأخرجت للرجل جنيهاً ثم أعطيته له قائلاً :

— هذا ثمن البيض والحمام .

ثم أخرجت سبعين قرشًا وناولتها إياه قائلاً :

— وهذه أجرة السفر .. مبسوط ؟

وحاول الرجل أن يعيد إليّ الجنيه قائلاً : إنه لا يريد إحسانًا ، ولكنني أجبرته على أن يأخذه .

ومددت يدي لأحمل السبت ، ولكن شيطان الشك وسوس في نفسي فجأة قائلاً : إياها الأحمق .. من يدريك أن الرجل يخدعك ، وأنه محتمل يتظاهر بالبراءة . وأن البيض تألف « ممشش » .

وترددت برهة .. من يدريني حقًا ؟

وبدت على الحيرة .. وأخذت أنقل البصر بين سبت البيض ووجه الرجل .. فوجدت وجه الرجل ينم عن منتهى الطيبة والسذاجة . وخيل إليّ أني أظلمه بشكوكي ، وقلت لوسواس الشك : إن الرجل طيب مسكين لا يبدو عليه قط أنه محتمل .

ولكن هاتف الشك أجابني مغيظًا :

— أيها الأبله .. إنك أنت الطيب المسكين .. والله لقد صدق أهلك حين

حذروك أن تحاول الشراء .. إن البيض ممشش . إن الرجل يخدعك .

ولم أجد خيرًا من أسكت هاتف الشك .. وأثبت له أن الرجل طيب مسكين .. فقلت للرجل وأنا أتناول السبت من يده .

— أوعى يكون البيض ممشش ؟

— ممشش ؟! أستغفر الله .

وبدا الألم على وجه الرجل .. وسرعان ما مد السبت وتناول بيضة وأسرع

بكسرهما وأراني إياها رفعها إلى فمه وابتلعها وقال :

— يا سيدنا الافندي .. ده بيض طازه من تحت الفراخ هو احنا لا سمح الله

حا ناكل بيض ممشش .

ثم مد يده.، وتناول بيضة أخرى وشربها قائلًا :
— وادى واحده كان .. يا بيه دا على المكسر .

وهنا لم أجد بدءًا من الاعتذار للرجل عن سوء ظني ، وتناولت سبت البيض
وقد وضعت فوقه الحمامتين ، وودعت الرجل وانصرفت .

ولكني لم أكد أتقدم بضع خطوات حتى وجدت إحدى الحمامتين قد قفزت
من السبت ، وأخذت تتواثب أمامي .. ثم أعقبتها الحمامة الأخرى .

وأسقط في يدي ولم أدر كيف أتصرف ؟ أترك سبت البيض والموز على
الرصيف وأعدو وراء الحمام .. أم أترك الحمام ينطلق هاربًا ؟

وكرهت أن أترك الحمام يفر ، وخشيت كذلك أن أترك البيض والموز.
أن أعود فلا أجدهما ، وأخيرًا لم أجد خيرًا من أن أعدو وراء الحمام حاملًا السبت
وقرطاس الموز .

وهكذا بدأت أتبع الحمام وأنا أصبح بالناس أن يعاونوني على الإمساك به ؛ ولم
تمض لحظة حتى كان الشارع كله قد تكأكأ وراء الحمامتين ، وأخذ الناس
يعدون ويتصايحون .. وازداد الهرج والمرج والضجيج والعجيج ، وقلب
الشارع إلى شبه مظاهرة .

وسأل أحدهم آخر عن سبب الازدحام فأخبره :
— لازم حرامى .

وسرى بين الناس أن المطارد حرامى .. وسرعان ما انقلب الصياح إلى ..
حرامى .. حرامى .

ووجدت نفسى بين أفواج الناس المتصايحين والمتصايحين .. وقد انقطعت
كل صلة لى بالحمامتين ، ولم يعد لى أى أمل فى لقاتهما ، فلم أجد خيرًا من أن
أولى وجهى شطر بيت الرجل ، وعفا الله عن الحمامتين الهاربتين .

وصلت إلى البيت أخيرًا .. وقد تصبب منى العرق وتصلبت ذراعى من
قرطاس الموز وسبت البيض ، ووضعت السبت على الأرض وقرعت الباب

وسمعت صوتًا نسائيًا يجيبني :

— مين ؟

فاجبت الإجابة الطبيعية :

— أنا .

فعاد الصوت يسأل :

— انت مين ؟

ولم أر فائدة من أن أقول — أنا مين — لأنني واثق أنهم لن يعرفوني من مجرد ذكر اسمي .. فزيارة مثلي لا تخطر لهم قط على بال .. وأجبت على سؤال المرأة بسؤالى :

— محمد افندى موجود ؟

— أيوه .

ثم سمعت الصوت يصيح :

— يا سى محمد .. يا سى محمد .. واحد عايزك .

كل ذلك والباب لم يفتح بعد ، ثم انفتح الباب فبدا لى من ورائه طابور من البنين والبنات يتطلعون بأبصارهم محملقين فى وجهى .. ثم لمحت « سى محمد » يظهر من وراء الطابور . وأطل على برأسه وقد بدا عليه دهش شديد ، ثم صاح مرحبًا بى وهو فاغر فاه :

— أهلا وسهلا .. اتفضل .

وبدا عليه فجأة ارتباك شديد ورأيتة يهول إلى الداخل ولم يصعب على أن أدرك سر ارتبائه فقد كان يرتدى أحد قمصان امرأته .

وأدخلنى الصبية إلى حجرة — المسافرين — وهى بضعة مقاعد لأكيه متداعية من بقايا الجهاز وقد توسطت الحجرة مرتبة فرشت على الأرض .. وأسرع أحد الصبية بطمها وحملها خارج الحجرة .

وبعد لحظة أقبل الرجل وقد ارتدى كامل ثيابه .. ولم أشك عند ذاك أنه

يتشارك وامرأته ثياب المنزل ، وأن جلاله من قمصانها .
وانهالت على من فم الرجل عبارات الترحيب .. وهو يسترق النظر بين آونة
وأخرى إلى القرطاس وسبت البيض . وبعد لحظة أقبلت امرأته وبدأت تشاركه
في الترحيب بى .. وفي استراق النظر إلى السبت والقرطاس .
وانتهزت فرصة لحظة خفت فيها ألفاظ الترحيب .. فدفعت للمرأة بالقرطاس
والسبت وقلت فى لهجة متواضعة :

— دول للولاد يا ست زكية .

— وليه يا خويا التعب ده .. حقا ما لكش حق .

ولمحت رعوس الأولاد تطل من الباب وقد أرهفت السمع والبصر .
وبدأنا الدردشة .. فأخذت أقص عليهم قصة البيض والحمامتين الهاربتين ،
ولكنى لم أكد أبداً فى وصف الرجل الرفيى والمرأة ، حتى وجدت الست
« زكية » تفغرها .. تضرب بيدها على صدرها وتصح بى :

— يا ندامة .. هم عملوها فيك انت راخر .. هو احنا موعودين ؟

وسألها فى دهش :

— مين هم الى عملوها فى ؟

— النصايين الغشاشين . قالوا لك عايزين أجرة السفر ؟

— أيوه .

— تمام .. زى ما قالوا لسى محمد .. وخذ منهم سبت البيض والحمامتين

وفاكر أنه جاب لقطة .. وطلع البيض كله ممش .

وضحكت فى ثقة .. ونظرت إلى المرأة نظرة الاطمئنان وقلت لها :

— ما حدش يضحك على أبداً أنا اشتريته على المكسر .. كسر الرجل أمامى

بيضتين .. زى الممش وشربهم .

— دانت الى شربهم .. دول البيضتين الوحيدتين الى مش ممشين فى السبت

كله .. يازيته ما شربهم ! كنا استغنينا بيهم .

ولم أصدق المرأة .. فقد تناول الرجل البيضتين أمامى من وسط البيض ولم تكن بهما أية علامة مميزة . وطلبت من المرأة أن تحضر طبقاً لكى أثبت لها أن البيض سليم .

ولم تحضر المرأة طبقاً بل أحضرت .. حلة كبيرة .. وبدأت فى تكسير البيض . وكسرنا كل ما فى السبت فلم نجد به واحدة سليمة .
وسألتنى المرأة فى حسرة :

— والحمام طار ؟

فأطرت برأسى فى خجل شديد وقلت :
— أيوه .

— تمام .. زى ما حصل مع سى محمد .. زمان الحمامتين قاعدين دلوقت فوق سبت تانى .

وهنا أدركت الخديعة وعلمت أن الرجل الريفى وامراته والحمامتان يكونون عصابة لبيع البيض المشش . والحمامتان مدربتان على الجلوس على البيض حتى تتم الصفقة ثم تقفزان من السبت وتعودان إلى الرجل مرة أخرى ، لتقوما بالدور المطلوب .

وملأنى خجل شديد وأحسست أنى كنت أحمق معتوفاً .. لقد خدعنى رجل ريفى وامرأة ساذجة وحمامتان !

ونظرت إلى قرطاس الموز فوجدت فيه بعض العزاء .. وقلت للمرأة :
— معلش .. حصل خير .. خلى الأولاد ياكلوا موز . وقامت الست « زكية » فأحضرت صينية .. وبدأت فى تفريغ الموز فإذا بالقرطاس الكبير — عزائى الوحيد — لا يحمل من الموز إلا ما يقرب من أقة ، قد وضعت على سطح القرطاس .. أما الأربع أقات الباقية .. فقد كانت عصيدة موز .. أو خليطاً من موز مخبوض تالف وحجارة وزلط وأشياء مما ثقل وزنها وخف ثمنها .. أشياء لا علاقة لها قط بالموز .

يا للرجل المختال النصاب .. لشد ما خدعنى وسخر منى وهزأ بى .. لقد كان
الفرطاس محشواً بهذه القمامة .. ولم يفعل هو أكثر من أن غطاه بيضع أصابع من
الموز السليم .. وهكذا أخذت الأفة بأربعين قرشاً .. يا بلاش .
وأحسست أن العرق يقطر منى .. وأصابنى من الخجل ما لم يصبنى فى
حياتى من قبل .. ووجدتنى أنقل البصر بين الرجل والمرأة وحلة البيض المشمش
وصينية الموز وهمست لنفسى :
— ليس الذنب ذنبى .. إنه ذنب الذى سكب النفاق والغش والخديعة فى
النهر .. ماذا يفعل ذو مروءة بين أهل الخداع فى أرض النفاق ؟

جنون المروءة

أيها الناس .. لا تحزنوا .. لا تحزنوا .
 كيف تحزنون على شيء . وأنتم لا شيء ؟
 فيم حزنكم .. وبعد لحظة أو لحظات
 ستضحون رمة لا تستطيع حتى أن تحزن ؟
 أيها الناس ، لا تحزنوا على ما ضاع فأنتم
 أنفسكم ضائعون .. كيف يحزن ضائع على
 ضائع ؟ .. وهالك على هالك ؟ .. وزائل على
 زائل ؟ ..

جلست أمام الرجل وامراته وقد تملكنى خجل شديد . وأحسست أنه ليس
 على وجه الأرض من هو أشد منى خيبة وأكثر غفلة .. وحز في نفسي أن أجد أول
 دفعة من دفعات مروءتى تذهب بلدًا .. بفضل بلاهتى ولؤم أهل الغش
 والخداع .

وتذكرت المثل الذى عودتنى والدتى أن تلقانى به عندما أدخل عليها بهدية
 تافهة وهو — ياما جاب الغراب لامة — ووجدت أنى ما استحققت ذلك المثل
 كما أستحقه فى هذه اللحظة .

ولم تكن فجيعتى فى مجرد حزنى على النقود التى ذهبت سدى ، أو فى غيظى
 من أن أكون صيدًا سهلاً وأحق ما فوقًا مخدوعًا يضحك عليه بائع جاهل وريفى
 ساذج وحمامتان بريتان ، بل كانت فجيعتى فى إحساسى بأننى قد سببت للرجل

المسكين فجيرة .. وأن إحسانى إليه قد قلب إساءة ، ومحاولتى إسعاده قد جلبت له الشقاء . فقد لوحث له بهدية براقة خاوية فزدته وأولاده وامرأته حرماناً فوق حرمان .. ونكبته فى سبت بيض وأربع أقات موز ، فهو لا شك يشعر أنه هو الخدوع الخاسر وأن المال الضائع ماله .. وأنه — لولا خيبتى — تتمتع وأهله بالبيض والحمام والموز .. ولوفر على نفسه طعام يومين .

ولم أشك فى أن المرأة وأولادها يلعنوننى فى سرهم .. وأنهم يعتبرون زيارتى مصاباً حل بهم .

ومضت برهة والسكون سائد والصمت مخيم .. وصينية الموز التالف ... وحلة البيض المشمش .. قد تمددتا أماننا كأنهما « قليل » .. وعلامات الحزن قد كست وجوهنا كأننا فى محزنة .

وأخيراً تنهد الرجل وقال فى صوت خافت ونبرات ممدودة :
— وحدوه .

فعلت أصواتنا تتبعه قائلة :

— لا إله إلا الله .

وبدأت أعود لنفسى ملقياً عن كاهلى عبء ذلك الحزن الذى بعثته فى الخديعة التى أصبت بها .. مقنعاً نفسى بأن — قضا أخف من قضا — ولقد كانت تلك هى خير وسيلة أستعين بها على طرد ما يتأبى من الحزن أو الندم أو الضيق وأجعل بها نفسى فى حالة رضاء تام .. فما نزل لى من مصاب إلا ورأيت فيه خيراً مما كان يمكن أن يكون .

ما أحق الإنسان ! يجعل من حياته سلسلة مسببات للحزن . يحزن لأوهى الأسباب وأتفه العلات .. فى دنيا ليس بها ما يستحق الحزن .. إنسان تافه فى دنيا تافهة .. يحزن المرء لأن بقعة حبر قد سقطت على ثوبه الأبيض فأثقلتته ، ولو تذكر عندما أصابه الحزن على ثوبه أنه ليس أسهل من أن يطوى هو وثوبه الأبيض تحت عجلات الترام ، ليفرق ثوبه بالحبر وهو هائى سعيد .

يحزن المرء لأنه غلب في صفقة وأن البائع قد خدعه في بضعة قروش ، ولو علم أن جراثومة صغيرة قد تسلبه عشرات الجنيهات لكي يتجو من مرضها لما أحرزته قروشه الضائعة .

يحزن المرء إذا فقد متعة من المتع ، ولو درى أنه في غمضة عين قد يفقد نفسه .. لما أسف على متعة زالت .

أيها الناس .. لا تحزنوا .. لا تحزنوا .

كيف تحزنون على شيء ، وأنتم لا شيء ، فيم حزنكم وبعد لحظة أو لحظات ستضحون رمة لا تستطيع حتى أن تحزن ؟

أيها الناس لا تحزنوا على ما ضاع فأنتم أنفسكم ضائعون . كيف يحزن ضائع على ضائع ؟ وهالك على هالك ؟ . وزائل على زائل ؟

وهكذا لم يكن هناك أسهل عليّ من أن أقنع نفسي بأن « قضا أخف من قضا » وأن أهون الشرور وأخف التكبّات هو ما حدث لي .. وحمدت الله على أنى ما زلت سليماً معافى متمتعاً بكامل صحتي .. وحمدت الله على أنه لم يسقط عليّ بيت ولم تصدمني عربة أو ترام ، وأقنعت نفسي كذلك بأنه حتى الخديعة لم تصبني بخسارة كبيرة .. ألا يجوز أن يكون بائع الموز الذي غشني في حاجة شديدة إلى النقود التي احتال على أخذها مني ؟! ألا يجوز أن يكون الربى صاحب البيض سيفك بنقودى ضيقاً ويقضى حاجة ؟! علام حزنى إذا وكل ما فعلت لم يعد أن يكون داخلا في باب المروءة !

ثم إنى أستطيع أن أعوّض الرجل عن البيض والموز بالنقود فيكون بذلك لم يخسر شيئاً .. بل ربما استطاع أن يبتاع بالنقود أشياء هى ألزم له من البيض والموز .

وهكذا سرى عنى في لمح البصر ولم يبق عليّ إلا أن أسرى عن الرجل وزوجته ، وأولاده .. وهذا ما لم يكن عليّ بالشىء العسير ، إذ سرعان ما دفعت يدي في جيبي فأخرجت المحفظة وأشرت للأولاد باسمًا أن اقتربوا .

وأقبل الأولاد فأخذت أنقد كل واحد منهم نصف ريال — على الماشى — طالباً منهم أن « يشبرقوا » به أنفسهم ، وإن لم يداخلنى شك فى أن الأم ستجمع منهم النقود بمجرد مغادرتى الدار .

وأخذ الصبية النقود عدا واحد منهم بدت عليه مظاهر الخبث ، وجدته يرن القطعة الفضية جيداً ويعضها بأسنانه فنظرت إليه مستفسراً :

— مالها ؟

— أخشى أن تكون هى الأخرى ممششة .

وضحكت مقهقهة .. وأجبت قائلاً :

— لا تخف .. إنها القطعة الوحيدة الكويسة .

ومضت برهة وأنا ألعب الأولاد وأضحكهم .. حتى انفرجت أسارير الأم والأب ، ولم يعد لى شك فى أن أثر كارثة البيض والموز قد زال تماماً .

وانصرف الأولاد .. وسادت الحجرة فترة صمت .. لم أشك خلالها فى أن الرجل وامراته كانا يقدحان زناد أفكارهما لعلهما يتوصلان إلى سبب زيارتى ..

وعلة ذلك الكرم الحامى الفجائى الذى لا مبرر له .. ترى ما وراء كل ذلك !! وجمعت أطراف مروءتى ، وبدأت أتجه إلى الغرض رأساً ، فسألت عن ابنهما

الأكبر ، وأجابتنى الأم فى تهينة :

— يذاكر .

— وكيف حاله فى الكلية ؟

— والله يا خويا الجدع عامل الى عليه .. حا يعمل إيه أكثر من كده ؟ لكن

الدور علينا احنا الى مش قادرين ندفع له المصاريف .

وتهد الأب وأطرق قائلاً :

— حا نعمل إيه .. العين بصيره واليد قصيره .

وأحسست بما فى قول الرجل من مرارة وألم لأنه لا يستطيع أن يتيح لابنه المجتهد الناجح فرصة إتمام دراسته ولأنه يراه يطرد من الكلية لا لإخفاقه بل لعجزه

(أرض النفاق)

هو عن أن يدفع المصروفات :

وسألت الرجل مترققاً :

— وكم يلزمك من نقود لسداد المصروفات ؟

— عشرون جنيهاً .

ووجدتني أردد في صوت خافت « عشرون جنيهاً » .

واعجباً من هذه الدنيا ! عشرون جنيهاً هي ما يلزم الرجل لكي يؤدي بها واجباً مقدساً نحو ابنه .. بل واجباً نحو وطنه .. عشرون جنيهاً هي ما يلزمه لكي يتتبع بها علماً في بلد يأبى إلا أن يبيع العلم .. عشرون جنيهاً هي ما يلزمه لكي ينتج للأمة رجلاً نافعاً .. ومع ذلك لا يستطيع الحصول عليها .

إن العشرين جنيهاً .. مبلغ كبير بالنسبة لكثيرين غيره ، ولكننا لو بحثنا عما تعنيه العشرون جنيهاً للبعض الآخر ، وعن الوجوه التي يمكن أن يصرفوا فيها العشرين جنيهاً تملكنا العجب كل العجب .

هذه عشرون جنيهاً تمد بها الحسنة يدها في كبرياء لتدفعها ثمناً لحقيرة يد تمسكها يوماً أو بعض يوم ، ثم تضيفها إلى عشرات الحقائق المرصوفة في الصناديق . رغم أنه ليس هناك أية فائدة لحقائب اليد أو غيرها من التوافه التي يضيع النساء فيها نقودهن .. أعني نقود أزواجهن .

وهذه عشرون جنيهاً يدفعها آخر ثمناً لبضع زجاجات من الويسكى يحرق بها

جوفه وجوف أصحابه في سهرتهم البريئة !!

وهذه — ليست فقط عشرون جنيهاً — بل مائة جنيه أي — خمسة

عشرينات — يدفعها آخر لراقصة ثمناً لبضع هزات للخصر والبطن .

وتلك .. مائة عشرين .. أي ألفان من الجنهات دفعها صاحبها بمنتهى

السهولة على مائدة القمار .

ومالنا نذهب بعيداً .. وآلاف العشرينات تجلس قابعة في الخزائن تغط في

نومها .. حتى يثوى أصحابها في أجدانهم ، دون أن يفيدوا منها أية فائدة .

هذه هي العشرون جنيهاً التي يحتاج إليها الرجل لكي يعلم ابنه ، ولكي يمنع الكلية من طرده .. لشد ما عزت عليه وهانت على الآخرين .

واعجباً !.. من هذه الدنيا ومن متناقضاتها .. أيتساوى فيها تعليم الصبي بحقيبة يد !! أيتساوى مستقبله مع بضع زجاجات من الويسكى ؟ أيفتدى خمسة منه .. بهزات من الخصر والبطن .. ومائة منه بليلة قمار خاسرة ؟! أيكتر هذا الكهل الأحق نقوده .. ويطرد الصبية من المدارس لحاجتهم إلى النقود ؟ تلك والله سخرية .. وأية سخرية !!

ولكن ما الفائدة من كل هذا ولو بكينا أمام الحسنة على حد قولهم « من كل عين جفان » .. واستعطفناها أن تتنازل عن الحقيقة وتكتفى بالعشر التي لديها .. في سبيل أن يعود الفتى إلى كليته .. لما كان يصيبنا منها غير نظرات دهش وازدراء واحتقار .. ثم تقلب شقيها ، وتقول من أنفها : « وأنا مالى » .

ما الفائدة .. ولو سألنا صاحب زجاجات الخمر .. أو صاحب الراقصة . أن يتنازل عن متعة ليلة .. في سبيل إنقاذ مستقبل الفتى .. لكان نصيبنا السب والطرده ؟

ما الفائدة .. ولو قلنا لصاحب الكنوز .. أخرج كنوزك ، ولو حتى لكي — تشم نفسها — لاتهننا بالجنون .

هذه تمنيات عديمة الجدوى ، وأفكار لن تفيد الرجل بشيء .. إن المهم هو أن أفعل أنا شيئاً ، وأن أعجل بإعطائه النقود لكي يعيد ابنه إلى الكلية .

وتحسست المحفظة فشعرت بالغبطة .. إذ كان بها ما يكفي لمعونة الرجل . كان بها عشرون جنيهاً أخذتها من الدولاب من النقود التي حجزتها للتصنيف . أترى التصنيف أهم من مستقبل الفتى ؟! طبعاً لا .. إن زوجتي ستفزع في مبدأ الأمر ، ولكنها بلا شك ستقتنع في النهاية وستشكرني على ما فعلت من مروءة .

وفتحت المحفظة وبدأت أعُد ما بها من نقود .. والرجل وامرأته ينظران إليّ في

دهش شديد .. فوجدت بها عشرين جنيهاً ، وبضعة قروش .. فحمدت الله ..
إذ كانت القروش تكفى أجر الركوب لعودتي إلى الدار .

ومددت يدي إلى الرجل بالنقود وقلت ببساطة ، وقد تملكني شيء من
الحياء :

— هذا المبلغ قد يكون فيه الكفاية لإعادة محمود إلى الكلية .

وارتج على الرجل من فرط الدهش ، وبدأ لي كأنه غير مصدق ، ثم قال في
صوت خافت :

— ولكنني أخشى ألا تسمح لي الظروف برده بسرعة ؟

— لا عليك .. لا ضرورة لرده أبداً .. كان الله في عونك .

ووجدت الرجل قد اغرورقت عيناه وأطرق برأسه ، ولحت امرأته ترفع
كفها فتمسح به عينها ، ثم ترفع يديها وعينها إلى السماء وتهمس في لهجة
ملؤها الإيمان :

— يارب .. يا ما انت كريم يارب .

هل أستطيع أن أصف تلك المتعة التي أحسست بها وقتذاك ؟

لقد أحسست — من فرط المتعة التي أصابتنى — أن ما فعلته لم يكن من
المروءة في شيء .. إن ما فعلته لا يعدو أن يكون صفقة رابحة .. كل ربح .

لقد دفعت للرجل عشرين جنيهاً .. اشتريت بها من المتعة ما لا يقدر بمئات

الجنيهات .. لا تظنوا بقولي مبالغة كاتب .. ولا تحسبوه من باب الترويح

للفضيلة .. فأنا لا أكره في حياتي شيئاً كالنصح والوعظ .. وتأكدوا عندما أقول

إني حصلت على متعة تساوي مئات الجنيهات أنني لم أجاوز الواقع .. وأن متعتي

كانت أكثر من متعة صاحب الراقصة التي دفع لها مائة جنية ، أو متعة المقامر الذي

دفع مئات الجنيهات .. إن متعة المروءة لا تعادلها متعة ، ولذة الإحسان ومعاونة

الغير لا تساويها لذة .. بشرط أن يكون الإنسان واثقاً من أنه قد وضع الفضل في

موضعه .

وتركت المرأة الحجرة ، وقد تهلل وجهها بشراً وفاضت من نفسها السعادة وأقبل على الرجل يشد يدي .. قائلاً :

— كيف أستطيع أن أرد لك الجميل .. إنك لم تعطيني عشرين جنيهاً .. إنك أعطيتني سعادة ابني ومستقبله .

وبعد لحظة عادت المرأة ، وقد اصطحبت معها ابنها الأكبر .. محمود .. الذى لم أكن قد رأيته حتى تلك اللحظة .. فقد كان منهمكاً فى الاستذكار ، رغم علمه أن الكلية قد طردته .. وأن أباه لا يملك ما يستطيع به إعادته إليها .

وأقبل على الفتى .. نحيل الجسد ، شاحب الوجه .. وتناول يدي فطبع عليها قبلة حارة ملؤها الإخلاص وعرفان الجميل ، وقال فى صوت خافت :

— أشكرك يا سيدى .. هذا دين لن أنساه فى حياتي أبداً .

ثم جلس الفتى بجوار أبيه ، ومضت فترة سكون .. ملأني فيها إحساس بالخلج والتواضع ، وأنا لا أكره شيئاً كهذا الإحساس ، فسرعان ما حاولت إخراج نفسى منه قائلاً للصبي بصوت ضاحك :

— إذا نجحت بتفوق فسأتنازل لك عن الدين .. ما رأيك ؟ .

— سأتفوق إن شاء الله .. ولكن لن أنسى الدين .

— هل ستذهب فى الغد إلى الكلية ؟

وكان سؤالى .. لمجرد الحديث .. فما كان لى أقل شك فى أن الفتى سيذهب إلى الكلية ، إذ لم يعد هناك ما يمنعه من الذهاب ، بعد أن حصل أبوه على المصروفات .

ولكنى وجدت وجهه قد علته سحابة هم .. وبدا كأنما قد تذكر فجأة ما أقلقه وأزعجه ، وظهرت عليه علامات الحيرة والتردد وسمعتة يهمس إلى أمه فى صوت ملئ عجباً :

— البدة !

ووجدت الأم تضرب صدرها بيدها وتحملق بعينها .. ثم تقول فى لهجة يائسة :

— آه .. البدلة .

أما الأب فقد أطرق ، ثم قال فى شبه تعزية :

— لا بأس .. البدلة يمكن تديرها .

وهزئت رأسى مستفسراً عن جلية الأمر ، فأجابتنى الأم :

— لقد بعنا بدلتة الوحيدة التى يذهب بها إلى الكلية إلى بائع الروبايكيا

فى هذا الصباح .. فقد احتجنا إلى نقود .. وكنا قد ضربنا صفحاً عن عودته إلى

الكلية .. فبعنا البدلة .. أو الشئ الوحيد الذى لم يعد إليه حاجة .. يا خسارة

لقد راحت بنصف الثمن !

ونظرت إلى الفتى فوجدت حجمه لا يختلف كثيراً عن حجم أبيه فقلت مقترحاً

أحد الحلول :

— لا بأس .. يمكنه أن يرتدى بدلة أبيه .. حتى ندبر له بدلة .

وهز أبوه رأسه وتساءل :

— وأنا ؟ كيف أذهب إلى الديوان ؟

وخجلت من نفسى .. فقد أخرجت الرجل .. إذ لم يكن هناك شك فى أن

كل ما لديه من ثياب هو بدلة واحدة .

وهنا ظهر تأثير جرعة المروءة ، التأثير الجنونى الحاد .. الذى جعل كل ما فى

من صفات قد تضاعل وانكمش إلا شيئاً واحداً هو المروءة .

لقد نهضت من مقعدى فى سكون .. وبدأت فى خلع الجاكتة ، ثم البنطلون

والقميص ، ووقفت أمام الرجل وامرأته وابنه .. بالفانلة واللباس والطربوش

والخذاء ماذا يذى إلى الفتى بالبدلة والقميص .

وبهت القوم .. وفغروا من الدهش أفواههم .. لقد كان كل ما فعلته بهم من

أنواع المروءة ، رغم ما به من شذوذ وغرابة — شيئاً معقولاً .. محتملاً .. قد

يفعله الإنسان وهو ما زال بعقله .. أما أن تبلغ إلى المروءة إلى حد أن أخلع ثيابى

وأدفع إليهم بالبدلة تاركاً نفسى بالفانلة واللباس .. فهذا أمر .. لا أظن أن

الإنسان يقدم على فعله .. وهو يتمتع بقواه العقلية .
ونظر إلى الرجل وزوجته وابنه في حذر دون أن يجسر أحد منهم على أن يمد
يده ليأخذ البدلة .. وبدأوا يرقبوننى في ذعر وخشية كما يرقبون ذاجنة !!
ولم أفهم لدهشهم سبباً ؟

أى شيء فيما فعلت يستحق العجب !!؟
إن الفتى لا بد له من الذهاب إلى الكلية .. ولا بد للذهاب إلى الكلية من بدلة
يرتديها .. إذ ليس عنده بدلة .. فقد باعوا بدلته .. وهو لا يستطيع أن يرتدى
إحدى بدل أبيه .. لأن أباه لا يملك سوى بدلة واحدة .
أما أنا فلدى عدة بدل .. فلم لأعطيه بدلة يذهب بها إلى الكلية !!؟ هل فى
فعلى هذا أمر عجيب ؟

هل تراهم قد دهشوا لأنى خلعت البدلة فى التوالحين وأعطيها إياهم ؟ ألا
يعلمون أن خير البر عاجله ..؟
أم تراهم قد دهشوا لأنى وقفت أمامهم هكذا بالفانلة واللباس ؟ .. أجل ..
هذا هو لا شك سبب دهشتهم .

ولكننى مع ذلك لا أرى فيه ما يستحق العجب .
ترى أى فارق هناك بين أن أكون بالبدلة .. أو بالفانلة واللباس ، أو حتى
عريان ملط ؟

ما هذا الاعتبار الذى يقيمه الإنسان للملابس !!
هل هناك أدل على سخف الإنسان من مسألة الملابس ؟
لقد خلقه الله ، بلا ملابس لأنه لا حاجة به إلى الملابس ، ولو كان به إليها
حاجة .. لخلقها الله معه .. كما خلق الفراء للحيوان والريش للطيور .. فيولد
الإنسان من بطن أمه وفى قدمه حذاء .. وعلى رأسه طربوش أو برنيطة .. ولكن
الله وهو العليم الحكيم .. وجد أنه — كويس كده — .. وأن — كفايه عليه —
الجلد والشعر .. اللذين وهبهما له .. فتركه يهبط من بطن أمه عريان ملط ..

فماذا فعل الإنسان الأحق الغنى ؟ .. هل رضى بما خلقه الله عليه ؟ .. وهل قنع بحاله كبقية المخلوقات ؟!

أبدأ .. إنه لم يرض عن شكله .. الشكل الذى خلقه الله عليه .. وأبى إلا أن يضيف من عنده الحواشى .. ويضع الرتوش .. فغطى رأسه بطربوش أو قبعة زاعماً أنها تزينه وتقيه لطلشة الشمس .. ولست أدري والله ماذا تفعل الشمس مع سواه من الحيوانات التى لا تغطى رعوسها .. هل تراها تصيبها بلطشة أم أنها لا تخص بلطشها إلا الإنسان ؟!

ثم حشر بعد ذلك بين ساقيه سروالا .. حتى يستر عورته .. ولو تركها عارية .. لما شعر أحد قط أنها عورة .. بل لتساوت مع غيرها من أعضاء الجسم .. ولاعتادها البصر حتى لم تعد تثير أقل اهتمام .. وليس أدل على ذلك .. من أنه كلما ازدادت النساء عرياً كلما قلَّ تأثيرهن .

ثم بدأ الإنسان يفتن بعد ذلك ويثقل كاهله بالثياب المختلفة أشكالها وألوانها .. ويحنق نفسه بالياقات والكراقات .. بلا أى سبب ولا داع ، ويصنع الفراك والأسموكن والاستامبولينا .. وغيرها من السخافات المضحكات ، ويضع على صدره القصب والنياشين .. ويحيط نفسه بالقيود والجلود .. متخيلاً أن فى كل هذا التهريج أبهة وعظمة ، موحياً إلى نفسه .. أن كل هذا يزيده قيمة .

أما الإناث ، فكان الله فى عونهن ، فقد عصبن بطونهن ، وشددن صدورهن ، ومشين على أطراف أصابعهن ، رافعات كعوبهن كأنهن مصلوبات أو مشنوقات ، ملاقيات فى سبيل ملابسهن عذاباً أليماً يحتملنه بنفس صابرة .
لِمَ كل هذا أيها الإنسان الغنى ؟ لِمَ تضع عمرك فى أوهام الملابس ؟

تصوّر لو أن أى حيوان .. فعل ما فعلت .. وارتدى من الملابس ما ارتديت ، وصنع لنفسه من ألوان المعاجين والمساحيق والروائح مثل ما صنعت .. ترى كيف كنا نضحك عليه ونستسخفه ؟!

وبهذه الأفكار عن الملابس .. وقفت أمام الرجل وامرأته وابنه .. بالفانلة

واللباس بمتى البساطة .. وقد مدت يدي بالبدلة إلى الفتى .
وكان الرجل أول من تكلم فقد استطاع التخلص من دهشه وقال لى :
— لا يا سيدى .. لا .. أوصلت بنا الأتانية إلى حد أن نخرجك من منزلنا
عارياً .. إننا نستطيع أن ندبر أمر البدلة !!
ثم قالت المرأة :
— يا ندامة .. يا عيب الشوم .. نقلعك هدومك !
وهزرت رأسى قائلاً فى هدوء :
— وماذا فى ذلك .. إن لى بدلاً أخرى كثيرة .
وهنا تكلم الفتى لأول مرة ، فقال فى لهجة ملؤها الأدب والاحترام :
— كتر خيرك يا سيدى .. إننا عاجزون عن شكرك .. ولكننا لا نستطيع أن
نأخذ بدلتك ونتركك هكذا تخرج عارياً فى الطريق .. إذا كان لا بد أن تهب لنا
البدلة فيمكنك أن تذهب إلى دارك ثم ترسلها لنا مع خادم ، أو أذهب أنا معك
لأخذها .
ووجدت قول الفتى أقرب إلى العقل .. بل هذا هو الذى كان يجب فعله ..
لولا .. هم المروءة فى جوفى وإشعاعها فى رأسى .. ولولا أنى كنت فى ذلك
الوقت مجنون مروءة .
ولم أقبل قول الفتى .. بل أصررت على أن أعطيه البدلة فى التو .. وألا أغادر
دارهم ، إلا وقد فارقت جسدى .
وبدأ القوم يتوسلون لى ويحاولون إقناعى .. وأنا مصر على رأى .. وأخيراً
لم أجد بداً من أن ألين معهم قليلاً فقلت لهم :
— إذا كنتم تصرون على ألا أخرج من بينكم عارياً ، فإنى على استعداد لأن
استعير منكم جلباباً أذهب به إلى البيت ثم أعيده إليكم .
ووافق الرجل إزاء إصرارى .. ولكن سقط فى يده .. وبدت عليه حيرة
شديدة .. لم يصعب على أن أدرك سببها !.

إن الرجل ليس لديه جلباب ، فلقد رأيته عند دخولى مرتدياً أحد قمصان زوجته كما سبق لى القول .. فماذا يفعل ؟
ومضت فترة والرجل حائر خجل .. فلم أجذباً من أن أهوّن عليه وأخرجه من حيرته فقلت له :

— إذا كانت جلاليلك فى الغسيل فهات أى جلباب .. هات القميص الذى كنت ترتديه عند دخولى .. إنه لا بأس به .. فهذا يقضى .
ونهض الرجل ، وهو فى شبه ذهول ، والمرأة وابنها ينظران إلى وكأنهما ينظران إلى حيوان غريب .

وبعد برهة أحضر الرجل القميص الحريرى الذى كان يرتديه عند دخولى .
وسرعان ما ارتديت القميص .. ولحمت الفتى يحاول جهده أن يخفى ضحكة تحاول أن تنطلق من صدره .

ونظرت إلى نفسى فى مرآة قديمة بالحجرة .. فوجدت نفسى — مش بطل — حقيقة أن القميص كان قصيراً ، يصل إلى ما فوق الركبة ، ويكشف عن الشراب والحالة .. وحقيقة أن فتحة الصدر كانت — مقورة — جداً .
وأن القميص كان بلا أكمام . إلا أن منظرى — على بعضه — كان مقبولا .. عدا ذلك الطربوش الذى كان يبدو على رأسى كأنه شئ نشاز .

والواقع أن القميص كان مريحاً جداً .. إلى الحد الذى جعلنى أصبر وقتذاك على ألا أرتدى البدلة قط ، وأن أحاول جهدى حث الناس على مقاطعتها .
وهكذا وقفت أمام الرجل وامرأته وابنه ، وقد ارتديت قميص النوم والطربوش والحذاء والشراب وحالة الشراب ويدي المحفوظة لا تحتوى إلا بضعة قروش تمكننى من العودة إلى البيت راكباً الترام .

ومددت يدي مودعاً القوم ، وقد بدت على وجوههم الحيرة والأسف والذهول ، وخرجنا إلى القاعة ، وهنا سمعت زوبعة من الضحك .. صادرة من بقية الأبناء الذين لم يكونوا قد رأوني بعد وأنا على حالى تلك .

فنهروهم الأب .. وزجرتهم الأم .. وهبطت على السلام محاطاً بخليط من ألفاظ الترحيب والاعتذار وصدى الضحكات .

وتركت الدار وذلفت إلى الطريق .. وسرت برهة دون أن أحس بأية غرابة .. بل كأني ارتديت إحدى بدلات التشريفة .

وكان الطريق أمام الدار خاليًا إلا من بضعة أشخاص منهمكين في أعمالهم .. فلم يثر منظري في نفوسهم اهتمامًا .. واستمرت في السير على هذه الحال حتى وصلت إلى شارع الحسين .. وهنا أحسست أن الناس بدعوا يتغامزون عليّ ويشيرون إليّ كأني أعجوبة .. ولكنني لم ألق إليهم بالا .. وسرت في طريقي دون أن ألتفت يمنة ولا يسرة .

ولكن التغامز زاد .. حتى أضحي — تلقياً — وبدأت النكات تنهال عليّ من الجانبين ، وبدأت أسمع — انت يا باشا — .. و — يا أبو القميص الشفتشي — وأخذ الأمر يزداد حرجًا .. وبدأ الصبية يتكأكون عليّ حتى سقط في يدي .. ووجدت أني لا أستطيع أن أواصل السير على هذه الحال .

ولمحت أحد التاكسيات مقبلاً فوجدت فيه خير متقد .. فأشرت إليه وسرعان ما اختفيت في داخله ، وطلبت من السائق أن ينطلق بي مسرعاً إلى البيت . وهكذا انطلق بي التاكسي مخترقاً قلب القاهرة ، والسائق ينظر إليّ في دهشة بين آونة وأخرى .. وقد تملكته حيرة شديدة من منظري حتى وصل أخيراً إلى باب البيت .

وهبطت من التاكسي ، فإذا بي أجد أخي أمامي وجهها لوجه .
هو نظر إليّ وفرك عينيه كأنه غير مصدق .. ثم سألني في ذهول :

— إيه الحكاية ! مالك المره دى .. لسه مصاب بالشجاعة !!

وهزئت رأسي وقلت مؤكداً :

— لا .. المره دى .. مجنون مروعة !!!

(١١)

بلا نفاق

إن هؤلاء البشر كلاب مسعورة ، وأفاع
رقط .. فإذا دفعتك مروءتك إلى أن تعطيهم
إحسانًا فاقدف به إليهم ثم اجر من أمامهم ..
اعطهم الفضل وفر منهم .. لا تنتظر حتى مجرد
الشكر .. انج بنفسك .. واذكر المثل .. اتق
شر من أحسنت إليه ..

وقفت بباب الدار برتديًا قميص النوم الحريري والطربوش ، وقد أخذ أخى
يحملق فى وجهى فى دهشة شديدة .. ويفحصنى ببصره من أسفل إلى أعلى ،
ومن أعلى إلى أسفل . وطالت به الحملقة ، وهو واقف فى مكانه كالصنم حتى
ضقت ذرعًا فصحت به :

— ما لك تحملق فى ؟. كأنك لم تر بنى آدم من قبل
وهز أخى رأسه بشدة كأنه يحاول أن يوقف نفسه .. ثم لمس عينيه بأصبعه
ليتأكد من أنه فى حالة يقظة ، ثم نقل بصره بينى وبين سائق التاكسى وسألنى
هامسًا :

— أسار بك التاكسى فى الشوارع وأنت بحالك هذه ؟
— بل لقد سرت أنا بنفسى على قدمى بين الناس بحالى هذه !! ماذا بها ؟

عيب !؟

— أبدًا .. عيب ازاي .. ما عيب إلا العيب .. والعيب من أهل العيب مش

عيب .. من قال إن السير بقميص نوم حريمى فى وسط البلد عيب ؟

وتبينت فى قوله رنة سخرية ، فقلت له مغيضاً :

— أيها الغبى الأحق .. ماذا يضيرنى أن أسير بقميص النوم أو بسواه ؟ ماذا

يمكن أن يغير منى هذا الكساء البالى ؟ إلى أنا، هو أنا .. سواء ارتديت قميص

نوم .. أم بدلة تشريفة .. أم ملاية لف . هذه مجرد قشور .. لا علاقة لها بجوهر

الإنسان .. فاهم ؟

وأطرق أخى ، وقال فى يأس :

— فاهم .

وأشرت إلى التاكسى ، وقلت له آمراً :

— ادفع أجرة التاكسى .

ودفع أخى أجرة التاكسى ، ودلفت وإياه إلى داخل الدار وسألنى

مستفسراً :

— وأين بدلتك ؟ هل تنوى الدخول عليهم بهذا المنظر ؟

— أما عن البدلة فقد تصدقت بها .. وأما عن سؤالك عما إذا كنت أنوى

الدخول عليهم بهذا المنظر .. فأبى لا أجده له معنى .. لأنك ترائى داخلًا معك

فعلاً .. مم تظننى أخشى ؟

هل تجد فيما فعلت جرماً ؟! إننى رجل صاحب مروءة .. هذا كل ما فى

الأمر . فإذا كانت المروءة تهمة ينجل الإنسان من ارتكابها .. فأبى موافقك على

أننى مجرم خاطئ .. وأنه يجب أن أخشى عاقبة كل ما فعلت .. وأن أحجل من

منظرى هذا .. الذى سببته لى جريمة المروءة .. لا .. لا .. إن منظرى هذا

يستحق الفخر .. إلى لا أخشى ..

ولم أتم حديثى فقد وجدتنى وجهًا لوجه أمام امرأتى .. وقد تطاير من عينيها

شرر مخيف .. وبدت كأنه قدر كبحها مائة عفريت .. أو كأنها عاصفة على وشك

الهبوب .. أو حيوان مفترس سيتحفز للانقضاض على .

وأدهشنى غضبها .. وعجبت لتلك الثورة التى توشك أن تلاقى بها .. إذ لم أذكر أنني قد فعلت شيئاً أستحق عليه ذلك الاستقبال الرائع .. وكسوت وجهى بابتسامة هادئة ، وهززت رأسى مستفهماً :

— إيه الحكاية .. كفى الله الشر ؟

ولكنها لم تجبني ، بل انطلقت منها صيحة كالرعد ، استطعت أن أميز منها :

— كنت فين ؟

— عند محمد أفندى .

ورأيها تضغط على أسنانها ، وقد زوت ما بين حاجبيها .. ونظرت إلى نظرة مفترسة ملؤها السخرية والاثام :

— محمد أفندى ؟ .. محمد أفندى دا يبقى مين ؟

— محمد أفندى الباجورى .. ابن ابن خال زوجة عم أُمى .

وبدألى كأن إجابتي زادتها لهيئاً .. وأنه لم يبق سوى سؤال آخر ، ثم تنفجر ، وتملكنى من تلك الحالة دهش شديد .. فقد وجدتني أقف أمامها موقف المتهم وأى متهم ؟ متهم بشر أنواع الجرائم التى يمكن أن يفكر فيها إنسان ، واقتربت منها لتهدئتها .. محاولاً أن أفهم سر ثورتها .. وسر تلك الأسئلة المحققة التى تلقىها علقى .

ولكننى لم أكد أقرب منها حتى دفعت يدى بشدة ، ثم انفجرت باكياً . وارتمت على الأريكة ، ونظرت إلى أخى ، وقد تملكتنى الحيرة وسألته :

— ماذا حدث .. هل أصابها جنة ؟

وأجابنى الأخ العزيز فى سخرية :

— هى التى أصابها جنة ؟ سبحان الله !

وأجابتنى « حماق » التى دخلت الحجرة على صوت بكاء ابتها بنظرة معناها : « جن لما يلخبطك » .

ثم نظرت إلى وقد رفعت حاجبها فى دهش شديد :

— ودا أصله إيه دا كان ؟

ولم أجبها .. بل أجابتها زوجتي وهي تنشج باكية :

— كان عند محمد أفندى .. محمد أفندى ابن خال مرات عم أبوه ، تصدق

الكلام ده يا ماما ؟

وقالت الحماة .. حماها الله :

— محمد أفندى دا بيخرج الناس بقمصان نوم حرى ؟ حقا بطلوا ده ..

واسمعوا ده .

وهنا بدأ يتكشف لى الأمر .. وبدأ لى أننى متهم بتهمة خطيرة ، فإن قميص

النوم الحرى قد وجه شكوكهم لى ناحية لم تخطر لى قط على بال .

أجل .. إن امرأتى ظنت أننى لا بد مقبل فى النو من بيت امرأة .. عشيقه أو

رفيقة أو من بنات الهوى .

وفعلا بدأت الموجة الغاضبة تفصح عن شكوكها وتدلّى بتهمتها :

— دى ؟ معقولة !! تخرج من بيت محمد أفندى بقميص نوم حرى !! أنا مش

حاستنى معاك ولا ثانية .. اتفضل روح عند اللى كنت عندها .. اللى ادتك

قميص النوم بتاعها .

— يا شيخه ما يصحش الكلام ده .. عيب .. إهدى شويه وخلينى أشرح

لك الحكاية .

— حكاية إيه وهباب إيه .. هو انت خلّيت حكاية . واحدة داخل من بره

بقميص نوم حرى .. عايز إيه أكثر من كده .. أبداً .. ما اقعدش معاك أبداً .

— يا ستى حلمك .

وهنا تدخلت الحماة العزيزة :

— حلمها ازاي ؟! دا انت خلّيتها خل . دا حتى المثل يقول .. إذا ابتليتيم

فاستروا .. والا لازم تبقى حاجة على البهلى .. هو كل من رافق له واحده ..

يقوم ييجى البيت بقميص نومها ؟

وهنا لم أطق صبراً، وأحسست أني أوشك أن أجن فعلاً وصحت بهم صارخاً :
— يا ناس يا هوه .. حاتجنوني .. رفيقة إيه وبتاع إيه .. هي المروءة دى ما
تنفesch أبداً فى البلد دى .. هو يعنى حرام لما الواحد يعمل مروءة .. ويحسن
ببدلته على واحد محتاج .

ونظرت إالى امرأتى فى غيظ شديد :

— يحسن ببدلته على واحد محتاج !! طب وقميص النوم جبته منين ؟

وأجابتها حماقى متهكمة :

— لازم قميص المحتاج .. أصل محتاجين اليومين دول ما يلبسوش إلا قمصان

نوم !!

وقلت أنا ببساطة :

.. لا .. دا بتاع أمه !!

وهنا تدخل أخى فأمسك بذراعى وحاول أن يخرجنى إلى حجرى قائلاً :

— يا أخى إيه الكلام اللى بتقوله ده ؟ محتاج مين اللى ديتيه بدلتك واداك قميص

نوم أمه ؟. يا أخى عيب .. خليك عاقل .. انت جرى لعقلك إيه ؟

ونظرت إلى أخى فى حمق قائلاً :

— انت كمان مش مصدق ؟ .. لا .. دى حاجة تجنن ..

وبدأت أضرب كفّاً بكف مردفاً القول :

— يا ناس .. يا هوه .. هي عجيبه إن الواحد يعمل مروءة فى الزمن ده ؟ بقى ده

جزاى علشان الراجل محمد أفندى الغلبان صعب على .. رحت أساعده بهكام

جنيه يسدد بهم مصاريف ابنه ١٩ ده جزاى علشان إديت الولد بدلتى يروح بيها

الكلية !. ده جزاى علشان مرضتش أكسفهم وأخرج عريان وخدت منهم

القميص أستريه جتسى ١٩ سبحان الله ! بقى بعد ده كله يتقال على رجل خياص

ومرافق .. اخص عليكم .

ونظرت إلى زوجتى فبدلى أن غضبها قد اشتد .. وأنها لم تفهم من قول

(أرض النفاق)

إلا شيئاً واحداً هو الذى اخترق أذنها واستقر فى رأسها ليزيدها اشتعالاً وهو
قولى : « رحت أساعده بكام جنيه يسدد مصاريف ابنه » فقد نظرت إلى عملاقة
وسألتنى :

— انت خدت فلوس من الدولار ؟

وهزرت رأسى ببساطة وقلت :

— عشرين جنيهاً .

— وضيعتهم ١؟

— ادبتهم للراجل الغلبان يفك بيهم ضيقته .. مش أحسن ما نضيعهم احنا فى

التصنيف .

وهنا بلغ السيل الزبى ، وخيل إلى أنها توشك أن تلطم خديها ، وترقع

بالصوت .

ووجدت أحدى قد بدأ يتدخل تدخلا جدياً ، فاقترب منها ثم همس فى أذنها

ببضع كلمات .. لم أستطع تمييزها .

ووجدت امرأتى قد كفت عن البكاء فجأة .. ونظرت إلى نظرة فزع

وذعر .

وبدا عليها حذر شديد .. ووجدت « حماق » تتراجع ببطء متقهقرة بانتظام

من الحجرة .

فلم أشك عند ذاك . فيما قاله الأخ لهما .. إنه لا ريب قد عاد إلى اتهامى

بالجنون ، ولقد همس فى أذنها مذكراً إياها بما سبق أن قال لها عن حاله الجنون التى

أصابتنى أول مرة عندما طلبت منه أن يذهب ليحضر لى جرعة جبن ، وهو يؤكد

لها الآن أن النوبة قد عاودتنى وأن قميص النوم الذى أرتديه .. لا يمكن أن يكون

دليلاً على أنى عائد من عند امرأة .. فما من رجل يذهب إلى عشيقته ويعود إلى

داره بقميص نومها .

إن المسألة كلها ليست أكثر من حالة جنون .

هذا هو ما همس به الأخ لزوجتى وحماق ، وهذا هو ما استطعت أن أقرأه فى

عينيهما .. وفي حركاتهما .. وفي مغادرتهما للحجرة في خوف وحذر .
وأقبل على الأخ وقد كست وجهه ابتسامة مصطنعة .. تمامًا كما يقبل المرء على
مجنون يحاول تهديته .. وأخذته على عقله .

وتذكرت ما فعله بي في المرة السابقة .. عندما طلبت منه أن يغيشني من
الشجاعة بجرعة جبن ، وكيف خدعني وغرر بي وأفهمني أنه سيحضر لي كل ما
أطلب ، ثم خرج من الحجرة وأغلق بابها بالمفتاح محاولاً حبسى حتى يبلغ
مستشفى المجاذيب .. وتذكرت أنه لولا شجاعتى التى دفعتنى إلى القفز من
النافذة لكنت الآن نزيل المستشفى .

ولم أشك في أن الأخ المحترم ينوى الآن أن يكرر معى ما حدث في المرة
السابقة ، وأنه سيوافقنى على ما أقول ، ثم يحاول حبسى بعد ذاك . وسيكون
بالطبع أشد حذرًا ، فلا يترك لى فرصة الهرب من النافذة .. وحتى لو ترك لى هذه
الفرصة فما أظننى أستطيع الاستفادة منها .. فما دفعتنى إلى القفز في المرة السابقة
إلا تلك الشجاعة الطارئة التى كانت لى .. أما هذه المرة فلا أظن المروءة
ستجدينى نفعًا في الهرب من الحبس الذى ينوى الأخ أن يضعنى فيه حتى يبلغ
مستشفى المجاذيب .. وعلى ذلك فيجب على أن أكون حذرًا ولا أمكنه من
خداعى .. بل أحاول جهدى أن أفر من الدار بأسرع من لمح البصر .

ووجدت أخى يربت على كتفى برفق ويقول محاولاً التفرير لى :
— لا تغضب منهم .. فهم معذورون .. لا يفهمون معنى للبر أو المروءة ..
إنهم أنانيون لا يقدرّون المعروف . نعم ما فعلت في الرجل وابنه .. إنك إنسان
كامل الخلق .

ووجدته يسحبني من يدي إلى حجرتي . ففهمت ما يقصد . وقلت :
— عن إذنك .. دقيقة واحدة .

وسحبت ذراعى من يده ، واتجهت إلى دورة المياه .. وفتحت باب المطبخ
المؤدى إلى سلم الخدم .. ثم هبطت السلم على أطراف أصابعى حتى وصلت إلى

الحديقة ، والأخ ما زال واقفاً في الحجرة ينتظرني ويدبر خطة حبسى .
ووصلت إلى الباب وخرجت منه متسللاً ، وبعد لحظة احتوانى الطريق مرة
أخرى .. ووجدت نفسى محمراً طليقاً . فاندفعت أعدو بأقصى ما أملك من
سرعة بالطربوش وقميص النوم الباتستا المقور المشغول بالأجور .
اندفعت فى الطريق أسابق الريح .. والريح — ساعها الله — تندفع داخل
القميص فتنفخه وتملؤه بالهواء .. فكأنى أعدو لابساً باراشوت .. والطربوش قد
انكبس على أذنى ، وبدأ العرق ينز من أسفله ، وحماله الشراب قد سقطت فتدلى
الشراب على قدمى وأخذت الحماله تفرع ساق والأرض .. وأنا لا آبه
ولا أتوقف .. فما كنت أفكر إلا فى شىء واحد .. هو الوصول إلى حانوت
الأخلاق .

أجل .. إنى لم أعد أحتمل !!

لقد استجرت من الشجاعة بالمروءة . فكنت كالمستجير من الرمضاء
بالتار .. إذ أصابتنى المروءة بشر مما أصابتنى به الشجاعة .
صدق تاجر الأخلاق فى كل ما قال .. لقد حذرنى من المروءة فلم أزدجر ولم
أرتدع .

اندفعت بين الناس حاملاً مروءى بين جنبى أبحث بينهم عمن يستحق المروءة
فأعيانى البحث .. ووجدت أن النفاق والخداع والغش قد حجب حقيقتهم ..
حتى استحال علتى أن أعرف من يستحق ومن لا يستحق .. وأن الطلاب زائف ،
والمظهر غرار خداع .. إن الشحاذين أصحاب ثراء .. وأصحاب الثراء
شحاذون .. وما من فارق هناك بين مجمع الشحاذين .. ومجمع أصحاب
الملايين .

وعثرت على من يستحق المروءة بين أهل الخداع فى أرض النفاق .. فأعطيته
مما أعطانى الله ، وعدت إلى الدار قرير العين ناعم البال .. منتظراً أن أقابل
بالإعجاب والتقدير . فماذا كان مصيرى ؟!

لقد اتهمت بأنتى خائن أثيم .. ولم ينقذنى من التهمة .. إلا تهمة شر منها هى الخبل والجنون .

لا .. لا .. مالى أنا وللشجاعة والمروءة ؟! مالى أنا ولهذه البلايا والمصائب !! مالى أنا وللبضاعة البائرة .. أجلب بها الشقاء لنفسى ؟! لقد صدق التاجر والله حين قال إنها بضاعة عفى عليها الزمن فلم تعد تلائم أهل هذا الجيل . وتذكرت صاحباً لى شديد الطيبة جم المروءة .. جلسنا معاً ذات مرة فى مجمع من الأصدقاء .. وسمع من أحدهم أنه يحس أحياناً بضيق فى التنفس وزفير متتابع .. وبرودة فى الأطراف ، وأنه عرض نفسه على بضعة أطباء فأعياهم علاجه .. وهنا تطوَّع صاحبى ذو المروءة .. فأنبأ صاحبنا بأنه يعرف قريباً له كان مصاباً بنفس العلة ، وأنه قد شفى منها تماماً بفضل أحد الأدوية ، ثم ذكر له اسم الدواء شكره صاحبنا وأنبأه أنه سيحاول تجربته .

وتفرقنا بعد ذلك وذهب كل منا إلى داره .. ونسى صاحبى ذو المروءة كل ما كان من أمر الرجل المريض .. حتى استيقظ فى منتصف الليل على صوت ضجة بالباب وطرق شديد .. ففتح الباب مدعوراً .. فإذا به يجد اثنين من رجال البوليس ، يسألانه هل هو فلان أفندى ؟ فأجابهما بالإيجاب ، فسحبا من عنقه .. وجراه إلى النيابة .. فإن الرجل المريض .. قد أعانه الدواء الذى وصفه له .. على الموت ، فمات لساعته .

وحمدت الله أن مروءتى لم تزج بى إلى مثل ذلك المأزق . من يدرى ؟! ربما لو طال بى الأمر معها .. لفعلت بى شراً من ذلك . وهنا كنت قد وصلت إلى حانوت الرجل وقد بلغ بى التعب أشده ، فارتيمت على أحد الشوالات وأنا ألثمت من فرط التعب وقد تصيب منى العرق . ونظر إلى الرجل وقد انطرح أمامه كجثة هامدة .. وبدأ عليه أنه لم يميزنى لأول وهلة ، فقد علت أساريره دهشة وأخذ يرمقنى بنظرة فاحصة .. محاولاً أن يعرف حقيقة موضعى بين الجنسين : الحشن واللطيف .. فمارأى من قبل رجلاً

يرتدى قميص نوم بتنته.. وما رأى كذلك امرأة ترتدى طربشا وشرابا بحمالة وتبدو ساقاها عجفاء كساقى .

وأخيرا عرفنى الرجل فزادت دهشته وهتف لى :
— أنت !!

وأجبتة وأنا أخرج من صدرى زفيرا طويلا :
— أجل أنا .

— وماذا جعلك على هذه الحال ؟ وفيم ارتداؤك ذلك الثوب النسائى ؟
— مروءتك يا سيدى .. هى التى فعلت لى كل هذا .
— وكيف ؟ وما دخل المروءة بهذا القميص الذى ترتديه ؟
— لقد أحسنت ببدلتى .. ولم يكن لدى القوم شئ أرتديه بدله .. سوى هذا القميص فارتديته .

— آه .. فهمت .. هذه مروءة من النوع الحاد .. أو ما تسميه حمى المروءة .. ماذا فعلت بك أيضا سوى ذلك ؟

وبدأت أقص كل ما حدث لى منذ تناولت جرعة المروءة ، وكيف وضعت له النقود بين الشوالات — وكانت النقود وما زالت فى موضعها لم يمسهما الرجل — ثم شرحت له مروءتى مع الكلب وكيف عض الأهل واحدا واحدا .. وقصصت له قصتى مع الشحات وما رأيته فى مجمع الشحاذين ، ثم ذهبت إلى محمد أفندى وشرأتى الموز التالف والبيض المشش وذهاب الحمامتين .. ثم إحسانى إليه بالبدلة والعشرين جنيها ، وعودتى إلى الدار بالقميص ، والعاصفة التى استقبلنى بها الأهل .. وما فعله معى أخى .. ثم فرارى منهم وعودتى إليه . وانتهيت من قصتى ووجدت الرجل يهز رأسه ويقول :
— احمد الله .

— علام ؟! وماذا يمكن أن يصيبنى شر من هذا ؟! اللهم إلا إذا كنت تعنى أن احمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه .

— بل احمد الله لأنه لم يصيبك بشر من هذا .. إن للمروءة مصائب شراً بكثير مما أصبت به .. احمد الله على أنك نجوت بجلدك .
— كيف ؟

— كان يمكن مثلاً .. أن تحسن بكل بدلك بدلاً من أن تحسن ببذلة واحدة ..
أم أنت تعتقد أنه ليس هناك من يستحقون الإحسان سوى ذلك الفتى الذى أحسنت إليه ؟ وكان يمكن أيضاً أن تعطى كل مالك للمحتاجين .. حتى تستحق أنت المروءة .. فلا تجد من يحسن إليك .. بل تجد من أحسنت إليهم بمالك قد تنكروا لك .. بل ربما كانوا أكثر الناس تسابقاً إلى إيذائك والنيل منك . هل تعرف المثل القائل : « اتق شر من أحسنت إليه » إنه مثل صحيح مائة فى المائة .. فإن الناس قد انطوا على الخبث والسفالة والدناءة ، فليس أسهل على البشر من نسيان الإحسان .. وإنكار الفضل .. واعتباره بمضى المدة حقاً لهم وواجباً عليك نحوهم لا بد لك من تأديته .. فإذا أرغمتك الظروف على منعه عنهم ملاً نفوسهم السخط عليك والتبرم منك .. واتهموك بأنك ظالم قاس . أجل يا سيدى .. إن شر ما فى النفس البشرية هى أنها تعتاد الفضل من صاحب الفضل ، فلا تعود تحس به فضلاً .. بل تراه أمراً طبيعياً .. ويدفعها ما جلبت عليه من طمع إلى أن تستزيد منه .. وإلى أن تكون أول من تحسد صاحب الفضل على ما أعطاه الله وحباه .

هذه هى مصيبة المروءة .. بذرة طيبة فى أرض جدداء .. تبذر الحب لتحصد الشوك .. وتطعم الفم فيعضك الفم ويمتص منك دماءك التى يستكثرها عليك ويستخسرها فيك !

إن هؤلاء البشر كلاب مسعورة وأفاع رقط .. فإذا دفعتك مروءتك إلى أن تعطهم إحساناً فاقذف به إليهم ثم اجر من أمامهم .. أعطهم الفضل وفر منهم .. لا تنتظر حتى مجرد الشكر .. انج بنفسك . واذكر المثل .. اتق شر من أحسنت إليه .

وصمت الرجل .. وفكرت فيما قال ، فوجدته لم يعد جادة الحق ..
وذكرت ذلك الرجل الطيب الكريم الذى دفعت الظروف فى طريقه بامرأة
خاطلة قد حملت سفاحاً .. فبكت على قدميه وتوسلت إليه أن يعطيها إحساناً
يعينها على الحياة هى وطفلها .. فرق قلب الرجل ، وأعطى المرأة مبلغاً من
المال .. وتعود بعد ذلك أن يحسن إليها كلما لجأت إليه ، وبمر الأيام .. أضحى
الإحسان راتباً شهرياً ، ولم تعد تجد المرأة فيه إحساناً بل حقاً ، واستمر الرجل
يدفع المبلغ عن طيب خاطر .. حتى أصيب بضيق مالى .. ووجد نفسه عاجزاً
عن الاستمرار فى أن يهب للمرأة ما تعود أن يهبه .

وطالبته المرأة بالنقود .. وألحت عليه وأثقلت .. تماماً كأنما تطالب بدين
لها .. ولم يستطع الرجل أن يدفع .. فقد كان هو نفسه فى عسر شديد .

هل تدرون ماذا حدث ؟

هل تدرون ماذا فعلت المرأة التى أنقذها الرجل وابنها من الموت جوعاً ؟ لقد
اشتكت الرجل !! اشتكته أمام المحاكم والقضاء .. زاعمة أن الطفل هو ابن الرجل
منها .. وأنه تعود أن يدفع لها مبلغاً من المال لتربيته ، والتكفل به لكى يعيدها عنه
ويتقى الفضيحة .

وهكذا ردت المرأة جميل الرجل .. تماماً كما تفعل الحية الرقطاء والكلب
المسعور .

قاتل الله المروءة فى أرض الأفاعى ومسعور الكلاب !!
ونظرت إلى تاجر الأخلاق .. ثم نظرت إلى نفسى وأخذت أفكر فيما أنا
فيه .

ترى كيف أستطيع أن أقضى الأيام الباقية بتلك المروءة التى تصطبخب فى
نفسى ؟ لقد فعل فى يوم منها كل هذه المصائب والبلايا التى لا يرى فيها التاجر
إلا أمراً هيناً بالنسبة لما كان يمكن حدوثه .. فما بالكم إذاً بكل الأيام الباقية ؟
وأطرقت فى يأس ولوعة .. وقلت للتاجر فى صوت خفيض :

— ما العمل ؟

— فيم ؟

— فى مصيبتى !! فى المروءة الحامية التى أثقلت بها جوفى .. كيف أستطيع

التخلص منها ؟

وهز الرجل كتفيه وقلب شفتيه وأجاب :

— ليس أمامنا سوى نفس الطريقة .

— أية طريقة ؟

— التى تخلصنا بها من الشجاعة .. خذ جرعة أخرى من أى شوال يعجبك .

الصدق . الوفاء . الشهامة . الصراحة .. انتق من الأخلاق المرصوفة ما

يعجبك .. وخذ منها جرعة تضيع ما بك من مروءة .. وتحل هى محلها .

وهزرت رأسى بشدة :

— لا .. لا .. هذه طريقة غير مجدية . طريقة الاستجارة من الرمضاء

بالنار .. ليس هناك شىء خير من سواه ، ولا نوع أخف من غيره .. كلها ستلقى

بى إلى نفس المصير ، وتودى بى إلى التهلكة .. ما الفائدة فى أن أستبدل بالمروءة

شهامة .. ثم بالشهامة صراحة . لا . لا داعى لأن نضحك على أنفسنا . هذا

حل لا فائدة فيه .

— ليس هناك حل سواه .. هذا هو كل ما عندى .

— فكر يا سيدى .. فكر .. ابحث هنا أو هناك . مالك تسدها فى وجهنا !

— الدكان أمامك .. ابحث كما تشاء !!

— ابحث أنت .. فأنت تعرف خبايا حانوتك .. قد تجد فتات بخل .. أو بقايا

حرص . وجشع . لا بد أن يكون لديك شىء مضاد لهذه المروءة التى ملأت بها

معدنى .. ابحث أرجوك ..

— قلت لك .. لا فائدة .. لا تضع وقتك فى كلام لا يجديك نفعا .

— إذًا فما العمل ؟

وهز الرجل كتفه وأجاب :

— ليس هذا من شأنى ، لقد حذرتك كثيرًا .. فأيت استماع النصيحة ..
يجب أن تتحمل عبء ما فعلت ، وأن تصبر بضعة الأيام الباقية .

— أنا أصبر بضعة الأيام الباقية ؟ أنا أعود مرة أخرى فأنطلق بين الناس بتلك
المروءة الحادة الجنونية ؟ لا .. لا .. لا . إن هذا هو الانتحار .. ولخير لى أن أوفر
على نفسى جهد العودة .. فأقتل نفسى هنا .. أمامك .

ثم رفعت يدي وأحطت بهما عنقى ، وبدأت بالضغط عليه ، وأخذ وجهى
فى الاحمرار شيئاً فشيئاً ، وهنا رأيت الرجل يثب من مكانه فيمسك بذراعى
ويأخذ فى فك يدي من حول عنقى صائحاً بى :

— أيتها الأحمق ماذا تفعل !! أية مصيبة هذه التى تنوى أن تجلبها على .. مالى
أنا بك .. لقد كان يوماً أسود يوم حضرت إلّى .. مادمت تعرف أنك لا قبل لك
على ما تحمل الأخلاق الفاضلة .. ماذا دفعك إلى تناولها ؟ ولكن الذنب ذنبى فقد
كان يجب أن أعرف أنك طفل صغير .

وأخذ الرجل يحدق فى غيظ وحنق .. ومضت فترة صمت قصيرة قطعها
بقولى :

— ماذا تنوى أن تفعل بى ؟

وبدت الحيرة على وجه الرجل وأجاب وهو يهز رأسه :

— وماذا أستطيع أن أفعل .. ابق معى بضعة الأيام الباقية .. حتى يذهب
مفعول المروءة .. هذا كل ما أستطيع فعله من أجلك ، وهو أن أتحمل بقاءك معى
حتى تعود إلى ما كنت عليه من سوء الخلق .

وفكرت قليلاً .. فلم أجد هناك حلاً سوى ذلك .. فليس أمامى سوى أن
أحبس نفسى فى حانوت الرجل حتى ينتهى أجل مروءتى .. فأعود بعد ذلك من
حيث أتيت .

وخيل إلّى أن المسألة لن تكون أمراً سهلاً .. فإن بقائى فى حانوت الرجل قابلاً

بين الشوالات ثمانية أيام لا شك سيقتلنى ملا .. فليس لدى الرجل أن نوع من أنواع التسلية .. لا طاولة .. ولا دومينو ، ولا كشمينة ، ولا حتى نساء .. أتسلى بمغازلتهم وسماع سخافاتهن .. ومع ذلك فقد كان هذا خيراً من انطلاق بين الناس أوزع المروءة ذات اليمين وذات اليسار إذ كان أسلم عاقبة وآمن شراً .

وقلت للرجل من باب الاعتذار :

— ولكنى أخشى أن أثقل عليك .

— عيب لا بد منه .. سأستطيع أن أتحملك .. على ألا تكثر من الثرثرة .

— والأكل ؟

— ماله الأكل .

— هل عندكم طعام يكفينى ؟

— سنقتسم طعامى .. هل عندك أسئلة أخرى ؟

وقبل أن أجيبه .. رأيت فأراً قد قفز من أحد الشوالات فهبط فى حجرى

فوثبت من مكاني فرعاً .. وقذفت الفأر بعنف من حجرى فقد كنت لا أكره

شيئاً كالفيران ، ثم خلعت حدائى وهممت بأن أهجم على الفأر لقتله !!

ولكن الرجل أمسك يدي ، ثم أخذ الحذاء منى وقذف به بعيداً ، ووجدته

يقترّب من الفأر الذى كان يقف فى صمت واستسلام دون أن يحاول الهرب

وحمله فى يديه برفق وأخذ يربت عليه محاولاً طمأنته .

وتملكتنى الدهشة من تلك الصداقة البادية بين الاثنين ، وصحت بالرجل

متسائلاً :

— ما هذا ؟

— فأر .

— أنا أعلم أنه فأر .. ولكن ما حكايته ؟

— فأر .. حمار .. مثلك تماماً !

ورفعت حاجبى فى دهش من هذا السباب الذى يطلقه على الرجل ببساطة

وقلت له :

— أشكرك ..

وهز الرجل رأسه بمعنى « العفو » وعدت أسأله :

— هل لك أن تخبرني كيف كان الفأر .. حمارًا .. وكيف كان مثلي تمامًا ؟

— المسألة بسيطة .. لقد فعل كما فعلت .. ألقى به الظروف السيئة إلى

حانوتي ، وكما فعلت أنت .. أقبل على الشوالات يقرضها بغباوة ويلتهم مما بها ..

ولم تمض بضعة دقائق حتى كان الفأر المسكين .. على خلق عظيم .. أجل . لقد

أضحى فأرًا مثاليًا ، بلا خبث ولا مكر ولا جبن ، ولا سرقة . وجدته يقترب

منى في أدب وشجاعة كأنه يعتذر عما أكله من حانوتي . ثم انصرف بعد ذلك

إلى سبيله .. ولم تمض بضعة أيام .. حتى عاد إلى أمره مرة أخرى .. تمامًا كما

عدت .. هزيلًا نحيلًا .. تمسًا بئسًا .. كيف لا .. وقد أضحى يسير أمام الناس

كأى مخلوق له حرية الظهور والسير ؛ وأخيرًا انتهى به الأمر إلى أنه تعرض

للتهلكة ، ووجد أنه لا يستطيع العيش بهذه الأخلاق .. وأن الفأر .. يجب عليه

أن يكون لصًا .. خبيثًا . جبانًا . وإلا فكيف يعيش ؟ أجل . إن الحياة هي التي

تجبرنا على سوء الخلق .. فإما أن نعيش سيئ الخلق .. وإما أن نموت مثاليين .

وهكذا ضم الحانوت ثلاثتا .. من منكوبى الخلق الطيب .. الذين لا

يجسرون على الظهور في الحياة .

وتناولنا الطعام أنا والرجل والفأر ، خبز جاف وماء قراح .. ووجدت في

ذلك بداية لا تبشر بالخير .. هل أستطيع أن أعيش ثمانية أيام على الخبز الجاف والماء

القراح ؟ لا أظن .

وجلسنا عقب الطعام نسمر بالحديث ، وأخذ الرجل يشرح لى محتويات

حانوته بالتفصيل .. ويرينى إياها شوالًا شوالًا .. حتى انتهينا منها جميعًا .. عدا

كيس صغير قد أحكم غلقه جيدًا .. فأشرت إليه متسائلًا :

— وما هذا ؟

وتردد الرجل برهة قبل أن يجيب ، ثم قال أخيرًا :

— هذا هو خلاصة كل ما بالخانوت .. هذا هو مسحوق الأخلاق المركز ..
إن بضع ذرات منه كافية لأن تجعل الإنسان على أحسن خلق مدى الحياة ، أما ما
بالكيس فهو يكفى لو صب في نهر لأن يجعل البشر كلهم على خير خلق .. يكفى
لإبادة ما في الأرض من نفاق ، وغش ، وخداع ، ورياء ، وجبن ، ولؤم ،
ودناءة ، وسفالة .. يكفى لأن يجعل أرضنا أرضًا نموذجية .. إن ما به روح
« الأخلاق » .

وفكرت برهة فيما قال الرجل ، فخطر لى خاطر عجيب .. إن الأخلاق
الطيبة لا تنفع رجلا يعيش وسط أناس كلهم من ذوى الأخلاق الرديئة .. فهي
تجعل الإنسان كالعاقل وسط المجانين ، يبدو كأنه هو المجنون .. والباقي عقلاء .
إن ما أصابني من ضرر عندما تناولت جرعة الشجاعة والمروءة .. حدث لأنى
كنت إنسانًا شاذًا .. كنت شجاعًا بين الجبناء .. وكريمًا بين البخلاء .. وطيبًا
بين السفلة الأشقياء .

ولكن هب أننى قد ألقيت ما بالكيس في النهر .. ماذا يمكن أن يحدث ؟ كلهم
سيصبحون .. كرماء شجعانًا أفاضل أتقياء .. وستصبح الدنيا مثالية .
ولم أشك في أن الرجل لن يقبل منى أن آخذ الكيس لألقى به في النهر ، وأنه
لن يستطيع أن يتحمل مسئولية ذلك العمل .. فعزمت أن أنتهز منه فرصة
فأسرقه ، ثم أنطلق إلى النهر فأصبه فيه وأغير ما بالناس من سوء وشر .. وأجعل
أرض النفاق .. بلا نفاق .

(١٢)

في جنازة

لا تقبل النعمة الطارئة قط .. لا تفرح بالكثير المنقطع ،
فسيجعلك تكفر بالقليل الدائم .. الذى وطنت نفسك على قبوله
والرضا به .. إذا كنت تسير على قدميك فأياك أن تتركب برهة ،
وإلا ذاقك قدماءك نعمة الركوب والراحة وكرهت السير الذى طالما
اعتدته .

وهكذا عقدت النية على أن أسرق من الرجل الكيس الذى وضع فيه خلاصة
الأخلاق .. أو على حد قوله .. روح الأخلاق .. وأن أتسلل من الحانوت ،
وأسكبه فى النهر فأغير بذلك وجه الكون ، وأبدل طباع الناس ، وأذهب
بشروهم .. وأبدل خبثهم طيبة .. وجبنهم شجاعة .. وبخلهم كرمًا ..
وخيانتهم وفاء .. ونفاقهم ورياءهم وغشهم ، صراحة وصدقًا وأمانة .
أجل .. هذه المرة لن أكون وحدى المصاب بالخلق الطيب . ولن أكون عاقلا
وسط مجانين ، بل سأصيبهم أجمعين ، لن يسلم منهم أحد .. ولن يفر إنسان ..
ولن تصبح أرضهم بعد ذلك أرض النفاق .
وأمسكت بالكيس أقبله فى يدي .. ثم أعدته مكانه بين الأكياس وعدت إلى
مجلسى بجوار الرجل .

وسرت الظلمة فى الحانوت شيئا فشيئا فأوقد الرجل مصباحا من الصفيح بدد به
الظلمة ، ثم افترش أحد الأكياس الفارغة فى ركن من الأركان وورق عليه قائلا :

إلى أستطيع أن آخذ كيسًا آخر فأقرشه لأرقد عليه بحيث أشاء .
ولم تكن لى رغبة فى الرقاد .. ولكنى كنت لا أريد أن أطيل الحديث مع
الرجل حتى ينام بسرعة فأسرق الكيس وأفر من الخانوت .
وأمسكت بأحد الشوالات الفارغة وفرشته على الأرض بجوار الرجل
واستلقيت عليه متظاهرا بالنوم .. وسمعت الرجل يقول لى وهو يتشاءب :
— لست أدرى ماذا يمكن أن يحدث للناس لو ألقينا بذلك الكيس الذى حوى
روح الأخلاق فى النهر ؟! وماذا يمكن أن يحدث للأرض لو خلت من النفاق ؟!
وخيل لى أن الرجل قد قرأ ما مر بذهنى ، وأنه يريد أن يستدرجنى فقلت له
بتحفظ :

— من يدرى ؟

وصمت الرجل برهة ثم استطرد قائلا :

— هل تعلم أننى كثيرا ما تنتابنى نوبات ضيق وتيرم .. أهم فيها بأن ألقى بما
فى الكيس فى النهر ؟

ونظرت إليه بطرف عيني نظرة فاحصة على أستبين ما يرمى إليه الرجل بقوله
هذا .

وأخيرا قلت له :

— وما يمنعك أن تفعل ؟

وبدا لى كأن هذا السؤال هو ما يترقبه .. وأنه لم يقل ما قال إلا ليستدرجنى
إلى سؤاله حتى يحذرنى من مغبة ما أوشك أن أفعله ، ويشرح لى .. ماذا يمكن أن
يصيب أرض النفاق ، لو خلت من النفاق :

— تقول ماذا يمنعنى أن ألقى بالكيس فى النهر ؟؟ بقية شفقة بالناس وعطف
عليهم .. وخوف مما يمكن أن يصيبهم لو عريت نفوسهم من طلاء النفاق .. إنى
أخشى أن يموتوا فرغا .. لو أبصروا حقيقة نفوسهم وقد خلت من بريق النفاق
الزائف وستار الغش المزركش المنمق . إنى أخشى لو اطلعوا على سوء مخبرهم

لولوا من نفوسهم فرارًا وملئوا منها رعبًا .. ما أعظم النفاق يا صاحبي وأجزل فوائده ! إنه يستر عورات الحياة ويزخرف خبايئها .. إن النفاق يعين الناس على تحمل ويلاتها .. إنه يريهم ترابها تيرًا ، وشرها خيرًا ، ويغمض أعينهم عن خطاياهم وشرورهم .. ولولاه لانكشفت الحقيقة فانتحر الناس جزعًا .

وصمت الرجل وأردف متسائلًا :

— ما رأيك ؟

— رأيي أنك لم تعد جادة الحق في كل ما قلت ، ولكني أجد بك كثير شبه بالنعامة التي تخفى رأسها في الرمال حتى لا تواجه الحقائق فترى ما تكره .. لقد قلت إن النفاق يستر عورات الحياة ويزخرف خبايئها .. فهل معنى ذلك أن الخباث قد امنت والعورات قد زالت .

— وما الفارق بين أن تستر وبين أن تمحى ؟

— فرق شاسع .

— لا أظن .. إن الإنسان صنعة الأوهام .. إنه يعيش على الأوهام وبالأوهام ، سعادته وهم ، وشقاؤه وهم ، وفرحه وهم ، وحزنه وهم .. هو لا يهجه أن يتعدى الشر بقدر ما يهجه ألا يرى الشر .. إنه يفضل أن يخدع مائة مرة على أن يعلم أنه خدع مرة واحدة .. ولا أظن هناك فارقًا كبيرًا عنده بين أن تزول خباثت الحياة .. أو تستر عنه .

— لا . لا . إن مقاومة الخباثت ليست بحجبا وسترها بل بمواجهتها وإزالتها .. خير للإنسان أن يرى عوراته ونقائصه حتى يعرف قدر نفسه ويقوم فيها ما اعوج ويصلح ما فسد .. إنك تخشى أن تنكشف له حقيقة وحقيقة الحياة فينتحر جزعًا ويأسًا .. ولكني أؤكد لك أن شيئًا مما تخشاه لن يحدث .. إنه سيعجز ويفزع ، ولكنه لن يئس ولن ينتحر .. إن مشاعره محدودة الطاقة .. إنه يحزن إلى حد محدود .. ويفرح إلى درجة معينة ، فلا يمكن أن يتناسب حزنه وفرحه مع مسببات ذلك الحزن أو الفرح ، أعنى أنه لا يمكن أن يتزايد حزنه كلما

زادت مسببات الحزن .. بل لا بد لحزنه أن يقف عند حد لا يتجاوزه مهما زادت مسببات الحزن ، وإلا لمات معظم الناس حزناً أو قضوا فرحاً .

إنى أعرف امرأة كانت تتركب هي وأولادها وزوجها عربية وكانوا عائدين إلى القاهرة من الطريق الزراعى فى جوف الليل فانقلبت بهم العربية فى إحدى الترع وغرق الزوج وأولاده ، ونجت المرأة بعد أن رأت بعينها مصرع كل من لها فى الحياة .. وبلغنى النبأ فقلت مسكينة كيف سيمكنها أن تعيش بعد ذلك ؟ وتوقعت لها إما أن تجن أو تموت حزناً . ثم مرت الأيام وسألت عنها ذات مرة فقليل لى إنها على وشك الزواج ؟ تصوّر يا سيدى .. المرأة التى كنت أخشى عليها من الموت حزناً .. لم تمت ولم تجن .. بل هى توشك أن تزف ؟!

والى لا أنتقدها ، ولكنى أستدل بها على طبيعة الإنسان وعلى أن حزنه محدود ، فالذى يفقد ثلاثة أولاد لا أظنه يحزن ثلاثة أضعاف الذى يفقد ولداً ، والذى يربح ألف جنيه لا تظنه يفرح عشرة أمثال من يربح مائة .. إنها رحمة من الله أن جعله يحزن بقدر .. وأن جعل مشاعره — كما قلت لك — محدودة الطاقة ، وإلا قضت عليه .. فانتحر كما تزعم حزناً ويأساً أو مات فرحاً وهناء .. وعلى ذلك يا سيدى أستطيع أن أجزم لك أن انكشاف الحقيقة لن يقضى عليه بل سيفزعه ويروعه .. ثم يفيق من الصدمة .. ويتألك نفسه ويبدأ فى مواجهة الحقائق الموجهة محاولاً جهده أن يصلح أمره وأن يزيل خبائثه ونقائصه ويجعل من نفسه ومن دنياه خيراً مما هو عليه .

وصمت ، ونظرت إلى الرجل ، لأرى وقع حديثى فى نفسه .. ومرت فترة سكون دون أن يتكلم الرجل .. حتى خيل لى أنه قد استغرق فى النوم ، وسألتى ألا أسمع رأيه فيما قلت .

وفجأة .. رأيت الرجل قد وثب من مكانه .. وقال لى رأيه فيما قلت بطريقة عملية وبدون أن ينيس بينت شفة .. وذلك بأن اتجه إلى الرف الذى وضع عليه كيس الخلاصة .. خلاصة الأخلاق ، فأمسك به ، ثم عاد فرقد حيث كان ،

واضعًا الكيس تحت رأسه .

يالى من غر أحمق .. لقد استدرجنى الرجل حتى أفضيت إليه بدخيلة نفسى وأبنت له أنى أستصوب أن يزول النفاق من الدنيا ، وأن تضحي الأرض بلا نفاق .. وأريته أنى لا أرى خطورة فى إلقاء الكيس فى النهر .. على النقيض أرى فى ذلك فائدة كبرى .. وبذلك أيقظت شكوك الرجل ووساوسه ، وجعلته يقطع على كل محاولة لسرقة الكيس ، ويزيل من نفسى كل أمل فى إنقاذ الأرض من النفاق وسوء الخلق .

وأغمض الرجل عينيه وسمعته يتمتم قائلاً :

— إن فى رأيك يا بنى كثيرًا من صواب ، ولكنه رأى شائك خطر ، وأخشى أن تدفعك حماقتك وطيشك إلى محاولة تنفيذه .. فتحدث بذلك فى الأرض ضجة كبرى وانقلابًا خطيرًا ، يعلم الله كيف يمكن أن ينتهى ، وأى مصير يمكن أن تسوق إليه الناس وتسوق إليه نفسك وتسوقنى معك . فلست أشك أنه لو اكتشف أمرك .. فسيكون عقابك شديدًا ، وسيشملنى العقاب لتعاونى معك . — ولكن أى عقاب هذا الذى تخشى أن يعاقبونا به ؟ وما هى التهمة التى

يمكن أن يوجهوها إلينا ؟

— التهمة التى يمكن أن يوجهوها لى ، هى تهمة إحراز أشياء ممنوعة أو الاتجار فى المخدرات ، فالأخلاق الطيبة فى هذا الزمن قد أضحت تمامًا كالممنوعات والمخدرات .. أما التهمة التى يمكن أن يوجهوها إليك فمن يدرى ؟ وربما اتهمت بالقتل مع سبق الإصرار فقد يعتبرون تلويث النهر بالأخلاق الطيبة كتلويثه بميكروبات الأمراض الخطيرة .

— ولكننا سنحاول أن نشرح للحكام حسن نيتنا وسلامة مقصدنا .

— أيها الغبى .. إن الحكام سيكونون أشد الناس غضبًا علينا ، فهم أكثر الناس انتفاعًا بالنفاق .. فما ستر زيفهم سواه .. وما حجب خداعهم غيره .. إن بطشهم بنا سيكون شديدًا .. فإننا سنحرمهم من خير بضاعتهم ، البضاعة التى (أرض النفاق)

استطاعوا بفضلها أن يكونوا حكامًا . هل يمكن أن تتصور حكامًا بلا نفاق ؟ هل يمكن أن تتصور رأيهم عند ذاك في الرعية ، ورأى الرعية فيهم ؟ لا .. لا .. يجب أن نكون أكثر عقلًا وحكمة !!
وساد الصمت فترة ، ثم أردف الرجل متسائلًا :

— هل اقتنعت ؟

ولم أجد هناك معنى للمناقشة ، بل وجدت من الخير أن أفهمه أنى اقتنعت برأيه . حتى يكون أقل حرصًا على الكيس فأستطيع سرقة ، وقلت له مجيبًا :
— أجل اقتنعت .. أسعد الله مساك .

وأجاب الرجل تيمّني وتظاهرت بالاستغراق في النوم . وبعد برهة سمعت شخير الرجل ، وأخذت أتقلب على جنبي في حيرة وقلق ، وقد شردي في الذهن .. واستبد لي التفكير دون أن أستقر على رأى .
ماذا أفعل ؟

هذه فرصة عجيبة لا أظنها قد أتيت لإنسان من قبل .. فرصة لو أقدمت على انتهازها لأحدثت في البشر تطورًا لا يستطيع أحد مجرد تصوره ، ولغيرت بها وجه التاريخ .
ولكن من يدري ؟ .. ربما كان تطورًا إلى أسوأ ، وربما أنكب البشر بفعلي هذه .

ثم إن هناك أمرًا آخر ، وهو أنى سأرتكب السرقة وأخون من الثمننى وآوئى .. وحتى لو استقرى الأمر على انتهاز الفرصة ! فكيف سأستطيع سرقة الكيس .. والرجل قد وضعه تحت رأسه ؟

وهكذا استبد لي التردد والحيرة .. حتى هاجمنى النوم فاستسلمت له .
وقبيل الفجر فتحت عيني على صوت همهمة وتمتمة ودققت النظر فيما حولى ، فوجدت الرجل منهمكًا في الصلاة .. وبدلى الكيس ملقى على الأرض في تناول يدى !!

ومددت يدي في سكون فأمسكت بالكيس وسحبته ببطء إلى جوارى .
من يصدق هذا ؟ إن الكيس قد أضحى في يدي وأنا أستطيع في غمضة عين
أن أقفز من مكاني إلى خارج الحانوت ثم أفر بالكيس وألقى به في النهر .
وأخذت أتقلب على جنبي .. متظاهراً بالنوم ، مخفياً الكيس في ثيابي ، حتى
اقتربت من باب الحانوت وانتهزت فرصة سجود الرجل ثم انطلقت هارباً أسابق
الريح .

وهكذا وجدتني مرة أخرى أنطلق بقميص النوم النسائي .. ولكنني كنت في
هذه المرة عارى القدمين ، وأخذت أخوض وسط المزارع التي على جانبي
الطريق الذي قام عليه حانوت الرجل ، وأحسست بوقع أقدام تبغني ، فالتفت
خلفي فإذا بالرجل يعدو ورائي مبهور الأنفاس ، فأمنت في العدو محاولاً تضليله
والفرار منه .

ووصلت أخيراً إلى شاطئ النيل والرجل في أثرى ، وانحدرت على الساحل
الطيني المنحدر حتى وقفت على حافة الماء .

وتوقفت برهة أحاول فك الرباط الذي ربط به الكيس كي أفرغ ما به في
الماء .. ووجدت الرباط محكمًا ، وأخذت أبحث حولي عن شيء أثقب به الكيس
أو أقطع الرباط .. وفجأة أحسست بالرجل قد هبط عليّ وأحاطني بذراعيه .
وبدأت المعركة بيني وبين الرجل . هو يحاول أن يأخذ مني الكيس ، وأنا
أحاول الفرار منه .. وطالت بيننا المعركة فقد كان الرجل على كهولته .. صلب
العود قوى العضل .. من النوع الذي نسميه « عرق » .

وأخذ الرجل ينصحني بأن « أعقل » وأن أكف عن هذا الحمق الذي أحاول
أن أفعله ، وأخذت أنا أجاهد محاولاً التخلص منه .. عندما أحسست فجأة بأن
الكيس قد أفلت من يدي وسقط في الماء .

واستمر العراك بيننا برهة .. دون أن يحس الرجل بسقوط الكيس في الماء ..
حتى تنبه إلى ذلك أخيراً فتركني وهبط في الماء وأخذ يخوض فيه بقدميه محاولاً

الإمساك بالكيس الذي أبعده التيار بعض الشيء .
وأخيرًا أمسك الرجل بالكيس ، ولكنه كان كيسًا فارغًا .. فقد نفذ
المقدور .. وذاب كل ما فيه في الماء .

وخرج الرجل والماء يقطر من ثيابه وقد أمسك بالكيس الفارغ في يده ،
وبدت على وجهه علامات من أبصر أمرًا خطيرًا وحادثًا جلا .

ونظر إليّ في حنق شديد وهز رأسه قائلاً :

— أيها الأحمق ! ماذا أفدت من تلك الفعلة الشنعاء التي ليس لها من علاج ؟!
كيف نستطيع أن نعيد إلى الأرض نفاقها بعد أن أضعت النفاق ؟

وصمت برهة ثم أردف قائلاً .. كمن يحاول أن يزج عبثًا أثقل كاهله :

— أنا لست مسئولاً .. لقد حاولت جهدي أن أمنعك ولكني لم أستطع ..

سأذكر لهم أنك السبب في كل ما يمكن أن يحدث !!

— خير لك ألا تذكر لهم شيئاً .. فستؤدي بنفسك إلى التهلكة .. لأنك أنت

السبب لا أنا .

— أنا السبب ؟. أيها الكذاب المفترى !

— أجل .. أنت السبب .. فإن البضاعة بضاعتك ، وأنت تاجر الأخلاق

المحرّمة الممنوعة ، وكذلك أنت السبب في إلقاءها في النهر .. فلولا عراكك معي
ومحاولتي التخلص منك لما سقط الكيس في النهر .

واصفر وجه الرجل وبدأ على وجهه خوف شديد مما جعلني أرتئي له .. فأقول
ملاطفًا :

— على أية حال .. إنني لا أجدي المسألة أية خطورة .. وأؤكد لك أنني أستطيع

أن أحمل عبئها وحدي .. هيا بنا واطرد عنك هذا الخوف .. وليحدث ما
يحدث .

وسحبته من يده وتركنا الشاطئ عائدين إلى الحانوت .

ووصلنا إلى الحانوت ، وقد بدأ الصبح يثخنس وأرسلت الشمس مقدماتها من

النور دون أن تبدو من المشرق .. ووقف الرجل وسط الحانوت .. وقد بدت عليه علامات الحيرة والقلق والخوف . فأخذت أسرى عن نفسه .. مخففاً عنه وقع ما يتصور حدوثه بين الناس إذا سرت في أجسادهم المياه الجديدة الخالية من النفاق ، وغيره من الأخلاق الرديئة .

وسألنى الرجل :

— وماذا ستعمل الآن ؟

— لا شيء .. تجلس أنت في حانوتك وأنطلق أنا لأرى أثر المياه الجديدة في الناس .. وأشاهد التطورات التي ستحدثها فيهم ، ثم آتيك بالنتيجة أولاً بأول . وأخذ الرجل يفكر برهة ، ثم قال :

— وماذا يجدينى أن أجلس في الحانوت .. لِمَ لا أصطحبك حتى أشاهد العالم الجديد .. وأبصر الناس الجدد ، وأرى أرض النفاق .. وقد تبدد منها النفاق . — ولكن كيف تغلق حانوتك .. وبضاعتك على وشك أن تلقى رواجاً بين أهل الأرض .. ألا ترى معنى أن التطور الذى ستحدثه المياه الجديدة فيهم سيجعلهم يقبلون على بضاعتك ويتلففون عليها .. وأنهم سيندفعون إليك ليزيدوا خلقهم طيبة فوق طيبة .. ويستزيدوا من الشجاعة والروعة والوفاء والإخلاص كيف تغلق حانوتك .. وأنت مقبل على موسم ؟

— لا أظنهم سيقبلون على مثل هذه السرعة .. لا بد أن نتظر حتى ينتهى رد الفعل .. وحتى تنتهى المآسى والكوارث التى ستصيبهم بها الأخلاق الطيبة .. لا تظن أنهم سيقبلونها بالرضا والسرور .. لا بد لهم من وقت طويل .. حتى يستطيعوا استساغتها والتعود عليها .. إنها ستبدو لهم فى أول الأمر .. شيئاً مزعجاً .. ومريضاً خطيراً .. أصيب به مجتمعهم .. سيرون شجاعتهم تهورا .. ومروءتهم إسرافاً .. وصراحتهم وصدقهم حقاً وبلها .. وسيظنون ما بهم الجنون المطبق .. ويحاولون التخلص منه والثورة عليه .. فإما أن يفلحوا .. وتتغلب سفالتهم المتأصلة وسوء خلقهم المستحكم ، على الطيبة الطارئة وحسن الخلق

المستجد ، ويعودون بذلك إلى ما كانوا عليه .. بل شرًا مما كانوا عليه ، وإما أن تتغلب عليهم الطيبة وجمال الخلق .. فتطرد السفالة من نفوسهم نهائيًا .. ويتعودوا على أن يكونوا شجعانًا كرماء مخلصين أوفياء ، ويروا في كل ذلك أمرًا طبيعيًا .. ويحسوا أن نفوسهم كانت مريضة فبرئت من دائها ، ويحمدوا الله أن منّ عليهم بما طال حرمانهم منه .. ألا وهو الخلق الطيب .

وعلى ذلك ، فإنى أرى من الخير أن أغلق الحانوت وأنطلق معك لأشاهد الناس خلال تلك الفترة التى سيحدث فيها الصراع .. بين الخير والشر والحق والباطل .. والطيبة والسوء .. فإن انتصرت الطيبة عدت إلى الحانوت ففتحته على مصراعيه .. وإن انتصر السوء .. فيعلم الله ماذا يمكن أن يكون مصيرى ومصيرك !

وهكذا استقر رأى على أن يغلق الرجل حانوته وينطلق معى .. وبدأت أعاونه على إدخال الشوالات المرصوفة فى مواجهة الحانوت إلى داخله .. ثم أغلقنا باب الحانوت .. وهمنا بالسير عندما رأيت الرجل قد توقف فجأة وصاح :

— يالى من أحمق مأفون .. لقد كدت أنسى شولح .

— شولح ١٢

ولكن الرجل لم يجب على تساؤلى ، بل أقبل على الحانوت يفتحه مرة أخرى .. ولم يكده يفتح الباب حتى هبط الفأر من فوق أحد الأكياس ، فتناوله الرجل وربت عليه برفق .. ثم وضعه فى جيبه فى رفق قائلاً :

— لا تخش شيئاً يا شولح .. إن صاحبك الأحمق قد وضع كيس الأخلاق فى

النهر .. ولن تمضى برهة .. حتى يصيب الناس كلهم ما أصابك من خلق عظيم .. وحينئذ تستطيع أن تتطلق بينهم دون أن تخشى شيئاً .

وسرنا ثلاثتنا .. أنا بالقميص إياه .. وصاحبى بجلبابه ومركوبه وعمامته . و

« شولح » قابع فى جيبه فى هدوء وسكينة .

ورغم أن رأى فى قيمة الملابس لم يتغير بعد .. ورغم أنى كنت لا أهتم كثيراً بأن أبدل ثيائى .. إلا أنى وجدت أن القميص الذى أرتديه سيلفت إلى الأنظار .. وأنه سيسبب لى من المشكلات والارتباكات ما أنا فى غنى عنه ، وعلى ذلك فقد استقر بى الرأى على أن أتسلل إلى البيت فأبدل ثيائى .

ووصلت إلى البيت والشمس تكاد تطل برأسها من أسفل الأفق .. وبدأ لى أن الأهل لم يستيقظوا بعد .. فطلبت من صاحبى (الذى لم أكن قد عرفت اسمه حتى وقتذاك .. وإن كنت قد بدأت أناديه بأنى شولخ) أن ينتظرنى أمام الباب ، وأخذت أسترق الخطأ إلى سلم الخدم . حتى وصلت إلى باب المطبخ فوجدته لحسن الحظ مفتوحاً ، إذ هبطت الخادمة منه لتسرق بعض ثمار الجوافة من الحديقة قبل أن يستيقظ الأهل .

وتسللت إلى حجرتى .. وارتديت ملابسى على عجل ، ووضعت ما تبقى من نقود التصنيف (التى ما زالت فى موضعها فى الدولاب) فى المحفظة ، ثم هبطت إلى صاحبى ، وتأبطت ذراعه ، وسرنا فى الطريق .

كنت أحس بالجوع ينهش أحشائى .. عقب العيش الحاف والماء القراح الذى أنعم به الرجل على فى عشاء الأمس ، فاتجهت رأساً إلى مطعم قريب للفول والطعمية . وذهبت إلى المطعم .. واتخذنا مجلساً حول إحدى المناضد الرخامية ذات الأرجل الحديدية .. وطلبت من الرجل اثنين فول واثنين طعمية واثنين سلطنة طحينة .

وأحضر الصبى ما طلبت ، وقلت لأنى شولخ :
— باسم الله تفضل .

وتفضل الرجل .. ولكن تفضله لم يكن كاملاً .. فإنه لم يتفضل إلا بأكل الرغيف حاف وشرب كوب الماء ، ولم ينس أن يرمى بعض الفتات إلى « شولخ » القابع فى جيبه .

وأدهشنى إصرار الرجل على أكل العيش الحاف وأفهمته أن الفول « زى

الزبدة « وأن الطعمية مدهشة .. فوجدته يهز رأسه موافقاً ويقول :

— ولهذا لم آكل منها .

— ولم ؟ .

— حتى لا أعود فأبطر على العيش الخاف .. لقد تعودت أن أعيش على العيش الخاف .. وأصبحت أجد فيه كفايتي .. فلم أفسد نفسي بإعطائها نعمة طارئة ؟ .. سيصينى فقدتها بألم أكثر من المتعة التى أصبتها من الحصول عليها . خذها منى نصيحة يا صاحبى .. لا تقبل النعمة الطارئة قط .. لا تفرح بالكثير المنقطع .. فسيجعلك تكفر بالقليل الدائم الذى وطنت نفسك على قبوله والرضا به .. إذا كنت تسير على قدميك فأياك أن تركب برهة .. وإلا ذاقك قدماك نعمة الركوب والراحة ، وكرهت السير الذى طالما اعتدته .. إن الإنسان يظل قانعاً بما وهبه الله له .. مهما قل .. راضياً سعيداً بما منحه إياه .. مهما ضؤل وحقر .. حتى يذوق ما فى يد غيره .. ويمس بما أنعم الله به على سواه .. فإذا به قد كفر وبطر وأحس بالشقاء والتعاسة .. أجل يا صاحبى .. إن مبعث شقائنا فى الحياة هو المقارنة بين النعم .. هل علمت لِمَ لا آكل الفول والطعمية .. حتى لا أكتشف مرارة العيش الخاف ؟!

ورأيت فى قول الرجل حكمة بالغة .. وذكرت أن كل إنسان فى هذه الحياة يحس بالشقاء والحerman .. لأنه ينظر إلى أعلى ، كلنا ننظر إلى أعلى فنحس أننا فى أسفل ، ولو علمنا أنفسنا أن ننظر دائماً إلى من هم أسفل لحمدنا الله على العلو الذى وضعنا فيه .

وانتهينا من الطعام ، وتركنا المطعم ، واقترب منى أحد باعة الجرائد منادياً بأعلى صوته على جرائد الصباح فابتعت منه « الأهرام » وأخذت ألقبه بين يدي وأنا أسير بجوار الرجل على رصيف الشارع .

ووقع بصرى على صفحة الوفيات فألقيت عليها نظرة عابرة ، ولكن بصرى علق بركن فيها قد كتب فيه اسم أعرفه خير المعرفة .

وبدأت أقرأ محققاً .. لعل هناك خطأ في الاسم ، ولكنى عندما انتهيت من قراءة النعى .. تأكدت أنه هو « إبراهيم أفندى عبد المتعال » ، رئيس القلم الذى أعمل به .. وتملكنى دهش وحزن وأسف .. رغم كل ما سبق أن وصفت به الرجل .. من أنه جبان تافه حمار .. ورغم أن آخر علاقتى به كانت معركة حامية بفضل جرعة الشجاعة .

لقد حزنت على الرجل .. فقد كان طيباً .. ابن حلال رغم ما به من سيئات ، وكان ممتلئاً صحة وعافية .. رغم إدمانه الشرب ، ولم يكن الرجل قد بلغ بعد من الكِبَر عتياً .. بل إنه يعتبر فى منتصف أو فى ثلثى العمر . وتوقفت برهة .. وقد بدت على مظاهر الحزن ، ورفعت منديل أكفكف به دمعة قرّت من عيني .. وبهت صاحبى وسألنى :

— ما بك ؟

وأنبأته بالخبر .. وقلت له : إني لا بد أن أذهب للعزاء وأشارك فى تشييع الجنازة .. التى ستبدأ من دار الفقيد فى الساعة العاشرة .

وسألنى الرجل عما إذا كان هناك ما يمنع من اصطحابى إياه .. فنظرت إليه فاحصاً ، وأجبته :

— أبداً .. إن العزاء والجنازات هى الشئ الوحيد فى هذا البلد ، الذى يستطيع أن يشترك فيه الإنسان دون أن يمنعه أحد .

ونظرت إلى جيب الرجل .. وقد رأيت الفأر يتلاعب فيه .. وأردفت قائلاً :

— ولكن ...

— ولكن ماذا ؟ .

— شولخ .

— ماله شولخ ؟ .

— أخشى أن يخرج من جيبيك .. فيقفز على المعزين والمشييعين ويحدث فى

الجنائز مهزلة كبرى .

— عيب لا تهم شولح بهذا العبث .. هل نسيت كل ما أكله من شوات
الأخلاق .. إنه لم يترك شوالا إلا وقرضه .. إنه فأر جد يكره العبث .
وهكذا اتفقنا على أن أصطحب الزميلين العزيزين : شولح ، وأبو شولح ..
ليشيعا الجنائز ويقوما بواجب العزاء .

وكان اليوم .. يوم الجمعة ، والساعة قد بلغت الثامنة والنصف ، وما زال
أماننا ما يقرب من الساعة حتى يحين وقت ذهابنا للعزاء .
وكان بيت المرحوم يقع في حى المنيرة ، وكانت الساعة تكفى لوصولنا إلى
هناك .

وركبت الترام وصاحبى .. وأخذنا نفحص الناس جيّداً منصتين إلى
أقوالهم ، مراقبين بدقة كل ما يفعلونه كما يفحص الطبيب مريضاً حقنه بمخدر
ليرى مفعول المخدر فيه .

ولم نر فى الناس شيئاً غير عادى .. فقد كانوا كما تعودنا أن نراهم دائماً ..
الكمسارى .. هو الكمسارى .. بقلّة أدبه ووقاحته مع الفقراء والضعفاء ..
وجبنه وتواضعه أمام المفتش والأقوياء وذوى الجاه من الركاب .. نفس
السفالة .. ونفس النفاق .. والسائق هو السائق .. يقف بالترام بعنف فيقع
الركاب فوق بعضهم .. ويتحرك بالترام قبل أن يركبوا .. ويسب الدين لأنفه
الأسباب .. والصبية كما تعودت أن أبصرهم يقفزون من يسار الترام .. والباعة
والشحاذون يهاجمونك بلا رحمة ولا شفقة .. وكل شيء كما هو .. لم يطرأ عليه
أى تغير أو تبدل .

ونظرت إلى صاحبى متسائلاً :

— إن مفعول الماء لم يظهر بعد .. إنهم ما زالوا كما هم .

— صبراً .. فلا بد أن يمضى وقت .. حتى يظهر التأثير وحتى يسرى مفعول
الكيس من النهر إلى مواسير المياه ، إلى الصنابير ، إلى أجواف الناس .. هؤلاء

الذين تبصرهم لا شك لم يغيرو ريقهم بعد .
وأخذ الترام يتهاذى بنا .. حتى وصل إلى العتبة .. فاستبدلنا به تراماً آخر
يحملنا إلى شارع قصر العيني ، وهناك نزلنا عند محطة المنيرة .
وقصدنا إلى الشارع الذى يقع فيه بيت الفقيد الراحل .
ولم يصعب علينا الاستدلال على البيت .. فقد قادنا إليه الصراخ الذى انبعث
من حناجر النساء .. والسرايق الذى شيد أمام الدار .
وبدا لى أننا قد حضرنا مبكرين بعض الشيء .. فقد رأيت السرايق خالياً ،
والفراشين لم ينتهوا بعد من إقامة السرايق .. فما زال أحدهم يتسلى قمته ..
ويربط أحد العمد بمجل فى يده .. وما زال خدم السرايق بالفانلات والسراويل
لم يرتدوا بعد الملابس المزركشة الفضفاضة المطرزة بالقصب ، والثلاجة وسلاح
القهوة والفناجين قد وصلت فى التو وأخذوا فى إنزالها من عربة الفرّاش .
ووجدت بعض أهل الفقيد قد تكأكأوا فى باب الدار وهم يتهايمسون
ويتشاورون وقد وقف بينهم رجل بقفطان وعمامة لم أشك فى أنه الخانوى .. فقد
بدت عليه سيماء الحزن أكثر من أهل الفقيد ، ولحت بجواره رجلاً تعهدت أن
أراه دائماً فى الجنازات .. يسير فى بعض الأحيان وراء النعش وفى البعض الآخر
أمامه مع حملة المجامر .. ولم أشك فى أن الرجل متعهد جنازات .. يقوم بتوريد
حملة المجامر والموسيقىات والمشيعين والندابات وكل ما يلزم لشئون الجنازات .
ودخلنا السرايق ، وجلست وصاحبى فى أحد الأركان وقد كسونا وجهينا
مظاهر حزن شديد ، وأخذنا نتهامس ، ومن حين لآخر يقطع تهامسنا الصوات
المنطلق من الدار .. والولولة والنهنة .
وسألنى صاحبى هامساً :
— كيف كان المرحوم ؟
— كان يا سيدى من خير الرجال .. وأكرمهم خلقاً ، وأرجحهم عقلاً
وأشدّهم شجاعة .

واندفعت بلا مناسبة الصق بالفقيد كل ما يخطر ببال من جميل الصفات ، وبدأ المعزون يتوافدون الواحد بعد الآخر ، وأنا أرمقهم جيدًا .. وأرى من بينهم زملائي في المكتب مطأطئي الرعوس .. محني الهامات ، بطيئي الخطا .. كأن الفقيد عليه رحمة الله .. كان أباهم ، وكأنهم لم يكونوا يدعون عليه بالموت في كل لحظة .

وامتلاً السرايق بالمعزين ، وما من أحد منهم إلا وقد بدت على وجهه أبلغ علامات الحزن .. وقد سرت بينهم همسات لا تكاد تجد فيها إلا : « الله يرحمه ويحسن إليه » أو « كان بيرهق نفسه نفى الشغل زيادة عن اللزوم » أو « ده راح شهيد الواجب » ، أو « كان لسانه حلوه عمره ما ذم في حد ولا جاب سيرة حد » .

وهكذا كانت تسرى الهمسات كلها مدح في مدح ، وكلها تلصق بالفقيد صفات .. لو تجمعت في إنسان لكان نبيا .

ونظرت إلى الساعة فإذا بها قد بلغت العاشرة والرابع .. وبدأنا نحس بوطأة الحر ، ونفذ إلينا لهيب الشمس من خلال فتحات السرايق ، فجفت خلوقنا وتصبب العرق من وجوهنا .

ودخل أحد الخدم بملابسه المزركشة يحمل بين يديه صينية قد ملئت بأكواب الماء المثلج وقد بدا الضباب على خارجها فأعطاها منظرًا مغريًا .. وبدأت الأيدي تتخاطف الأكواب .

وخرج الخدم بالأكواب الفارغة ليعيد ملأها ، وأخذ الخدم يملأون على المعزين ليرووا عطشهم بالماء المثلج .. والمعزون يتخاطفون الأكواب .. حتى مر بي أحد الخدم فتناول كوبًا وتناول صاحبي كوبًا آخر .

وعبيت ما بالكوب لأطفئ به همو الفول والطعمية ولهيب الحر .. ولم أكد أعيد الكوب إلى الصينية حتى وجدت صاحبي يغمزني بقدمه .

وهزرت رأسي متسائلًا عما به .. فأجابني :

— ما رأيك في الماء ؟ .

— مثلج جدًا .

— لست أقصد هذا .. ما رأيك في طعمه ؟ .

— لا أفهم .

— ألم تجد به طعمًا غريبًا ؟ .

— لا .

— أنت غبي . لقد وصل .

— ما هو الذى وصل ؟ .

— مفعول الكيس الذى ألقىته به فى الماء .. لقد ميزت طعمه فى الكوب .

— متأكد ؟ .

— أنا لا أخطئ قط طعم « روح الأخلاق » .. أجزم لك أن الماء مشبع بها .

وسرت فى جسدى رجفة ، وأحسست بقلق واضطراب شديدين ،

وأخذت أنقل البصر بين الناس وأنا أتأمل عيونهم وحركاتهم ، وأتقرب ما سوف

يفعلونه فى جزع وخشية .

كيف لا وقد أضحوا جميعًا بلا نفاق يستر نفوسهم ؟

وأين ؟!

فى أشد المواقف حرجًا . وأكثرها حاجة للنفاق ، والتصنع والمداهنة

والرياء .

كيف لا .. وأنا أجلس فى جنازة .. أى فى مجمع نفاق ، بلا نفاق ؟ .

وجلست أرقب المعزين فى حذر ، كأنى أراقب كوميًا من الديناميت على

وشك الانفجار ، وأخذت أقلب البصر فى وجوههم .. حتى أرى ما سيطرأ

عليهم بعد أن تجرع كل منهم كوميًا مترعة من خلاصة الأخلاق .

ومضت برهة وأنا لا أحس هنالك أى تغير ، حتى ظننت أن صاحبى كان

واهمًا فى تخيل وجود روح الأخلاق فى المياه . أو أنها كانت موجودة فعلا ،

ولكن أثرها كان أضعف من أن يبدل ما بنفوس المعزين من نفاق مستحکم .
ووصل إلى أذى من مدخل السرادق مهمة وحركة كأن القوم يستقبلون أمراً
ذا مكانة وحيثية .. وتطلعت ببصرى فلمحت صاحب الضجة والحركة وقد
أقبل تحيطه هالة من أهل الفقيده وقد بدا عليهم احترام شديد ، وتقدم واحد منهم
يفسح الطريق ويقود القادم الكريم إلى أكبر وأفخم كرسي وضع في السرادق .
كيف لا ، وقد كان المعزى الكبير .. هو الوزير نفسه !!

وأخذت أرقب الوزير المنتفخ الأوداج وقد أقبل يتهاذى فى عظمة حزينه
وكبرياء بها لمحة من أسى مصطنع ، وقد أمسك عصاه يمينه ووضع طرف إبهامه
اليسرى فى جيب الصدري الذى تدلت منه سلسلة ذهبية وضع طرفها فى الجيب
الآخر .

واستقر الوزير أخيراً فى كرسيه أو فى عرشه ، وتفرق من حوله الموكب ..
إلا رجلاً استمر يحوم حوله وينحنى أمامه مبالغاً فى إظهار آيات الترحيب
والولاء .

ونظرت إلى المعزين فإذا بأبصارهم قد علقت بالوزير المحترم ، وسرى بينهم
التهامس فأنبأ من يعرف من لا يعرف .. أن هذا هو فلان باشا .. واستمر القوم
يحملقون فى وجه الرجل .. كأن به شيئاً ليس بهم .. رأسين مثلاً .. أو رجلاً
ثالثاً .. أو أربع أعين .

ولم يكن هناك شك فى أن صاحبنا الوزير قد أحس بما أثاره فى السرادق من
حركة وهمس وحملقة ، فقد أصابه بعض الارتباك الذى سرعان ما ستره بزيادة
فى مظاهر العظمة والكبرياء .

ونظرت إلى صاحبه أى شولخ .. وهزرت رأسى وسألته هامساً :
— أما زلت تصر على أنك ميزت طعم روح الأخلاق فى المياه ؟!
— بالطبع .

— بعد كل الذى ترى أمامك .. تصر على هذا ؟ .

— ما هذا الذى أراه أمامى ؟ .

— هل تظن أن هذا المتكبر المتعظيم .. قد خلا من النفاق ؟ هل تظن أن هذا الموكب الذى تلقاه ، وذلك الرجل الذى يحوم حوله .. وهؤلاء الموظفين الكبار الذين يتطلعون إليه بأعينهم والذين يتسللون إلى المقاعد المحيطة به .. هل تظن أن هذا المشهد التمثيل الذى تراه .. ليس به أثر للنفاق ؟ .. ماذا يكون النفاق إذا ؟ .
— صبرًا يا أخى .. صبرًا .. لا بد أن تمنح للجراحة بعض الوقت حتى يظهر مفعولها .. ثم إن صاحبك الوزير لم يشرب بعد .

وشرب الوزير .. ومضت برهة .. وأنا أقلب البصر بين الناس فى حذر وقلق .

وعلا الصراخ يشق أجواز الفضاء إبدأنا بخروج النعش من الدار ، وإبدأنا ببدء الجنازة .

وتقدم واحد من أهل الفقيد ليقود الوزير إلى مكانه فى مقدمة المشيعين .
وخرجنا من السرادق متكأ كمين فى رحبة أمام الدار ورأيت النعش يحملونه إلى الخارج متقدمين به جمهرة من المعزين .

ورفعت عيني أسترق النظر إلى أعلا فلمحت جمعًا من السيدات احتشدن فى إحدى الشرفات وقد انطلقت من حناجرهن أبلغ أنواع الأصوات « الحياىى » وبدأت بينهن واحدة كانت أعلاهن صوتًا وأكثرهن صياحًا مما لم يدع فى نفسى شكًا فى أنها زوجة الفقيد أو كما كان يصفها « المره الدون الشلق » التى طالما سوّدت عيشه ، والتى طالما قضى الساعات الطوال يشكو إلى منها مر الشكوى ، ويصف لى مهارتها فى خلق النكد وقدرتها على جر الشكل وسلطة لسانها وسفالتها وخستها وميلها إلى الشر والأذى .

وبدا لى أن الفقيد كان متحاملا على المرأة .. وأنها ليست بمثل ما وصفها من سوء وشر .. وخيل لى أنها ستقضى جزعًا أن فجيعتها فى زوجها قد أضاعت صوابها .

وانطلق صراخ المرأة مدويًا ، وهي تكاد تقذف بنفسها من فوق الشرفة
لتلحق بالنعش .. ووصل إلينا صوتها وهي تقول في نغم ملحن :
— يا خويا .. آه يا خويا .. سايتنى لين بعدك .. ماكانش يومك يا خويا .
وفجأة وجدت المرأة قد كفت عن الصراخ .. وتحول بصرها عن النعش إلى
ناحية في فناء الدار .. وقف بها جزار يمسك بيده سكينًا تقطر منه الدماء وتمدد
أمامه الخروف الذى ذبح أمام النعش .. وسمعتها تصيح بالرجل فى لهجة امرأة
وصوت محتد :

— انت يا راجل انت يا جزار . خد بالك من الفروة وانت بتسلخ
الخروف .. اوعى السكينة تمسها .. والا تعورها لحسن عايضة افرشها فى
الدهليز .. سامع ولا لأ .

وصمتت برهة قصيرة ثم أردفت صائحة مخدرة منذرة :
— والعفشة حاسب عليها اوعى تنقص منها حاجة .. والا تروح كده والا
كده .. حاكم انا عرفاكم إيدكم طويلة ولا فيش حاجة تملأ عينكم .. حاسب على
الكرشة والطحال والكبد والكلاوى .. حاستلمهم بالواحدة .. ونضف لى
المصارين لحسن نفسى فى السجق .. كان محرّمه علينا المرحوم جته نصيبة مطرح
ما راح .

وهنا أحسست بصاحبى يغمزنى بقرصة فى يدى .. وسمعتة يهمس :
— ابتدا الشغل .. وتطايير النفاق .. اللهم ارحمنا وإياهم .. هذا أول الفيث .
وأنت السيدة أوامرها إلى الجزار ثم التفتت مرة أخرى إلى ناحية النعش ،
وكان القوم قد أذهلهم صباح المرأة ، فتسمروا فى أماكنهم ومضت بضع ثوان ،
والقوم فى سكون من فرط الدهشة كأن على رؤوسهم الطير .
ونظرت المرأة إلى القوم الذاهلين ، وإلى حملة النعش التسمرين فى أماكنهم ،
وبدت عليها أمارات التعجب وصاحت بالقوم ناهرة :
— واقفين ليه ؟ .. مستنيين إيه ؟ .. يالله اقلبوه القلبية .. الى ما يرجعش منها

أبدًا .. يا ما ورائى المر .. وسقانى الصديد .. وصديد الصديد .. أهو ربناروانى فيه .. لكن برضه .. ما ورائيش زى مانا عايزه .. كان نفسى ينشل .. ويرقد سطيحة .. ويبقى يطلب نقطة المية ما يلاقيش حد يديها له .. كان نفسى اشوف قوته تنهد وحيله ينقطع .. يا ما اتمرد ويا ما اتفرعن .. يا ما خدت الصبغة من دماغه راقات .. كان عامل نفسه ابن العشرين .. ودابير يجرى ورا النسوان فى الشارع ، وفى الصالات .. يصبص للجيران وبنات الجيران .. لما فضحنا وسط الى يسوى والى ما يسواش .. وأقول له يا « ابراهيم » عيب .. يهب فيه ويقول لى .. إنت مالكيش عندى حاجة .. من يوم ما اجوزته ما شفتش منه راحة أبدًا .. إلهى يجحك « يا أم محمود » يا خاطبة إنتى الى كنت السبب .. لولاك كنت زمانى اجوزت « عم شبحه » العطار .. راجل أمير زى السكره .. يا لله . مستنين إيه احدفوه فى الترية ، واقفلوا عليه كويس لحسن يرجع تانى .. دا صنف ليم ما يجيش إلا بالدق . يا ما نكد على .. وفرج على الناس .. يا ما قاللى يا عجوزة يا كركوبة ، وانا قد بنته .. كان راجل دنى عينه فارغة .. هو انا كنت أقدر اخلى عندنا خدامة .. من خوفي منه ، ومن لودانه .. يا ما اشتكيت منه لطلوب الأرض .. هو كان عنده دم ولا إحساس .. أنا عارفه كانوا يهيبوا بيه إيه فى الشغل .. آل وعاملينه رئيس قلم ، وهو تور الله فى برسيمه .. لازم كلهم تيران زيه .. هو كان له الا فى النسوان والشرب .. آل رئيس قلم آل ، والله ما كان يسوى حتى ساعى والا فراش .

وصممت المرأة برهة تمالك فيها أنفاسها ، فانبرت امرأة بجوارها كانت منذ لحظات تشاركها الصراخ والبكاء ، وقالت مؤمنة على لهجتها الجديدة مخاطبة من حولها من النسوة :

— يا ختى والنبي لها حق .. كان راجل بصباص وفلاقي .. دانا فاكره مرة مشى ورايا من شيكوريل لغاية بنزا يون ، وهو لسانه ما دخلش بقه ، ودخلت اشتريت حنة موريللا وكام متر باتستا ، وجيت اخرج من المحل لقيته .
(أرض النفاق)

وهنا قاطعتها سيدة أخرى متسائلة :

— الحنة الموريلا البمية اللي وديتها عند لويس الخياطة ؟

— أبوه هى .

— وبتاخذ كام دلوقت مدام لويس فى الفستان ؟

— خمسة جنيه .

— يا ختى غاليه أوى .. داحنا بنجيب واحدة غلبانه تيجى تقعد عندنا طول

اليوم تفصل فستان ونص وتاخذ مائة وثمانين قرش ولا تفرقش شغلها عن مدام لويس أبداً .

وهنا نبرت ثالثة فتدخلت متسائلة :

— اسمها إيه يا ختى دى ؟

— أم عبده .

— ما تقدرش تبعيتها لى يوم الجمعة ؟

— من عنيت .

وصاحت أخرى موجهة القول إلى زوجة الفقيد :

— والنبي يا ختى حوشى لى حنتين سجع من اللي حاتعمليه .

. وصاحت خامسة تقول إنها لا تحب أكل المأثم ، واختلطت أحاديث السيدات

الحزينات المتشحات بالسواد ، عن السجع والطحال والموريلا والخياطات والمودات ، وعن كل شيء إلا عن المرحوم .

ولحت واحدة منهن تتجه ببصرها إلى حيث وقف الوزير مأخوذاً مشدوهاً ،

إذ لم تكن الجرعة قد أثرت فيه بعد ، ثم أشارت إليه بأصبعها وتساءلت بصوت عال :

— ودامين يا ختى اللي واقف نافش وعامل زى الديك الرومى ١٩

وانطلقت الضحكات من صدور المعزين ضحكات رنانة خالية من أى أثر

للحزن أو الأسى الذى كان يكسو وجوههم منذ برهة ، وبدا كأن الاحترام

والخشية التى كانوا يحسونها للوزير قد نظائرت وتبددت .
وسمعت صوتًا جديدًا يصبح بالقوم غاضبًا نائمًا :

— وبعدين يا جماعة فى العطلة دى .. هو احنا فاضيين لكم . احنا ورانا
أموات تانية .. دى الحكاياه مش مستاهله . جايب لكم تمان رجاله يمشوا قدام
الميت ومش عاوزين تدفعوا غير اتنين جنيه ، ورضينا وقلنا معلش نعوضها فى
ميت تانى .. أهى برضه الست يومها قريب ، وبعد دا كله تلطعوننا اللطعه
دى ؟.. انتو فاكرينا عواطليه ، والا خالين شغل .. ياللا يا رجاله بلاش مسخرة
ولعب عيال .

ووجدت المتحدث هو الرجل الذى سبق أن وصفته بأنه متعهد جنازات ،
وأنه قد ضاق ذرعًا بوقفة النعش .. وأخذ يسحب رجاله حملة الحجارة الذين
رصهم على جانبي الطريق لكى يتقدموا النعش .
وجمع الرجل أعوانه وانصرفوا ساخطين .. يلعنون أبا الميت وأبا أهله ،
محدثين فى الشارع شبه مظاهرة .

وهنا لحت الحانوتى .. الذى كانت تبدو على وجهه أبلغ آيات الحزن ، وقد
انطلق مقهقهًا وهو يصفق يديه طربًا ويصيح :
— يا ميت فل .. يا ميت حلاوه .. يا ميت نجف .. الفاتحة على روح
الأموات اللى بيوكلونا عيش .

ثم رأيته يرفع كفيه إلى السماء ويتمم بالفاتحة . ثم يدعو بصوت عال :
— خمس أموات كمان يارب بس تكون منهم حماقى . ندرن على لاشيعها
بالطبل البلدى ، وارقص وراها عشرة .
ثم بدأ يقرن القول بالفعل ، فيهر بطنه الأكرش ويتبختر بجسده السمين
المترهل .. وهو يصيح طربًا :

— خمس أموات يارب ، والا خليهام عشرة .. مش بترزق من تشاء بغير
حساب ؟. خلىنى مرة واحدة فى العمر .. من تشاء .. مرة واحدة بس ..

خليني من تشاء ، وابتعت فيهم قره ، والا شوطه .. وسيب الباقي علي .
واستمر الرجل في رقصه وطربه حتى وصل إلى النعش فأخذ ينقر عليه بيديه
منشدًا :

— يا نور العيون آنت . .

ونظرت إلى الوزير ، فوجدته غارقًا في عرقه ورأيته ينظر حوله في سخط
وغضب ويقول :

— إيه البهله دى والقرف ده .. هو لازم يتعبنا في موته زى ما تعبنا في
حياته .. كان راجل حمار وغبي .. جاته القرف .. هو لازم يعملوا له جنازة ..
ما كانوا حلقوه في عرية وانتهينا .. والا لازم تعب القلب ؟
وتلفت الوزير حوله وتطلع يبصره كأنما يبحث عن شيء .

ولم يهتم به أحد ولم يتسابق كبار المعزين ليسأله عما يريد . فقد كانوا هم
أنفسهم في حالة ضيق وملل ، واضطر الوزير إلى أن يفصح عما يريد ، فيصيح
بأحدهم طالبًا منه أن يحضر له العرية .

وينظر إليه الموظف في تبرم ويقول له في أنفة :

— العرية عندك هناك .. إذا كنت عايزها روح لغاية عندها .: أنا مش خدام
أبوك .

ويبدأ الوزير انسحابه من وراء النعش دون أن يهتم به إنسان ، ويذهب إلى
العربة فلا يقفز له السائق ولا يفتح الباب بل يدلف هو في داخلها .
وتتحرك العربة والنعش ما زال موضوعًا على الرصيف لا يحاول أحد التقدم
لحملة .. وبدأ بقية المعزين يعلنون آراءهم في الفقيد الكريم « كان طويسل
اللسان » .. « كان مؤذى .. الله لا يوريه نصفه » .. « كان أغبي خلق الله » .
« كان مغرور » « كان يستاهل ضرب الجزم » .

وأخذ كل منهم يقص كل ما يعلمه عن سيئات الفقيد .. ثم بدأوا ينصرفون
تباعًا .

وشيثاً فشيئاً أخذ المكان يخلو حتى لم يبق هناك سوى وصاحبي ، والنعش الملقى على الرصيف .

وتلفتنا حولنا في حيرة ، وكانت الشرفة قد خلت من السيدات .. ولم ندر ماذا يمكن أن يكون مصير الفقيد العزيز ، وهل سيقضى نهايته على قارعة الطريق .

ورأينا الزوجة تخرج إلى الشرفة لتطمئن على مصير الخروف .. وعلى الفروة والطحالب والمصارين ، فقوجت برؤية النعش على الرصيف في موضعه .. فضربت يدها على صدرها وصاحت فزعة :

— يا دى النايه .. دا الرجل لسه على الرصيف .

ثم صاحبت تطلب النجدة من الداخل .. ليعبدوا النعش عن البيت خشية أن يفكر ابراهيم افندى فى العودة إلى الدار .

وأخيراً حمل النعش على أكتاف الخدم والبواب بعد أن أعطت السيدة كلا منهم نصف جنيه .

ووقفت وصاحبي أقرب الجنازة تتحرك بمنتهى السرعة وقد سار حاملو النعش خبيئاً ولو استطاعوا لساروا عدواً .

وهكذا سار الفقيد بلا عبء تسكب وراءه .. أو مخلوق يشيعه ، اللهم إلا مخلوق واحد وهو الفأر شولخ الذى أحس بالراء للفقيد ، فقفز من جيب صاحبي وسار وراء النعش .

ولكن — حتى الفأر — لم يسر إلا خطوات ثم عاد إلينا فرغاً مرتاعاً .. بعد أن رآه صوت انفجار بجواره .

والتفتنا لتبين سبب الانفجار ، فإذا به « قلة » قذفت بها الزوجة وراء النعش . .

ونظر إلّى صاحبي وقال فى حسرة :

— حيا الله النفاق .. لقد كان يستتر خبايئهم ، ويحجب
شروهم .

— صبرًا .. هذا رد فعل لا بد من حدوثه .. لا بد لليلة أن تكشف
حتى يمكن استئصالها ، ولا بد للناس أن يروا ما بهم .. حتى يستطيعوا
"علاجه" .

(١٣)

فى صلاة الجمعة

ألا تدرى أنه رب ضحكة تخرج من صدورنا
طليقة مخلصه ، تجعلنا أشد إيماناً بالله ، وأكثر
حمداً له ، وقرباً منه .. ألا تدرى أنه رب أغنية
جميلة أرهفت منا الحس ورققت المشاعر ..
تظهر نفوسنا وترسب شوائبنا وتحلق بنا إلى
السموات وتقربنا من الله أكثر من ألف ركعة
وسجدة !!

هز صاحبى رأسه وبدأنا نتحرك من الميدان .. ميدان الصراع الذى شاهد
أول معركة أحدثها التطور الجديد .

وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة ووجدت صاحبى يسألنى :

— أين ستصلى الجمعة ؟

— الجمعة !

— أجل الجمعة .. ألم يسبق لك أن صليت الجمعة ؟

— والله صليتها فيما مضى من الزمن .. أما الآن فلا !

— ولِمَ ؟

— قلة عقل .. وشقاوة وشيطنة .. وكسل وصهينة .

— إذا أين أستطيع أن أصليها أنا ؟
— ولكنى لا أجد هناك ما يمنع من أن أصليها معك .. ولتكن هذه بداية العودة
إلى الصلاة وبداية الهداية .

— وأين نصليها ؟
وفكرت برهة .. وهممت بأن أقول : نصليها في أية زاوية قريبة .. ولكن دار
بخلدى فجأة خاطر عجيب .

لِمَ لا نذهب إلى أحد الجوامع الكبيرة .. حيث يحتشد جمع غفير لتأدية الصلاة
وحيث نستطيع أن نجد مرتعاً نرقب منه أثر المياه الجديدة المترجة بالأخلاق .
وهكذا سحبت الرجل من يده ، واخترقنا شارع المنيرة متجهين إلى الكوبرى
الحديدى القائم فى ناحية الماوردى والموصل بين حى المنيرة وجنينة ناميش ،
وعبرنا الكوبرى ، ثم اخترقنا جنينة ناميش إلى شارع السد ، وسرنا فى شارع
السد حتى وصلنا إلى حارة باب الميضة .. ودلفنا إلى داخل الميضة حيث خلعنا
أحذيتنا وجلسنا القرفصاء أمام الحنفيات وبدأنا الوضوء .

وانتهينا من الوضوء وسط عاصفة من التخط والتنخم ، والتمتمة والبسملة ..
وقمنا نتلمس طريقنا ذاكرين قول الشاعر :

قدّر لرجلك قبل الخطو موضعها

فمن علا زلقاً عن غرة زلجا

ودخلنا الجامع فوجدناه على سعته احتشد بالمصلين ، وقد بدت على
وجوههم الطيبة والمسكنة والتذلل .. وأخذ البعض يركع ويسجد .. والبعض
يستمع إلى المقرئ يتلو القرآن .. وقد أغمضوا عيونهم ، وأخذوا يهزون
رعوسهم ، وكأنهم فى نشوة .

ووجدت رجلاً من الأولياء يخترق صفوفهم ، وقد أمسك بسلسلة تدلى منها
مجمرة يحرق بها البخور ، ويطوّح بها ذات اليمين وذات الشمال .
ورأيت آخر يحمل على ظهره إبريقاً ، وفى يده طاسة نحاسية .. وقد أخذ

يوزع المياه على العطشى المصلين ..
وصليت وصاحبي بضع ركعات تحية المسجد ، ثم جلسنا في ركن نسمع
تلاوة آى الذكر الحكيم .
وأخيرًا .. انتهى المقرئ .. وبدأ الأذان : مؤذن في أعلا المئذنة ، ومؤذن في
رحبة الجامع .
وانتهى الأذان .. ولححت شيخًا وقورًا قد قام بين المصلين ، واتجه إلى المنبر ،
ورفع ستارًا فوق الباب ، ثم دلف إلى الداخل ، وصعد الدرجات .. ممسكًا
بسيف خشبي .
ووقف الشيخ الخطيب ، وقد بدت عليه أمارات الجهد والتقوى وعلامات
الإيمان والصلاح .

ونظر في جموع المصلين نظرة شاملة ، ثم سعل وتنخم .
ووجدتني أرهف السمع لما ينوى قوله .. رغم أنني لا أستطيع أن أمنع نفسي
من السرحان في خطبة الجمعة ، ورغم أنى لا أذكر قط أنني وعيت كلمة
واحدة ، قيلت في إحداها ، ولم يكن سبب إرهافي السمع في هذه المرة هو رغبتى
في الحصول على النصائح والمواعظ .. بل كانت لهفتى على معرفة ما إذا كانت المياه
الجديدة قد أثرت في الرجل ، وسماع ما يمكن أن يقوله في خطبة الجمعة بعد أن
زال منه النفاق .. وبدأ الرجل خطبته .. وأنا أنصت إليه جيدًا . فقال :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسوله ومصطفاه ، وعلى آله وصحبه ،
ومن والاه ، حتى يلقى الله في حزيه . وأشهد أن لا إله إلا الله ﴿﴾ رفع السموات
بغير عمد ترونها ﴿﴾ وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بكم ﴿﴾ وأشهد أن محمدًا
عبده ورسوله ، كان أقوى الناس إيمانًا ، وأعظمهم يقينًا وأحسنهم خلقًا .

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى .. هدى سيدنا
محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة

ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

أما بعد .. فيا أيها المسلمون :

يقول الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ .

أيها المسلمون : ها هو شهر رمضان يطالعكم ، وعما قليل يهل هلاله عليكم ، فهل أعددت له العدة ، وجردتم أنفسكم من شهواتها ، وطهرتم قلوبكم من ضغائنها ، فلا تتركوا فضل هذا الشهر يفوتكم ، واعلموا أن الصوم ليس امتناعاً عن شهوتي الفم والفرج من الفجر الصادق إلى غروب الشمس فحسب ، وإنما هو صوم السمع والبصر واليد والرجل ، وسائر الجوارح عن الشر والآثام : إذا لم يكن في السمع منى تصام .

وفي مقلتي غص وفي منطقي صمت

فحظي إذن من صومي الجوع والظما

وإن قلت إني صمت يوماً فما صمت

وقد يرتقى الصوم بالعباد إلى رتبة أن يصوم بقلبه عن الدنيا ، ويسمو بفكره عن مادياتها حتى تصبح حياته تفسيراً عملياً ، لقوله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ .

والصوم الصحيح الكامل بعد كل هذا .. حاجز حصين بين الصائم وبين الرفث والإثم والعصيان ، والحصن المتين .. بين النفس الأمارة بالسوء وبين المنكر والتمرّد والطغيان ، وأن التحكم في كف النفس عن لذاتها ومنعائها كفيل بتقوية الإرادة ، وتعويد النفس على الصبر ، واحتمال الشدائد ، وعلى خوض غمار الحياة ، وملاقة نوائبها بلا جزع ولا فزع ، فيخرج المرء من شهر الصوم ، وقد ازدهرت في نفسه خصال تضيء له حلقة الحياة وتعيد له سبلها بما يجعله أهلاً لا ستخلاف الله له في أرضه ، ويظهر فيه سر قوله تعالى ﴿ ولقد كرّمنا بني

آدم ﷺ .

والصوم الصحيح كذلك يجعل الصائم يحس إحساساً عميقاً بما يتجشمه البؤساء من شظف العيش وألم الحرمان ، فيحفزهم على الجود والسخاء .. ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود ما يكون في شهر رمضان ، فإذا استطاع الإنسان بالصوم أن يبحث جذور الشح من نفسه لقول الله تعالى ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ سعد وسعدت به أمته .

فيا معشر المسلمين : حاولوا أن تستفيدوا من رمضان ، واجعلوه سوقاً لربح الباقيات الصالحات ، وافهموا فريضة الصوم على وجهها الصحيح ، واعلموا أن إخوانكم المسلمين الأول كانوا يتهجون لرمضان ويفرحون به فرح الحب بمحسوب طالت غيبته ، فما يكاد ينزل بهم حتى يهبوا له من صنوف الطاعات وعمل الصالحات ، ما يوجب شفاعته فيهم شهادته لهم .

وصدق رسول الله ﷺ حيث قال :

(الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، فيقول الصيام إني منعتك الطعام والشهوة فشفعني فيه) ويقول القرآن منعتك النوم فشفعني فيه ، قال فيشفعان) . قال رسول الله ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى) ، وعنه ﷺ قال : (التائب من الذنب كمن لا ذنب له) .
ادعوا الله ...

وسرت بين المصلين موجة مهمة ودمدمة .. ورفعوا أكفهم إلى الله يدعونه . وأخذت أنا أحملق فيهم وفي الخطيب ، علني أستبين تغيراً طراً عليهم فلم أجد شيئاً .

وعاد الخطيب يتمم خطبته قائلاً :

— الحمد لله لا يشرك في حكمه أحداً .. غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول ، يقبل التوبة من عباده ويعفو عن كثير .. عباد الله اتقوا الله

فقد كفى ما كان .. اتقوا الله فقد مضى زمن العصيان ، ثم توبوا إلى الله جميعاً لعلكم تفلحون .

« اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات ، وللمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات ، إنك سميع قريب مجيب الدعوات يا رب العالمين . اللهم إنا نسألك أن تنصر الإسلام والمسلمين ، وأن تعلى بفضلك كلمة الحق والدين ، كما نسألك أن تشمل برعايتك عبدك المخلص في طاعتك الملك فاروق الأول نصره الله (وهنا سمعت صوت المقرئ يعلو في صوت أشبه بالغناء فيقول : أيده الله بنصره وأعانه) .. اللهم انصره نصرًا مبينًا وحقق على يديه جميع الآمال يا رب العالمين . واجعل هذا البلد آمنًا مطمئنًا ، وآمنًا في أوطاننا ، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، وول أمورنا خيارنا ، ولا تول أمورنا شرارنا .

« اللهم إنا نضرع إليك أن تنصر المجاهدين ، وأن ترفع راية الإسلام ، وتزعز الإسلام والمسلمين ، وأن تغذل الكفرة والكافرين أعداءك وأعداء الدين يا رب العالمين . « اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا (٣ مرات)

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يغفر لي ولكم ولسائر المسلمين ، وأن يجازي المحسنين أحسن الجزاء . عباد الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أقم الصلاة .

وانتهى الخطيب من خطبته وهمّ بالنزول .. وبدأ المؤذن بإقامة الصلاة .. عندما وقعت الواقعة .. وظهر تأثير المياه الممتزجة في الخطيب المسكين وأحسست بصاحبي يغمزني ويهمس في أذني :

— انظر .. لقد بدت عليه الأعراض .. انظر إلى عينيه لقد بدأ يشع منها الصدق والإخلاص .. لقد ذهب عنه النفاق .

ونظرت إلى الرجل فوجدته قد توقف في مكانه وأشار للمؤذن أن يكف عن إقامة الصلاة فما زال هناك لخطبته بقية لم يتم قولها بعد .

ونظر الرجل إلى الورقة التي كان يتلو منها الخطبة كأنه يبغاء ، ثم كورها بين يديه وقذف بها من أعلى المنبر وأخذ نفساً طويلاً ، وبدأ عليه كأنه مقبل على أمر جلل ، وخفق قلبى بشدة ، وأحسست بخطورة ما يوشك أن يحدث .
ووصل إلّى صوته وملؤه بالإخلاص والصدق :
— يا عباد الله .

ونلاحقت أنفاسى وأنا أنصت إليه أنا وغيرى من عباد الله .
ساد الجامع سكون عجيب وأرهف المصلون أسماعهم وقد بدت على سيماهم دهشة شديدة وأخذوا يحملقون فى الخطيب ، وقد عاود اعتلاء المنبر مرة أخرى بعد أن انتهى من خطبته وهم بالتزول ، وارتسمت على وجوههم علامة استفهام فتساءل .. ترى ماذا نسى الخطيب ؟! وماذا ينوى أن يقول ؟! وأى شيء خطير دفعه إلى معاودة الحديث بعد أن أتم خطبته ؟!

ولم يكن هناك سواى وصاحبى من يعلم سر عودة الخطيب .. ويستطيع التنبؤ بما يوشك أن يقول ، ونظرت إلى صاحبى فوجدته مطرقاً فى صمت واستسلام .. كأنه ينتظر عاصفة على وشك الهبوب .

وعاد صوت الخطيب يدوى بين أرجاء الجامع بلهجة طويلة ممدودة :
— عباد الله .

وصمت لحظة — وبدأ لى أن القول الطبيعى الذى يجب أن يلى ذلك .. هو قوله — وحدوا الله — ثم يأخذ فى سرد بقية الأقوال التى يحفظها الخطباء عن ظهر قلب .

ولكن الخطيب لم يقل وحدوا الله .. بل تلفت يمنة ويسره وعاد يكرز :
— عباد الله .. هل تعرفون نكتة الخطيب بين مدمنى الحشيش ؟
زسرى بين المصلين همس ولغظ .. وهممة . وأخذ بعضهم من سؤال الخطيب ، وعلت أصوات بعضهم قائلين :
— لا .

والبعض الآخر قائلين :

— نعم .

وأسكتهم الخطيب بإشارة من يده قائلا :

— لا بأس سأقصها عليكم .. حتى يعرفها من لم يعرفها فأني أراها خير تشبيه لما نحن فيه .

وأنصت القوم .

وبدأ الخطيب يقص النكتة قائلا :

— زعموا أن بلدة شاع فيها تناول الحشيش وأدمن أهلها على تعاطيه ، وحدث ذات يوم أن ذهب القوم إلى الجامع لتأدية فريضة صلاة الجمعة .. واحتشدوا في رحبة الجامع حتى أذن للصلاة فاعتلى الخطيب المنبر .. وبدأ في إلقاء خطبته .. وأخذ في وعظ القوم وإرشادهم ، وحثهم على ترك الحشيش ، مبيِّناً لهم أضراره .. معدداً مساوئها وأخطارها .. ذاكراً ما أعدّه الله من عقاب لمدمنيه في الدنيا والآخرة .. لاعتنا كل من تعاطاه أو ساعد على تعاطيه .. محذراً كل من اتجر فيه أو حمله أو نقله .. وهكذا استمر في وعظه حتى بح منه الصوت ، ولم يكذ ينتهي من خطبته .. حتى علا من بين المستمعين صوت يسأله في تخايب واستعباط ::

— الحشيش أنهو يا سيدنا ؟ .. حشيش الأرانب ؟!

ونظر إليه الخطيب في غيظ واستنكار ، ثم مد يده إلى عمامته فأخرج من بين طبقات الشال الأبيض . « فص حشيش » ، وأجاب السائل ببساطة متناهية :

— لأ .. الحشيش ده .. يا روح أملك !!

وهنا ضج المصلون بالضحك .. وصمت الخطيب لحظة ثم أشار بيده محاولاً إسكات المصلين .. وهم بمعاودة الحديث .. عندما انبرى من أقصى الجامع صوت غاضب يصيح بالمصلين وبالخطيب :

— ما هذا العبث ؟! أتضحكون وتمزحون في بيت الله ؟! هذا حرام .. هذا

حرام .

والتفت إليه الخطيب في دهش وقال متسائلا :

— حرام ؟ .. هل حرم الله الضحك في بيته أيها الغبي ؟! الله الكريم الغفور يحرم علينا الضحك في بيته !

— إن بيت الله .. قد جعل للخشوع والسجود والعبادة .. فإن ذلك يجعل عباد الله في بيت الله أقرب إلى الله .

— أو تظن أن التقرب إلى الله لا يكون إلا بالخشوع والسجود والتسبيح وتسيل العينين !! ألا تدري أنه رب ضحكة تخرج من صدورنا طليقة مخلصة ، تجعلنا أشد إيمانًا بالله وأكثر حمداً له وقرباً منه ؟! ألا تدري أنه رب أغنية جميلة أرهفت منا الحس ورققت المشاعر .. تطهر نفوسنا وترسب شوائبنا وتحلق بنا إلى السموات وتقربنا من الله أكثر من ألف ركعة سجدة ؟! إن الإيمان في الصدور .. والحمد في الصدور .. ماذا يضيرنا لو أخرجناه في ضحكة راضية شاكرة حامدة .. أم لا بد لذكره وحمده من حلقة ذكر تبع فيها الأصوات وتأرجح الأجساد ؟!

وصمت الخطيب . فأجابه الرجل من أقصى الجامع صاخبا غاضبا :

— هذا كفر .. هذا إلحاد .. هذه دسيسة !!

ونظرت إلى صاحبي « أنى شولخ » ثم إلى الرجل الثائر الغاضب ، وهزرت رأسى متسائلا :

— ما رأيك في هذا ؟

وأجابنى « أبو شولخ » هامسا :

— لا شك أنه لم يذق الماء بعد .. من يدري قد يكون صائما .

ولم يجب الخطيب على الرجل ، وتجاوز عنه كأن به لوثة .. ووجه حديثه إلى بقية المصلين الذين كانوا يتطلعون إليه بأعين راضية .. وبدأ أن كل ما قاله قد وافق هوى في نفوسهم .

قال الخطيب :

— عباد الله .. لقد أضحككم قصة هذا الخطيب .. ولست والله بلائكمكم على ضحككم ولا بمحاول زجركم ونهركم كما فعل هذا الغبي الذي اتهمنا بالكفر والإلحاد .. اضحكوا ما حلا لكم الضحك .. فأني لا أرى في ضحككم عجبًا .

أجل .. ما من عجب هناك من أن تضحكوا على الخطيب الذي حدثكم عنه .

ولكن العجب كل العجب .. في أنكم تخصونه وحده بالضحك ، وأنكم لم تضحكوا على كل خطيب سمعته ، على أنه ما من أحد منهم يختلف في قليل ولا كثير عن صاحبنا .. كلهم في الهوى سوا !!

إن هذا الخطيب ينهى الناس عن الحشيش .. ويقضى الساعات يتلو عليهم الأقوال الفضيحة والكلام البليغ .. وفي نهاية الخطبة .. يخرج لهم من طي عمامته .. فصًا من الحشيش .

لِمَ لا تضحكون على الخطباء الذين يهونكم عن الكذب .. وأنتم لا تزيدون قيد أثملة على الحشاشين الذين كان الخطيب يهاهم عن تناول الحشيش ويضع الحشيش في عمامته .. فلاهم كفوا عن الحشيش ولا أنتم كفتم عن الكذب . هل تصدقون أنه قد مضت على عشرات السنين وأنا أنهى الناس عن المنكر وهم يستمعون إلى مطأطى الرعوس مسبلي الأعين .. يهزون رعوسهم إعجابًا وندمًا ، واستغفارًا ؟!

ترى هل كفوا بعد ذلك عن إتيان المنكر الذي نهيتهم عنه ؟!

أبداً والله .. ولو كانوا قد كفوا عنه .. لما كان بهم من حاجة إلى الاستماع إليّ بعد ذلك .. ولكففت أنا عن النهي عن المنكر منذ عشرات السنين .. إذ ما حاجتي إليهم وما حاجتهم إليّ وقد كفوا عن المنكر .

عشرات السنين وأنا أنهى عن المنكر وأتلى الخطب تلو الخطب .. هذه تنهى

عن الفحشاء والبغى .. وهذه عن الخمر .. وتلك عن الميسر .. أتلوها الواحدة بعد الأخرى كاللبغاء .

يا للغباء ويا للحمق!! كيف هياً لى البله أن أتلو كل تلك الخطب المسجوعة الرنانة عن الميسر .. وأنا أعلم أن أهل الميسر .. آخر من يقربون الصلاة أو يستمعون لخطبة فى مسجد ؟! كيف هياً لى الحمق أن أبج صوتى فى النهى عن الميسر وأنا أعلم أن من أنهامم .. يغطون فى نومهم عقب سهرة إلى الصباح فى نوادى الميسر ؟!

كيف هياً لى الغباء .. أن أظن أنه حتى لو دفع النفاق واحداً منهم إلى الصلاة .. وإلى سماع خطبتي .. أن يكف عن الميسر لجرد أنى نهته عنه ؟!

يا عباد الله .. من منكم لا يعرف أن الله ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى والكذب والهيمة والغش وأكل أموال اليتامى !! من منكم لا يعرف أن أكرمكم عند الله اتقاكم وأن الله يأمر بالعدل والإحسان والصدق ؟.

يا عباد الله .. أيها الأشقياء المنافقون .. من منكم لا يعرف كل هذا !! عشرات السنين .. وأنا أتلوه عليكم ، وأنتم لا تستمعون إالى .. فلا أنتم عملتم بما أقول ولا أنتم كففتهم عن الاستماع إالى .

عشرات السنين وأذانكم من طين ومن عجين .. تخالون أن واجبكم ينتهى عند حد السماع ، تماماً كما أخال أنا أن واجبى ينتهى عند حد التلاوة .. وأنا أتلو وأنتم تسمعون .. ولا شىء أكثر من ذلك .. أنا أقول لكم إن الله ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى والكذب .. إلخ . وأنتم تستمعون ، إلى أن الله ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى والكذب إلخ .

وهذا كل ما فى الأمر .. أما أن ننتهى فعلاً عن الفحشاء والمنكر والبغى والكذب ، فهذا ما لم يخطر ببالنا قط .

عباد الله .. لشد ما ضللتم وضللنا السبيل .. لقد جعلنا من العبادة غاية .. وهى الوسيلة إلى الغاية .. فاستغنيينا عن الغاية بالوسيلة ، وعن الغرض بمجرد (أرض النفاق)

التسكع في الطريق .. فما وصلنا إلى غرض وما اهتدينا إلى غاية .
إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .. ما قيمة الصلاة إذا ركعنا وسجدنا
وبسملنا .. وبعد كل ذلك ارتكبنا الفحشاء واتبعا المنكر !!؟
ما فائدة أن نحشد في المساجد .. فتمسح بأرضها جباهنا ونخشع ونتذلل
ونستغفر ونطاطئ الرعوس ونخني الهامات ونسمع إلى الخطب الرادعة ..
الزاجرة ، ثم نتطلق بعد ذلك في ربوع الأرض فنعيث فيها الفساد .. ونرتكب
الآثام ، ونطغى ونتكبر ونتجبر ؟!

ما فائدة أن نفعل الوسيلة .. ولا نصل إلى الغاية ؟
ما فائدة أن نسلك الطريق ونعرض عن الغرض !!؟
إن الغاية من كل هذه العبادة والصلوات والخشوع والخطب .. هي أن نرحم
أنفسنا .. إن الذى خلقنا ليس به من حاجة إلى تلك المظاهر والشعائر .. ولكنه
أمرنا بها ، حتى يصلح ما فسد فينا .. ويزيل عنا الشوائب ويبعد الشرور ،
فتصفو دينانا .. وتجميل حياتنا .. فيحب بعضنا البعض ، ويعين بعضنا
البعض .. وتزول الكراهية وتبتد الضغينة والحققد .
تلك هي الغاية من كل هذه المظاهر والشعائر .
أفهل وصلنا إلى الغاية ؟.

لا والله .. إن كل ما نفعله عبث في عبث .. نضحك به على أنفسنا ونخدع
به بعضنا ..

هل تصدقون أن هذه الخطبة التى ألقيتها عليكم .. قد نقلتها عن خطبة قلتها
قبل ذلك خمس مرات ؟.

لا تلوموني .. فأنا منكم .. منافق بين منافقين .. أو هكذا كنت .. حتى
أحسست فجأة بعد أن انتهيت من خطبتي أن كل ما بي من نفاق قد تطاير وتبدد .
عباد الله .. إن في عمامتي وفي طهرى .. فصوصاً من السخائم سأقذف بها
قبل أن أقيم الصلاة .

عباد الله .. كونوا مخلصين في صلاتكم ، واذكروا الله فيها ، وفي غيرها .
اذكروا الله دائماً .. اسجدوا بقلوبكم وأرواحكم .. لا بأجسادكم ، واجعلوا
مياه الوضوء تغسل أفتدتكُم ونفوسكم قبل وجوهكم وأقدامكم .
عباد الله .. كونوا دائماً طاهرين .. إن الطهارة طهارة النفس .. لا طهارة
الجسد .

عباد الله .. صلوا بأذهانكم في كل غدوة وروحة .. اجعلوا الصلاة وسيلة ،
ولا تجعلوها غاية .

عباد الله .. هذا عهد بيني وبينكم .. أقسم ألا أخطب فيكم وفي عمامتي أى
فص من الشر .. أقسم ألا أتهاكم عن السوء قبل أن أنهى نفسى .
عباد الله .. أقسم .. أن ..

ولكن الرجل لم يتم حديثه فقد وصلت إلينا من باب المسجد ضجة .. ولحنا
رجال الشرطة يقفون بالباب ويخلع بعضهم أحذيتهم ، ولحنا بينهم الرجل الذى
سبق أن صاح بالخطيب يتهمه بالكفر والإلحاد ، ووجدته يشير إلى الخطيب ،
ويقول لضابط بجواره صائحاً مهتاجاً :

— هل سمعت .. إنه يقول إنه لن يخطب وفي عمامته أى فص .. هل رأيت
بعينيك ؟! إن الرجل قد جن .. لقد أضحى يهذى بالكفر والإلحاد وسط آلاف
المصلين .. الذين يصغون إليه ليهديهم سواء السبيل .

أجل .. هذا هو المجنون الكافر .. لا بد من حمله إلى مستشفى المجاذيب .
واتجه رجال الشرطة إلى الخطيب ليلقوا القبض عليه ، ووجدت الخطيب ينظر
إليهم شزراً ويصيح بهم :

— ويحكم أيها اللئام الكفرة .. تعتدون على الآمين في بيت الله .. أتصدقون
هذا الأحمق الغبي الذى يتهمنى بالجنون .. افرنقوا أيها الزناديق .

ولكن الزناديق لم يفرنقوا ، بل زادهم غضب الخطيب اقتناعاً بأن الرجل
مجنون ، وأن من الخطورة تركه طليقاً وسط المصلين .

وأمسك الشرطة بتلابيب الرجل وأخذوا يجرونه إلى الخارج والرجل يقاوم ويحاول التخلص منهم .. وكلما ازداد مقاومة ازدادوا معه عتفاً .. وأصابته يده وجه أحدهم بلكمة غير مقصودة فردّها له مضاعفة .

فصرخ الرجل وازداد هياجاً .. فانهالوا عليه باللكمات ، والرفسات .. وهاج المصلون وهجموا على الشرطة لينقذوا الخطيب المسكين .. وبدأت المعركة حامية الوطيس واختلط الحابل بالنابل ، وعلا الصراخ ، وتطايرت اللعنات وألفاظ السباب .. وازداد الصخب والصياح وانقلبت المعركة إلى مظاهرة ثائرة جامعة .

ونظرت إلى صاحبي « أوى شولخ » قابلاً في مكانه ورأيته ينظر إلّى بطرف عينيه ويهمس قائلًا في لهجة شامنة :

— مبسوط ؟

— مم ؟

— من كل ما حدث .. هذه المعركة في بيت الله .. وهذا الهياج والصياح .
— ومالى أنا ! إن السبب الأول في كل ما حدث هو ذلك الرجل الأحمق الغبى .. الذى استدعى الشرطة .. والسبب الثانى . هم الشرطة وتهورهم .. ماذا عليهم لو تركوا الخطيب يقول ما يشاء ؟ ثم إن الرجل لم يقل سوى الحق .. ولو اتبع الناس قوله لصلح حالهم .. وذهبت شرورهم ، ولست أشك في أنهم كانوا سيتبعونه .. فقد كانوا مقتنعين بقوله تمام الاقتناع ، لولا تدخل الشرطة .. على أية حال .. إنى سعيد بكل ما حدث .. حقيقة أن هذا الهياج والصراخ في حرمة المسجد شيء يبعث على الأسف ، ولكنى أعتبره بداية تطور وانقلاب .. ولا بد لكل انقلاب من بعض أعمال العنف ، ولا بد له من ضحايا وخسائر .. وأؤكد لك أن ما حدث من خسائر يعتبر ثمناً زهيداً جداً .. لما سيحدث من انقلاب وتطور .. تخيل ما قاله الخطيب يضحى حقيقة واقعة ، وأن الناس ستعمر بالإيمان قلوبهم وتطهر نفوسهم .. ويخلصون في حب بعضهم البعض .. وتتطاير

منهم الضغينة ويتبدد الحقد .. تصوّر أنهم سيصلون بقلوبهم في كل لحظة ..
وتصوّر أن ماء الوضوء سيزيل سخائم النفوس كما يزيل الأثرية عن الوجوه .
ألا ترى معنى .. أن هذا يهون من أجله كل شيء .. حتى المعركة في بيت
الله ؟!

وهز صاحبي رأسه وتتم قائلا :

— من يدري ؟ —

وبدأت أمواج المصلين تندفع إلى خارج الجامع .. وانتقلت المعركة والهياج
من رحبة الجامع إلى رحبة الميدان .. وتحركت الأفواج إلى مركز الشرطة .
وتسللت وصاحبي من المسجد بعد أن خلا من المصلين .. قبل أن تتم
الصلاة .. واتخذنا طريقنا من ميدان السيدة إلى شارع خيرت .. وقد تملكني
إحساس خفي بالندم ، ولكنني أخذت أعزى نفسي وأقنعها كما أقنعت
صاحبي .. بأن سلامة الغاية تبرر عنف الوساطة ، وأنه « لا بد دون الشهيد من
إمبر النحل » .

فى حفلة انتخاية

يا كلاب .. يا أولاد الكلاب . لا بد لى من
تملقكم وخطب ودكم ورشوتكم بالطعام
والنقود والخطب والوعود .. حتى تجعلونى
نائبًا .. فإذا ما جعلتمونى .. فاغربوا عن
وجهى فما عادت لى إليكم حاجة .. إياكم أن
تكونوا حسنى النية فتسألونى الوفاء
بالوعود .

سرنا فى شارع خيرت حتى لاظوغلى ، ثم اتجهنا بعد ذلك إلى شارع قوله
قاصدين إلى ميدان عابدين .

وتوقفنا فى شارع قوله أمام سرادق كبير علق على مدخله مكبر للصوت ،
ونظر إلتى صاحبى متحيرًا .. ثم سألتنى قائلاً :

— ميت .. أم فرح ؟

وتحيرت أنا الآخر .. إذ لم يك مظهر السرادق ينبىء عن شىء من هذا ، فما
وجدت من الأعلام والتعليق والبطيخ الزجاجى الملون ما يقتضى بأنه « فرح »
وما سمعت صراخًا ولا بكاء ولا حتى مجرد نهبة .. حتى أجزم بأنه ميت .
ونظرت إلى صاحبى وقلت : — الظاهر أنه ميت .

وهز صاحبي رأسه متشككاً وقال :

— ميت !!؟ لا أظن .. ميت « سادة » بلا نواح ولا صياح !!

— وماذا فى ذلك ؟! ميت .. قد شرب أهله من المياه الجديدة .

— يجوز .

وهممنا بالسير .. ولكننا توقفنا عندما وجدنا رجلاً يتسلق سلمًا وضع على مدخله ، وقد أمسك بيده قطعة كبيرة من القماش أشبه بلافتة فعلقها من أحد أطرافها ثم تقل السلم فعلق الطرف الآخر .

ونظرت إلى اللافتة .. فوضح لى ما خفى ، ووجدت أننى كنت مخطئاً فى ظنى ، وأنه فعلاً لا هو بفرح ولا ميت .. بل حفلة انتخابية . فقد قرأت فى اللافتة :

« انتخابوا مرشحكم الحر الأمين .. ابن الدائرة .. عبد الواحد بك أمين »
ونظر إلى صاحبي متسائلاً فى دهش شديد :

— ما هذا ؟

ولم أجبه .. فقد بدأ صوت المكبر يعلو صوتينا ، وسمعناه يدوى قائلاً :
— واحد .. اثنين .. ثلاثة ... أربعة .. ألو .. ألو . الصوت كويس كده ؟!

ووجدتني أجيب على الصوت :

— كويس جداً .. تستطيع أن تقلق الجن فى مضاجعها . اطمئن .

وعاد الصوت يضح قائلاً :

— ألو .. ألو .. مرشحكم الوحيد .. عبد الواحد بك أمين .. انتخابوا ..
عبد الواحد بك أمين .. السياسى الحر على مبادئ مصطفى كامل ومصطفى
النحاس ومصطفى أمين .. انتخابوا مرشحكم التزىة المستقل .

وسألنى صاحبي :

— إيه الحكاية ؟

وهممت بأن أجيئه عندما علا صوت مكبر آخر ، الظاهر أنه كان موجودًا في الشارع المجاور وسمعناه يدوى قائلاً :

— مرشحكم الأوحد زينهم باشا حتحت .. الرجل العصامي .. رجل البر والتقوى .. رجل الاستقامة والجد ، زينهم باشا حتحت .. لا نائب لكم سواه .
وعاد صاحبي يسأل في دهشة :

— وما كل هذا ؟

وأجبتة مفسراً :

— معركة انتخابية .. لقد خلت دائرة عابدين بوفاة نائبها ، وهم يتطاحنون الآن على المقعد بدون فائدة .

— ولم ؟

— لأن الفائز معروف .

— كيف ؟

— مرشح الحكومة .

— ولم إذا يتعبون أنفسهم ؟

— تسالى .

وهممتا بالسير مرة أخرى عندما استوقفنا صوت يصيح بنا « اتفضل » ، ورأيت رجلا يطل علينا من الداخل وأمامه سطل نحاسى كبير قد تندى خارجه بالماء ، وأخذ الرجل يقلب ما به بمغرفة في يده ، وعاد صوته يصيح بنا :
— تفضل .. خش .

وترددنا برهة .. ولكن لسعة الشمس ولفحة الحر ، والجفاف الذى كنت أحس به فى حلقى ، دفعنى إلى « التفضل والخششان » فدخلت وصاح بنا الرجل مرحباً :

— أهلا وسهلا .

ثم بدأ يفرغ لنا من السطل « شربات أحمر مثلج » فى كويين أمامه ، وتقدم

إلينا بهما صائحا :

— في صحة عبد الواحد بك أمين .. مرشحكم الأوحـد ، وعلى روح زينهم
باشا حتحت .. مرشح الأموات .
وانطلق الرجل مقهقهها .

وتناولنا كوني الشرابات .. ونجشأنا ، ومسحنا ما تصبب من وجوهنا من
عرق ، وقادنا الرجل إلى مقعدين داخل السراـدق وسألنا الانتظار لأن « اليه »
سيشرف حالا بمجرد الانتهاء من صلاة الجمعة .

وجلسنا برهة ، وقد تعالت من حولنا أصوات المكبرات تتبادل السباب
والشتائم .. ويعلن كل عن صاحبه ، كأنه أوكازيون ، أو سيرك .. حتى لقد
خشيت أن يخطئ أحدهما فيعلن عن صاحبه قائلا : « انتخبوا مرشحكم
الأوحد ، قبل ما يلعب » أو « مرشحكم الأوحـد بنص فرنك يا بلاش » .

واستمر الضجيج يتعالى مسببا من الإقلاق والإزعاج ما لا يمكن تصويره ..
وبدأت أحس بوطأة الحر داخل السراـدق ، وجف حلقى مرة أخرى ..
فانتبهزت فرصة غفلة من الرجل الواقف على باب السراـدق ، ثم تسلسلت
وصاحبي من فتحة في نهايته ، ووجدنا أنفسنا مرة أخرى طليقين في الشوارع .
وسألني صاحبي :

— إلى أين ؟

— إلى الطرف الآخر .

وهز صاحبي رأسه متسائلا عما أعنى فقلت مفسرا :

— إلى خطوط العدو .

— أى عدو ؟

— المرشح الآخر حتحت باشا .

— ولم ؟

— نشرب كوين آخرين من الشراب .. ألدك مانع ؟

— أبداً .. ليس لدى ما يمنع .. من أن تمر على جميع المرشحين .. ما دامت المسألة فيها شربات .

ودخلنا في الشارع المجاور فواجهنا السرادق الآخر وقد علق عليه الميكروفون والافثة .. تماماً كالسرادق الأول لا يفترق عنه في شيء سوى الاسم .

وقفنا أمام مدخل السرادق متظاهرين بقراءة اللافتة منتظرين أن ندعى إلى الداخل كما سبق أن دعينا في السرادق الأول ، وأن نشرب الشربات في صحة حتجت وعلى روح عبد الواحد .. كما سبق أن شربنا في صحة عبد الواحد وعلى روح حتجت .

ولكن أحدًا لم ينادنا ولم يدعنا للتفضل .. وطال بنا الانتظار والتلكؤ حتى أصابنا الملل ، ولم أجد بداً من أن أسحب صاحبي من يده وأقتحم السرادق بلا دعوة .

ودلفنا إلى الداخل ، وتلفت حولى .. فلم أجد أثرًا للشربات .. ووجدنا السرادق خاليًا . ولكنى استطعت أن أميز بعد برهة رجلاً قد جلس في أحد الأركان مستغرقًا في النوم .

واقتربت منه وصحت محيياً « السلام عليكم » .. لعله يستيقظ ، ويقدم لنا الشربات .

وهب الرجل من نومه فزعًا وأجاب في خوف :

— عليكم السلام ورحمة الله .. أهلاً وسهلاً .تفضلوا .

وجلسنا على مقعدين مقابلين للرجل ، وانتظرت أن يقوم صاحبنا لإحضار الشربات .. ولكنه — لشدة الأسف — عاود الجلوس .. ولم تمض لحظة حتى علا شخيره واستغرق في النوم مرة أخرى .

وكرهت أن يخذلنا الرجل ، وأن نحرم شربات حتجت ، فصحت بأعلى صوت محاولاً إيقاظ الرجل :

— وحدوه .

وهب الرجل مرة أخرى في فزع شديد وأجابني :
— لا إله إلا الله .

ثم هبط مرة أخرى على مقعده ، وهمّ بأن يغمض عينيه .. ولكنني صممت
على ألا أعطيّه فرصة للنوم قصحت به :

— ازاي الصحة يا عم ..

— محسوبك عوف .. الحمد لله .. رضا .

وبدأت أستدرج الرجل إلى ناحية الشرابات .. عله يكون ناسيًا فأذكره :
— هذا الحر لا يحتمل .

— ربنا يلطّف .

— ألا يمكن أن أجد عندك كوب ماء ؟

— بالطبع .

وخرج الرجل من السرايق .. ولم أشك حينئذ أنه سيعود بالشرابات ،
ولكنني فجعت عندما أبصرت به يعود بكوب ماء يبدو أنه أحضره من الخفية
رأسًا .

وشربت من الكوب جرعة ، ثم أعدته إليه بتأفف وقلت مؤنبًا :

— لقد سمعنا أن عبد الواحد بك يسقى ضيوفه شرابات !؟

وهز الرجل رأسه وقال :

— عليّ قد حاله .

ودهشت من إجابة الرجل ، ولكنه أردف مفسرًا :

— عبد الواحد بك يسقى شرابات .. لكن تحت باشا يقدم غداء .. لقد

ذبحنا اليوم عجلا .. وسنحضر صواني الفتة ، بمجرد أن يعود الباشا من صلاة
الجمعة .

ولم يكد الرجل ينتهي من قوله حتى سمعت ضجة تقترب من السرايق ، ولحنا
مظاهرة كبيرة تلوح من على بعد .

وأخيرًا وصل « حتحت باشا » .. محمولاً على الأكتاف ، وقد علت من حوله الهتافات .. « يحيا نصير الحرية » ، « يحيا مرشح الاستقامة » .. « نموت ويحيا حتحت » .. « نحن فداؤك يا حتحت » .. « كرسي النيابة ينتظرك يا حتحت » .. ثم انقطعت هذه الهتافات الحماسية .. واستبدل بها هتاف .. ملحن .. أخذ الهاتفون يرقصون على نغماته .. وقد تربع المرشح في الوسط على أكتاف بعضهم .. وأخذ واحد منهم يصيح « عايزين مين ؟ » فيرد عليه الجميع « عايزين حتحت » .. « مين نائبكم ؟ » .. « فيش غير حتحت » .. « ابن الدائرة » .. « هوا حتحت » .

وذكرني هتافهم .. بمنظر كنت أراه في طفولتي عندما كان يسحب بعض الرجال أمامهم جملاً ويسيرون به في الشوارع صائحين : « بكره من ده ؟ » فيجيب الصبية الذين التفوا حولهم « بيقرشين » .

وازدحم السرادق بالهتافين الصائحين ، واقترب منا « حتحت باشا » .. رجل كل ما فيه محتمل إلا كلمة « باشا » .. لقد كان الرجل أشبه بالخنزير الذكر .. أسود أكرش .. قد علا قفاه سنم كسنم الجمال ، وبدت عليه أبلغ آيات الغباء .

وتقدم الباشا فجلس على مقعد كبير يتصدر المكان .. وبعد برهة .. رأيت ثلة من الفراشين قد أقبلوا يمدون المناضد داخل السرادق .. ويرصون عليها الصواني المليئة بالفريد الذي علته أكوام اللحم .

وبدأت المعركة الأولى .. معركة الطعام .. بين جمهور الناخبين طرف أول .. وصواني الفتة واللحم طرف ثان .. وأسفرت المعركة عن انتصار باهر للناخبين .. فقد مسحوا الفتة واللحم من الصواني مسحاً .

وانتهى القوم من الطعام .. وهجم الفراشون يحملون بقايا المعركة .. ويخلون الميدان من الأنقاض ..

وبدأت الجولة الثانية .. جولة الخطب .. واضطجع القوم على مقاعدهم وقد

انتفخت كروشههم ، واسترخت أطرافهم .. واعتلى المنصة الخطيب الأول
متخذًا مكانه وراء الميكروفون .. وبدأ خطبته قائلا :

— أيها الناجبون الكرام .

وأصلح الخطيب منظاره وثبته جيدا فوق عينيه .. ثم تنحنح ، وعاد صوت
المكبر يردد صياحه :

— أيها الناجبون الكرام .

وقلبت البصر في الناجحين الكرام .. فبدأ لي أن « الفتة » قد خدرت أعصابهم
وأثقلت أجنافهم .. ولم أشك في أن أذهانهم قد استغرقت في سبات عميق .. وأن
كلام الخطيب سيذهب أدراج الرياح .
ودوى صوت الخطيب للمرة الثالثة :

— أيها الناجبون الكرام .. كم وددت لو وهب الله لي فصاحة سحبان حتى
أعبر عما يجيش في صدري .. ولكن يعزيني عن ذلك أن من سأحدث عنه ليس
في حاجة إلى خطيب فصيح لكي يبين لكم أفضاله ومحاسنه .. فهي واضحة بيننا
وضوح الشمس . وليس هنا من ينكرها إلا كل مغرض أعمى .. إن مرشحنا
العظيم كان زاهداً في كرمى النيابة .. وما كان في نيته أن يزج بنفسه في معركة
الانتخابات .. لولا أن أولى الأمر فينا قد ألحوا عليه واستجاروا به .. حتى ينقذنا
مما نحن فيه ويقل عثرتنا .. ويكون لنا في مجلس النواب صوت مدو .. وسيف
بتار .. ينادى بمطالبتنا ، ويدود عن حياضنا ، ويرد إلينا حقوقنا الضائعة ..
ومصالحنا المسلوقة .. لقد لجأنا إليه لأنه منا .. فلو انتخبناه فإن كلا منا يكون قد
انتخب نفسه .. وإذا فاز بمقعد النيابة فكأننا كلنا قد فرنا به .

سأسرد لكم شيئاً عن تاريخ حياته .. حتى تروا أى بطل هذا الذى يجلس بيننا
جلسة التواضع .

نشأ « زينهم باشا ابن حنحت باشا » في بيت كريم المحتد عريق الأصل بتفرع
نسبه من بيت رسول الله ﷺ .. ولم يحاول هو أن يعتمد على ثروة أبيه ، بل شق

طريقه بنفسه .. وبدأ يخوض غمار الحياة معتمداً على عزيمته وعلى خصاله ..
وجلده وقوته .. فأخذ يثب من نجاح إلى نجاح .. وهكذا نشأ الرجل نشأة
عصامية بحثة رغم ثراء عائلته ، فجمع بذلك قوة النشأة وطيب الأصل .

وهكذا ترون أن « زينهم باشا » مفخرة الحى ، بل مفخرة الوطن .. « زينهم
باشا » ابن عابدين البكر .. الذى يمسك التراب فيضحى تبراً .. الرجل المفضل
الكريم .. الذى يفتدق على المحتاجين والفقراء ويسد حاجة المعوزين .. والذى له
علينا فى كل يوم آية فضل وإحسان .

هذا هو « زينهم باشا » .. الساحر البيان .. الفصيح اللسان .. الثابت
الجنان .. القوى الإيمان .. الشديد الحنان ، الذى لا يرد سائلاً ، ولا يخيب
مسعى .. هذا هو زينهم باشا محط آمالنا ومعقد رجائنا .

ومد الخطيب يده فجزع كوباً من الماء .. ثم جفف عرقه بمنديل فى يده ،
وعاد يتمم خطبته :

— هذا هو زينهم باشا .. الرجل النموذجى الكامل ، الذى لم تشب سمعته
شائبة ، الرجل القويم ، النزيه الصادق الوعد .. العف اللسان .. الشديد فى غير
عنف .. اللين فى غير ضعف .

قارنوا بينه وبين هذا الأفاق الذى يحاول أن يتناول إليه .. فيزاحمه فى
دائرته .. هذا الدجال المحتال ، المتقلب ، المتلون .. يا لضبيعة الدائرة ، التى
هانت حتى أضحى أمثاله يرشحون أنفسهم لكرسى نيابتها !! كيف يجروء على
منافسة زينهم باشا ؟! كيف يجروء على أن يقارن نفسه بهذا البطل العبرى الذى
يتوقد ذكاء ونشاطاً ؟

وفجأة توقف الرجل عن الاسترسال فى خطبته فقد قاطعه صوت شخير عال
ينطلق مصحوباً بصفير طويل ، ونظر حوله يبحث عن مصدر الشخير
والصفير .. فإذا هو به نفسه البطل العبرى الذى يتوقد ذكاء ونشاطاً .
وصمت الخطيب ، وران فى السرادق سكون إلا من صوت الباشا الشاخر

الصارفر .. وقد سقط رأس الخنزير على صدره وبرز سنام الجمل في قفاه وتدلّت شفته السفلى وسالت رياله على صدره .

ونظر إليه الخطيب وأخذ يهز رأسه في صمت ودهشة .. ووجدت صاحبي « أبا شولخ » يقرصني في يدي .. وفهمت ما يعنى ، وخفقت في وجه الخطيب فإذا بأعراض الأخلاق قد بدأت تظهر عليه .. وإذا بجرعة الماء قد فعلت مفعولها .. ووجدتني أرهف السمع والبصر إلى مشاهدة ما يوشك أن يقع من أحداث خطيرة .

ومضت فترة صمت والخطيب يهز رأسه وينظر إلى « زينهم باشا » دون أن يتكلم .. وأخيرًا نظر إلينا ، وسألنا في لهجة يائسة ساخرة :

— بقى بالذمة دا منظر ١٩ .. أهذا شكل باشاوات ؟ .. أهذا هو البطل العبرى الذى يتوقد ذكاء ونشاطًا ؟! أهذا الذى تسيل رياله كالمعاتيه والمجازيب هو الذى سيطالب بحقوقنا فى مجلس النواب ؟! والله لقد ظلمنا أنفسنا وظلمنا مجلس النواب !

يا للضيعة وضبعة البلد التى تهب أمثالك كرسى النياية : وأنت لا تستحق إلا كرسيا فى قهوة بلدى .. أو كرسى مطبخ !
أأنت من نسل النبى ؟ .. أستغفر الله العظيم .. أهذا الشكل الحلاليفى الزرايى من نسل النبى ؟!

أبوك تحتت باشا من بيت كريم المحتد عريق الأصل ١٩ الله يرحم أبوك .. ويرحم القرد والمعزة والرق ، وجراب الحاوى .. الله يرحم المعلم تحتت .. الذى حفيت قدماه من فرط اللف فى الحوارى .

أأنت القويم ، النزيه .. الصادق الوعد ، العف اللسان .. يا من لم تر حارات عابدين أقذر منك لسانًا ولا أخط خلقًا ؟! أأنت الرجل الكامل النموذجى .. أم الرجل النموذجى السيئات الكامل النقائص ؟!

مالك والنياية !! هل ظننت أن المال الذى جمعته بالغش والسرقة والتجارة فى

السوق السوداء يستطيع أن يهبك كل شيء .. قم لعنة الله عليك وعلى أيك وعلى كل من ينتخبك .

واستيقظ « زينهم باشا » على صوت الخطيب ، وقفز من مكانه فزعًا . ووقف برهة ينصت مأخوذًا إلى اللغات التي تكال له .. ويحلق في الخطيب في ذهول شديد .. ثم أفاق لنفسه ، وصاح بخدمة يأمرهم بالقبض على الرجل المجنون وإلقائه خارج السرادق أو تسليمه للشرطة .

وتكأ كالأخدम على الخطيب .. فأوسعوه ضربًا .. واختفوا به عن أبصارنا وقد علا صياحه إلى عنان السماء .

واعلى « زينهم باشا » منصة الخطابة مصرًا على أن يخاطب في الناهيين بنفسه غير معتمد على أحد من الخطباء المأجورين ، ووقف أمام المكبر وقد بدا عليه ارتباك شديد ، وأخذ يتحنس الكرافة .. ثم يضع يده في جيب البنطلون ويخرجها بضع مرات .. ويتنحنح ويصق .. ثم يفرغ ماتبقي من المياه في الدورق فيملاً به الكوب ويشربه .

وأخيرًا نطق الباشا .. بعد أن وضع أمامه ورقة مكتوبة :

— أبناء وطني .. لست أريد أن أثقل عليكم بالخطب الرنانة ، فإن شعارى دائمًا .. العمل في صمت .. لا أقول إلا ما قل ودل ، ولا أفعل إلا ما أفاد ونفع . إياها الإخوان الكرام .. سألخص لكم مبادئى في كلمات قلائل ، وسأبين لكم الأغراض التي أنوى تحقيقها إذا ما فزت بأصواتكم وأصبحت نائبًا عنكم . إن أهدافى التي أبغى الوصول إليها تنقسم إلى قسمين : عامة وخاصة ، أو أهداف للوطن وأهداف للدائرة .

أما أهداف الوطن فهي وحدة وادى النيل تحت التاج المصرى وطرد آخر جندى إنجليزى من مصر والسودان .. هذا عن الناحية الخارجية .. أما عن الإصلاح الداخلى فسيكون هدفى إصلاح حال الفلاحين والعمال ورفع مستوى المعيشة بين الطبقات الفقيرة .

أما أهداف الدائرة .. فأني أعاهدكم ألا يبقى بينكم عاطل .. أو مظلوم ، وأن
أفتح صدرى لكم جميعاً .. وأن أكون في المجلس كأنتي خلاصتكم .. أو كأنتكم
في المجلس .. وأن أفعل ..

وصمت الرجل ، ثم أخذ يكرر :

— وأن أفعل .. وأن أفعل ..

ثم نظر إلى يمينه فجأة وصاح غاضباً موجهاً القول إلى رجل معمم يجلس
بجواره :

— انت يا شيخ على .. الله يخرب بيتك .. ماذا كتبت يعد « أن أفعل » ١٩
إن خطك لا يقرأ .

ثم كور الورقة في يده وقذف بها في وجه الشيخ « على » وبصق عليه .
ولم أكن في حاجة هذه المرة إلى قرصة صاحبي حتى أدرك أن النفاق قد تبدد
من نفس « زينهم باشا » ، وأن جرعة الماء قد سرى فيه مفعولها .. فقد تبينت
أعراض الأخلاق على وجهه ، واضحة جليلة .

وبدا لي كأن هناك صراعاً في جوف الرجل ، وأن النفاق المتحكم في نفسه
يأبى أن يتوارى وراء الصراحة الطارئة .. وأنها تقاومه مقاومة شديدة .. ومضت
برهة والرجل تبدو عليه حيرة شديدة ، وكأنه هو نفسه في دهش مما يحدث في
داخله من صراع خفي ومعركة مستترة ، وأنه بات مذهولاً من هذا الدافع
العجيب الذي يدفعه إلى أن يكون إنساناً آخر غير نفسه .

وظللت أرقب الرجل مراقبة دقيقة .. كما نرقب أرنباً أو فأراً تجرى عليه إحدى
التجارب .

وفجأة رأيت الرجل يندفع في قهقهة عنيفة عالية .. ثم يصيح بصوت يتخلله
الضحك :

— شيخ « على » .. الله يخيلك يا شيخ « على » .. ما هذا الكلام الفارغ الذي
كتبته لي في الورقة .. مبادئ إيه وهباب إيه .. من قال لك إني صاحب مبادئ .. أنا
(أرض النفاق)

صاحب عمارات .. وصاحب أطيان .. وصاحب مصانع .. وصاحب
ثروة .. وصاحب لقب .. وصاحب كل شيء إلا المبادئ .. اللهم إلا إذا كان
النفاق والفش واللؤم .. والاحتيال .. تسمى مبادئ .

ما هذا التهريج الذى حبثت به الورقة ؟!

وحدة وادى النيل ؟!

وانطلق الرجل مرة أخرى فى قهقهة شديدة وأخذ بدنه يهتز ويترنح ، ثم عاد
صياحه :

— آنا أدخل مجلس النواب لأحقق وحدة وادى النيل ؟.

والله لقد هزلت .. ولو كانت وحدة وادى النيل ستستظر حتى تتحقق على
يدى .. فلا كنا ولا كانت الوحدة .

ثم لماذا نطلب وحدة وادى النيل ؟

وماذا يمكن أن نفيد من وحدة وادى النيل .. ونحن شعب إذا نقل موظف
منا إلى جرجا .. شيعناه بمناحة !

هل تعلمون أنه قد مضى على ثلاثة أشهر ولا عمل لى إلا التوسط فى نقل
« محمد » ابن اختى .. حتى أعيده إلى القاهرة . من أين ؟.. من الجيزة .

مالنا ولوحد وادى النيل .. أليس من الأفضل أن نطالب بوحدة مصر
أولا .. ومن نطالب بالوحدة ؟! الإنجليز ؟!

أنا رجل جاهل .. ولا أدعى قط علماً بالسياسة .. ولكنى مع ذلك أعرف
أن أبسط طرق الوحدة أو الاتحاد بين فردين أو جماعتين .. هو التزاور والاختلاط
والامتزاج والتحاب وتبادل المنافع حتى يصبح لا غنى لأحدهما عن الآخر ..
وحتى يصبحا كفرد واحد ولا تستطيع أن تحول بين اتحادهما أية قوة .. أما أن
يظل أحدهما بمنأى عن الآخر .. كالكسيح المقعد .. ثم يتباكى ويتصاخب ..
ويعلم أنه يريد الوحدة .. فذاك هو الهذر والتغفيل .

على أية حال هذا مجرد حديث .. أنا لا شأن لى بهذه الشؤون السياسية ،

وما فكرت قط في الوحدة ولا في غيرها .

أما الجلاء .. فلا أكتكم القول أنى آخر من أفكر فيه أو أرحب به .. كيف لا .. ولحم أكتافى من أموال الخليفة .. ومما وردته لها خلال الحرب .
إن هدفى الأول من دخول مجلس النواب هو أن أصبح نائباً محترماً ، وأن يقال لى حضرة النائب المحترم .. ألا ترون معى أنه لقب ضخم رنان .. وأنه يتيح لى كذلك أن أخوض معمة السياسة .. ومن يدرى ربما استطاع أن يقفز لى إلى كرسى الوزارة فأضحى معالى .

أيها الناخبون الكرام .. أنتم كرام حتى تنتخبونى .. فإذا ما فزت فى المعركة فأنتم أوغاد للثام .

يا كلاب .. يا أولاد الكلاب . لا بد لى من تملقكم وخطب ودكم ومجاملتكم ورشوتكم بالطعام والنقود والخطب والوعود .. حتى تجعلونى نائباً .. فإذا ما جعلتمونى .. فاغربوا عن وجهى فما عادت لى إليكم حاجة .. إياكم أن تكونوا حسنى النية فتسألونى الوفاء بالوعود .. إياكم أن تطلبوا منى التوسط فى قضاء حاجتكم فإنى أوكد لكم أنى لن أجد من وقتى فسحة لسماع سخافاتكم .
أيها الرعاع الحوش .. لقد ذبحت لكم عجلاً .. أنزله الله فى جوفكم بالسم الهارى .. وأطعمتكم « فته » جعلها الله فى بطونكم ناراً كاوية .. أنتم قوم لا تتحركون إلا للمنفعة .. منفعة الجيوب أو البطون .. أليس كذلك يا شيخ « على » ؟ .. لقد لدعت منى ثمنًا للخطب التى كتبها جنبيين غير الفداء والعشاء .

أيها الناخبون اللثام ..

لِمَ نضحك على بعضنا ؟ .

لِمَ لا نكون صرحاء فنكف عن هذا الخداع ؟! أنتم سفلة ، وأنا أشد منكم سفالة . أنتم خيلاء أشرار ، وأنا أكثر منكم خبئاً وشرًا .. أنتم نفعيون ، وأنا بلا مبادئ .. ما الداعى إذن لأن نتشدد بهذه الخطب الرنانة ، وبوحدة وادى

النيل ، ورفع مستوى المعيشة ، وغير ذلك من الأقوال البراقة الخداعة ؟
أنا أريد أن أكون نائبا ، وأنتم تستطيعون أن تعطوني ما أريد .. المسألة لا تزيد
عن أن تكون مجرد صفقة .. « خد واعطى » .

سأخذ أصواتكم وأعطيكم ثمنها .. لا تنتظروا منى وعودا ، فأنا لا أشتري
« شككا » سأدفع لكم نقدا .. الصوت بخمسين قرشا .. ما رأيكم ؟
وتعال الصبيحات من أركان السرادق مختلفة مشوشة « خمسين قرش يعملوا
إيه ؟ » أو « خليه بجنه » أو « موافقين » .

وعاد « زينهم باشا » يصيح في وسط الجمع :
— لن أدفع أكثر من خمسين قرشا .

ثم التفت إلى يمينه قائلا :

— يا شيخ على .. استبدل كل الكلام الذى كتبه للنشر فى الأهرام بما سأقوله
لك :

« يعلن زينهم باشا تحت أهل دائرة عابدين اللام أنه قد جعل لأصواتهم
تسعيرة محددة هى خمسون قرشا للصوت وسيكون الدفع فورا أمام مكاتب
الانتخابات ، والذى لا يعجبه السعر .. فملعون أبوه فى الأرض » .

وهنا تعالى صياح الناخبين :

— ملعون أبوك انت لأبو الى يتشددو لك .

وبدأت المعركة حامية الوطيس ، تعالى الصراخ وتطايرت الكراسى فى
الهواء ، وانهار السرادق على من فيه .

وخرجت وصاحبى نعدو .. هارين من المعركة .. حتى وصلنا إلى شارع
حسن الأكبر ، فوقفنا نلهث ونجفف عرقنا المتصبب ، ووجدت صاحبى ينظر
إلى حانقا ويقول :

— أنت المسئول عن كل هذا .. لقد ارتكبت فعلا نكرا .. هذه الدماء التى
سالت ، والمعارك التى نشبت ، أنت المسئول عنها . إن الذنب كله فى عنقك .

— عنقى أنا ، ولم ؟! أهو أنا الذى دفعتهم إلى التفارك والتقاتل ؟
— أنت الذى أزلت من نفوسهم النفاق .. أنت الذى كشفت ما ستر من
خبائثهم .. لقد كان لهم من النفاق حجاب واق فهتكته .. وأضحى كل منهم
يرى صاحبه على حقيقته ففزعوا وجزعوا .. ألم أحذرك من كل هذا ؟
— صبراً لا تخف عليهم .. لقد قلت لك إن كل انقلاب لا بد له من ضحايا .

(١٥)

وباء الأخلاق

« صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء .
لا تشربوا ماء الأخلاق ، ففيه المصاب وفيه
البلاء .. اشربوا فيشى إن أمكن ففيه الشفاء
وفيه الوقاء حفظكم الله من الأخلاق ومن كل
وباء » .

وصلنا إلى باب الخلق .. فوجدنا في الميدان صخبًا وضجيجًا ، وسمعنا صفافير
تطلق ، وأبصرنا حشدًا من الناس أمام المحافظة ، وسألنا عما حدث ، فقيل لنا إن
بعض المذنبين قد فروا من التحشية .. لأن الحراس قد أطلقوا سراحهم زاعمين
أنهم لم يفعلوا أكثر مما يفعل كثير من الزعماء والوزراء والكبراء الذين ما زالوا
مطلقى السراح يتمتعون بكامل حريتهم وجاههم ونفوذهم وسلطانهم .
ونظرنا إلى صاحبي في أسف ، وقال :
— وهذا أيضا أنت سبيه .. فلا بد أن الحراس قد شربوا من المياه الجديدة
ففعلوا ما فعلوا .

— ونعم ما فعلوا .. فقد حققوا مبدأ المساواة .. فإما أن يطلق سراح المذنبين
الفقراء ، وإما أن يقبض على المذنبين من الكبراء ، ولقد فعلوا هم ما يستطيعون
فعله فأطلقوا سراح مذنبهم .

وسرنا في شارع محمد على متجهين إلى العتبة .. ولم نكد نسير في الشارع برهة حتى وقفنا متسمرين ، وقد تملكنا ذعر شديد فقد رأينا جسداً يهوى إلينا من الدور الرابع لأحد المنازل .

ووقفنا ننظر إلى حطام الجسد مرتاعين ، ونظرنا إلى أعلى فوجدنا رجلاً يقف في الشرفة التي هوى منها الجسد وسمعناه يصيح بنا ضاحكاً :
— ما تخافوش .. دى حماقى .. عقبال عندكم .

وتكأ كأ الناس حول الجسد ، وازداد التزاحم ، وتعالى الصياح ، وتسلفت وصاحبي من بين القوم .. ونحن نسمع تعليقات القوم حول الحادث :
« لا .. بسيطة دى حماة على أفندى » .. « ما تتخضوش دى حماة على أفندى » ، « ما فيش حاجة .. دى حماة على أفندى وقعت من الدور الرابع » .
ووجدت صاحبي ينظر إلّى متسائلاً وقد أبصر بوجهي علامة حزن :

— انت زعلان على حماة على أفندى ؟

— لأ .. أنا زعلان لأنى ساكن في الدور الأول .

ونظر إلّى صاحبي ضاحكاً وأجاب :

— يا سيدى .. من لم يمت بالسيف مات بغيره .

وعاودنا السير .. ونحن نسمع من كل بيت غمر به صياحاً وضجيجاً ، ونبصر في كل حانوت .. معركة حامية .. ووجدنا الشحاذين قد تبدلت دعواتهم فأصبحت لعنات ، ولم نعد نسمع « ربنا يجعل بيت المحسنين عمار » ، بل « هات حسنة الله يخرب بيتك » .

ووصلنا إلى العتبة ، فإذا بالترام معطل ، وحركة المرور واقفة ، والمعارك قد اشتد أوارها .. واتجهنا إلى ميدان الأوبرا .. فلمحنا عربية إسعاف تمر كالبرق .. ثم تقف أمام الكونتنتال .. وبعد برهة لمحا جسداً يخرج على نقالة وقد عصب رأسه وشد ذراعه إلى عنقه ، وسألنا رجلاً يقف على قارعة الطريق عما حدث وعما يعرفه عن الرجل الذى حملته عربية الإسعاف ، ونظر إلينا الرجل وأجاب :

- ده إبراهيم باشا زكى .
— إبراهيم باشا زكى وزير الأشغال ؟
— أجل .
— وماذا حدث له ؟
وهز الرجل كتفيه وأجاب ببساطة :
— كان عنده حفلة تكريم .
ونظر إلى صاحبي فى غيظ وسألنى :
— أيعجبك هذا ؟
— جدًا .
— أنت رجل سوء وشر .
— أبدًا والله .. هذه هى الطريقة الوحيدة لإبطال حفلات التكريم والكف
عن هذا التهريج وتلك المسخرة . هل تظن أن هناك وزيرًا سيقبل أن تقام له حفلة
تكريم .. بعد أن لقى زميله من وسائل التكريم ما حمله إلى الإسعاف ؟
وكان التعب قد أخذ منا مأخذه .. فقد بلغت الساعة السادسة مساء ، وقد
أمضينا اليوم فى حركة مستمرة تنتقل من مكان إلى مكان .. نشاهد زوال النفاق
من النفوس وآثاره المروعة .
ونظرت إلى صاحبي وقلت له :
— إنى لم أعد أحتمل السير .. ألا تحس أنت بالتعب ؟
— إنى أشد منك تعبًا .. ليتنا أرحنا أنفسنا وأرحنا الناس .. ليتك لم تلق
المسحوق فى النهر فتلوته بالأخلاق ، من يدرى كيف سينتهى الحال بالدنيا
وبالناس .. إن بى عليهم جزعًا شديدًا .
— لا تخف .. سليمة إن شاء الله .. هيا بنا إلى الحانوت نقضى فيه ليلتنا حتى
نستطيع أن نبدأ فى الصباح .. جولة جديدة .
وعندما انتهيت من قولى ، وجدت رجلا قد وقف بجوارنا يهدف السمع

وينصت إلينا وقد بدت عليه علامات الدهشة ، وخيل إلّى أنه من المخبرين ، فلم أجد خيراً من أن أشرع بالفرار وصاحبى .. قبل أن يتسرب إليه الشك بنا فيلقى القبض علينا .

واتخذنا طريقنا إلى الحانوت فوصلناه قرب العشاء ووقفنا أمام الباب نتحسس موضع المفتاح فى الظلمة .

ثم أضأنا عود ثقاب استعنا به على فتح الباب .
ودخلنا الحانوت وأخرج صاحبى الفأر فأطلقه بين الشوالات ثم أشعل المصباح وفرش لنا شوالين على الأرض تمدد على أحدهما وتمددت على الآخر .. ولم تمض لحظة حتى رحنا فى سبات عميق .

* * *

ولست أدرى كم مضى علينا ونحن فى سباتنا ، ولكن استيقظت فجأة على طرقات شديدة يباب الحانوت وأصوات تصايح :
— افتح .. افتح .

وهبت من نومى فرعاً ، ووجدت صاحبى قد وقف بجوارى ينتفض كريشة فى مهب الريح ، وأصبنا بحيرة فلم ندر ماذا نفعل .. وعادت الطرقات تتوالى والأصوات تصيح بنا بشدة :

— افتح .. افتح .

وراح صاحبى يقول بصوت مرتعد :

— من ؟

وأجابه صوت غليظ صاخب :

— قلنا لك افتح .

ورأينا الباب يهتز تحت طرقاتهم ويكاد يتهاوى أمامهم .

وسألنى صاحبى هامساً .

— من تظن الطارقين ؟

— هل عرفتما جرمكما الشنيع ؟ .. هل رأيتما مدى ما جرّه على الناس من بلاء ومصاب ؟ لقد تركتما البلد كمرجل يغلي .. وأنتما هنا راقدین فی هدوء كأنكما ما فعلتما إثمًا ولا جرماً !؟

وبدأت أستعيد رباطة جاشي وصحت بالرجل :

— ما هذا الذى تهرف به ؟! إثم وجرم .. ووباء وجرائم .. منذ متى كانت الأخلاق وباء ؟ .. هل تظن أننا ننكر ما فعلنا .. أو أننا نخشى مغيبته ؟ .. إني أنا الذى وضعت مسحوق الأخلاق فى النهر .. وأنا الذى لوثت المياه — على حد قولكم — بجراثيم الأخلاق .. ونشرت وباء الأخلاق بين الناس وضيعت من نفوسهم النفاق .. أنا الذى سأصلح الدنيا وأعبر شرورها .

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

وتبادل الشرطة النظرات وهزوا رؤوسهم ثم قال أحدهم :

— مجنون !!

وصدق الآخرون على قوله .. وأجابه أحدهم :

— وأشد منهم جنونًا هذا الأحمق الذى بجواره .. الذى تركه حتى « أتى بما لم تستطعه الأوائل » ، فمزق عن الناس حجب النفاق ، وكشف دخائلهم .. فولوا من بعضهم فرارًا وملكوا رعبًا .

وصمت برهة ثم صرخ لى :

— هيا تقدم أمامي .

ومد يده فأمسك لى من قفای كأى أفاق شرير ، وتقدم آخر ففعل بصاحبى نفس الفعل .. وقد حاول التخلص من قبضته صائحًا :

— لحظة واحدة أحضر شولخ وأغلق الحانوت .. إني أخشى على البضائع التى

به .. من يدرى قد تنقلب الدنيا .. فتصبح ذات قيمة ويروج سوقها ويقبل عليها الناس .

وتركه الشرطى برهة حتى أحضر فأره ثم أغلق الحانوت . وتقدم بجوارى

وهزرت كفى وأجبتة :

— من يدري .. ربما كانوا زبائن من الزبائن الذين فتحت شهيتهم على الأخلاق الحميدة فأقبلوا مندفعين يريدون أن يتناعوا منها قبل أن يسبقهم غيرهم .
وهز رأسه متشككاً وقال :
— لا أظن .

— قد يكونون لصوصاً تذوقوا المياه الجديدة وأدركوا أن المستقبل قد أضحي للأخلاق الحميدة ، فأقبلوا يسرقونها ويبيعونها للناس في السوق السوداء .
— لا أظن .. فلو كانوا قد تذوقوا المياه الجديدة لمنعتهم من السرقة .
وهنا كان عيل صبر الواقفين بالباب .. وأخذ الباب يترنح أمامهم فلم نجد بداً من أن نفتحه .
وفتحنا الباب .. فراعنا أن نجد الشرطة ومعهم ذلك الرجل الذى كان ينصت إلينا .

ولم تمض برهة حتى كنا مكبلين بالأغلال .
ووقفت أتساءل فى دهشة عن سبب إلقاء القبض علينا ، فأجبنى الرجل الذى كان ينصت إلينا :

— كفى استهبالاً .. أنت أدري الناس بالجريمة التى ارتكبتها .
— أنا لم أرتكب أية جريمة .. ولا أدري شيئاً عن التهمة الموجهة إلينا .
— أيها المجرم الشرير .. ألم تعترف أنك أنت نفسك الذى لوثت المياه بالجراثيم ؟
— أية جراثيم ؟

— جراثيم الأخلاق .. لقد أفسدت الدنيا وقلبت حالها .. لقد أصبت الناس بوباء الأخلاق ، وأضعت من نفوسهم الرياء والنفاق .. ولن ينفع فى شفائهم بنسلين .. ولا مصل واق .

ووقفت وصاحبى أمام الشرطة وقد تملكنا دهش شديد وأخذنا ننظر إلى الرجل الثائر الخائى وهو يكيل لنا التهم ويهدر صائحات :

وسرنا وقد أحاط بنا الحراس .. الذين أنباؤنا أننا سنوضع في السجن رهن التحقيق .

وخطر لى أن أحاول رشوة الحراس حتى يطلقوا سراحنا ، ولكنى خشيت أن تكون المياه الجديدة قد سرت فيهم وأن يكونوا هم الآخرين قد أصيبوا بوباء الأخلاق فيرفضوا الرشوة وتكون جريمتنا مضاعفة .

وكان النهار قد بدأ .. ورأينا باعة الجرائد ينطلقون في الطرقات صارخين : « وباء الأخلاق يا جدع — الميكروب الجديد — الكارثة الكبرى » .

وبدا لى من صباح باعة الجرائد ومما رأيت في الشارع من آثار التخريب والتدمير وانتشار رجال البوليس في الطرقات .. أن المسألة جد خطيرة .. أخطر كثيراً مما كنت أتصور .

واستأذنت الحراس في أن نبتاع بعض الجرائد والمجلات حتى نطلع على ما حدث في البلد من تطور وعلى ما حل بالناس من نوائب ومصائب . وناديت أحد الباعة فتابعت نسخة من كل ما معه حتى أتسلى بقراءتها في الطريق وفي السجن . وجلست في الترام ، وأمسكت بالصحيفة اليومية الأولى .. فقرأت في صفحتها الأولى بالخط العريض :

« ظاهرة عجيبة ينتج عنها حوادث خطيرة »

ثم كتب أسفل هذا العنوان عناوين أخرى فرعية أصغر حجماً من العنوان الرئيسى جاء بها :

« أحد الوزراء يضرب ضرباً مبرحاً في حفلة تكريمه »

« خطيب يحن في أحد الجوامع »

« قتل ما يقرب من ألف وخمسمائة حماة »

« فرار ما يربو على الخمسة آلاف زوج من زوجاتهم »

« أحد العظماء يموت ضرباً بالنعال من بعض أتباعه الأوفياء .

« الشيخ نور العيون يعلن ثورته على المايوه ذى القطعتين ويقول إن واحدة منها

فيها الكفاية .. ويجبذ مبدأ العراة والسير ملط » .
« الأستاذ بلبوش رئيس جمعية منع المخدرات .. يلقي محاضرة في قاعة إيوارت
عن تمييز « الجون هيج » عن « الديوارس » ويختم محاضراته بذكر بعض فوائد
الحشيش ويقول أنا جدع » .
ولم تدهشني العناوين كثيراً فما كنت أتوقع أقل من ذلك بعد أن زال النفاق
من النفوس ، وأخذت أقلب صفحات الجريدة بين يدي .. فوجدت كل ما فيها
قد تغير وتبدل .

أجل .. إن الجريدة نفسها قد أصبحت بلا نفاق .
من يتصور هذا !!؟ من يتصور صحافة بلا نفاق ؟ أو نفاقاً .. بلا نفاق !
وكنا قد وصلنا إلى ميدان باب الخلق ، وقادنا الحراس إلى — التخشبية —
حيث أدخلت وصاحبي إلى حجرة ضيقة قد وضع على أرضها المسفلتة « برش
ودكة خشبية » .

وتربع صاحبي على الأرض وجلست على الدكة ، ورأيت ينظر إلى ويقول في
استسلام ومسكنة :
— أيعجبك هذا ؟

— صبراً .. فأخلق بذي الصبر أن يرى فرجاً .
— صبراً إلى متى .. إلى أن يوضع حبل المشنقة في عنقينا ؟
— حبل المشنقة !! قال الله ولا فالك .. إنه ما زال أماننا تحقيق طويل ..
ومحاكمة أطول .. نستطيع أن نطلب فيها شهادات الزعماء والوزراء ..
فيضيعون الساعات الطوال في الدفاع .

— الدفاع عنا !!؟
— لا .. الدفاع عن أنفسهم .
— ولم ؟
— فرصة سانحة ، يشيدون فيها بفضائلهم ومحاسنهم ويعددون مساوئ

خصومهم .. ولا تنس كذلك الوقت الذى سيضيعه المحامون .. فى سبيل الظهور والشهرة ، لا فى سبيل الدفاع .

وأطرق صاحبي برهة .. ثم رفع بصره أخيراً وقال فى حزن :
— على أية حال .. لست أرى فائدة فى كل هذا الوقت الضائع ما دمنا سنشئق إن عاجلاً أو آجلاً .

— نشئق ؟ أيها الغبى .. علام نشئق ؟ إن القتل قد أضحي — ديتة — عشر سنين . فماذا فعلنا نحن حتى نشئق ؟!

— هذا القتل الذى تعنيه .. قتل سياسى .. أما نحن فحاولنا تلويث المياه بجراثيم الأخلاق .. ونشرنا بين الناس وباءها الفتاك .

— ومن قال لك إن هذه ليست تهمة سياسية ؟
ونظر إلى الرجل فى دهش وتساءل :
— وأى سياسة فيها !!

— نستطيع أن ندعى أننا لم نقصد بتلويث المياه الجراثيم سوى إصابة خصوم الحكومة .. الخونة .. الأشقياء .. بداء الأخلاق .. وتبقى الحكومة بلا أخلاق .. تصور الفائدة الكبرى التى تستطيع أن تجنيها الحكومة من ذلك ، والضرر البالغ الذى يصيب خصومها .

تصور خصوم الحكومة ومعارضيه .. وقد فقدوا كل قدرة على الشغش والخداع والتفجير بالشعب .. والتهويز والتهويل والتبريج ، والجري وراء الحكم ، والمصلحة الذاتية ، والأنانية والكذب والرياء والنفاق .

تصور خصوصاً شرفاء ومعارضة نزيهة أمينة عفة اللسان .. أمام حكومة لم تصب بعد بداء الأخلاق ولم تشرب — المقلب — الذى شربته المعارضة وتجرعه الخصوم !

أترى هناك جميلاً يمكن أن نصنعه فى الحكومة أكثر من هذا ؟ أهنالك سبب أقوى من هذا يحملها على تبرئتنا ؟!

— وهل تظن أن الحكومة ستخضع بادعائنا ؟

— ولم لا ؟

— لأننا لوئنا كل المياه .. فكيف نزعم أننا لم نكن نقصد الحكومة ضمن من قصدنا .

— نستطيع أن نرسل الآن برقية لرئيس الحكومة نحذره فيها من شرب المياه حتى تثبت بذلك حسن نيتنا .

ووجدت الفكرة صائبة .. ووجدت فيها خير منقذ لنا ، وأخرجت من جيبى ورقة وقلماً وكتبت صورة التلغراف الآتى :

« صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء .

لا تشربوا ماء الأخلاق ، ففيه المصائب وفيه البلاء .. اشربوا — فيشى — إن أمكن ففيه الشفاء وفيه الوقاء .. حفظكم الله من الأخلاق ومن كل وباء » .
وقرأت البرقية على صاحبي وسألته :

— ما رأيك ؟

ولم يجب على سؤالي بل هز رأسه وقال فى يأس :

— وماذا تفعل إذا رد عليك « شربنا والى كان كان » ؟

— لا يهم الرد .. المهم أن تصل إليه البرقية حتى تثبت حسن نيتنا ..

وطرقت الباب منادياً أحد الحراس ثم دفعت الورقة من أسفل الباب سائلاً إياه أن يرسل البرقية إلى رئيس الوزارة .

وهبطت على البرش بجوار صاحبي .. فقد كانت جلسة « الدكة » متعبة .. ثم أمسكت بكوم الجرائد .. لأضيع الوقت بالقراءة ، ولأرى كيف أضحت الصحافة بلا نفاق بعد أن أصابها هى الأخرى وباء الأخلاق .

(١٦)

صحافة بلا نفاق

أيها القراء المخدوعون .. إن هدف
الصحيفة الأول .. أية صحيفة .. ليست
الوطنية .. ولا الثقافة ، ولا خدمة الشعب ،
ولا حرية الرأي ، ولا رفع منار الفضيلة :..
ولا .. ولا .. ولا شيء أبداً من كل هذه
الخزعبلات .. إن هدف الصحيفة الأول هو
بيع الصحيفة .. هو المكسب ، هو أكل
المعيش .

فتحت إحدى الصحف الشهيرة ملفت نظري في أولى صفحاتها مقال بعنوان
« أكل عيش » لأحد كبار الكتاب الذى تلتهب مقالاته حماسة وتفويض إخلاصاً
وقوة .

وأدهشنى العنوان بعض الشيء .. فما تعودت أن أقرأ للكاتب الصادق
المخلص .. مقالات بمثل هذه العناوين الباردة ، وأخذت في قراءة المقال فإذا به كما
يأتى :

« أكل العيش وما أدراكم ما أكل العيش ؟ أكل العيش يفعل بنا العجب
العجاب .. ولكن أهو حقاً مجرد أكل عيش ! أعنى العيش الخاف أو حتى العيش

والغموس .. لا يدفع بنا إلى كل هذا النفاق .. والتهويش والتهريج .. أكل العيش لا يستلزم منا كل هذا الجهد والتفنن في الرياء والنفاق .. إن الطمع هو الذى فعل .. الطمع لا فى أكل العيش ، بل فى أكل البقلاوة والجاتوه .

من منكم ذاق طعم المصاريف السرية ؟ أقسم لكم أنى معنور فى هذا النفاق .. الذى طالما سقته إليكم فى مقالاتى وأقسم أن أى إنسان كان فى موضعى وذاق مثلما ذقت لما كان أقل حماسة ولا نفاقاً .

أنتم لا تعرفون إلا القليل عما يجرى وراء الكواليس .. كواليس الصحف .. فكل ما تعرفونه هو هذا المظهر الخارجى الذى يبدو لكم على مسرح الصحيفة ، وكل ما ترونه من الكتاب الذى يبدو على صفحاتها .. هو تلك المقالات البراقة الزائفة التى فعل بها الماكياج ما فعل .. والتى تخرج كلماتها من بين أنامل الكتاب .. الأنامل المأجورة .. لا من بين الضلعوع أو من أعماق القلوب . كل ما ترونه أمامكم ليس إلا مقالات بالثمن .. إما لسد خانة وملء فراغ أو لحاجة فى نفس يعقوب .

أيها القراء المخدوعون .. إن هدف الصحيفة الأول .. أية صحيفة .. ليس الوطنية .. ولا الثقافة .. ولا خدمة الشعب ، ولا حرية الرأى .. ولا رفع منار الفضيلة .. ولا ولا .. ولا شئ أبداً من كل هذه الخزعبلات .. إن هدف الصحيفة الأول هو بيع الصحيفة .. هو المكسب .. هو أكل العيش . أما كل ما ذكر فهو ليس من الأهداف فى شئ إنما هو وسائل توصل إلى الهدف الأول .. الربح .. فإذا كانت الوطنية مربحة .. فلتحى الوطنية ، وإذا كان المزول والفكاهة أكثر ربحاً ، فلتسقط الوطنية وليحى المزول والفكاهة .. وإذا كان ذكر الفضائح .. أشد ربحاً فلتحى الفضائح .. وإذا كانت محاربة الرذائل وسيلة لإنتشار الجريدة فلتحى الفضيلة . وإذا كانت الصورة الفاضحة والسيقان العارية والنهود البارزة .. وسيلة ربح .. فلتذهب الفضيلة إلى حيث ألفت .

أكل العيش يا ناس هو غرضنا الأول . وهدفنا الأوحد . ونحن على استعداد

(أرض النفاق)

لأن نفعل كل المتناقضات في سبيل أكل العيش .
منذ بضعة أيام قرأت في إحدى الصحف مقالا يحمل على الشركات السينمائية الأمريكية التي تساعد الصهيونية .. ويطلب كاتبه مقاطعة كل أفلام النجوم والشركات التي تناصر الصهيونيين . وعدد أسماء النجوم والشركات المذكورة وحث الحكومة على ألا تسمح بدخولها إلى مصر .

وكان المقال يفيض حماساً ووطنية ، مما حدا بي إلى أن أقول لنفسى إن الصحيفة تشكر على تلك اليقظة ، وذلك التوجيه ، ولكن نظرى وقع في أسفل المقال على إعلان بالخط العريض .. عن أحد أفلام تلك الشركة التي تحذر الصحيفة في مقالها من مشاهدة أفلامها .

وعجبت من هذا التناقض . كيف تدعو الصحيفة إلى مقاطعة أفلام الشركة الصهيونية .. وفي الوقت نفسه تعلن عن أفلامها ؟

هل علمتم السبب ؟

أكل العيش !

إن الوطنية والحماسة بضاعة رابحة .. والإعلانات كذلك تدر ذهباً .. فماذا يضير الصحيفة من أن تربنا وجهياً .. وجهاً يلتهب حماساً ، ووجهاً يستجدى النقود .. ماذا يضيرها من أن تحذر الناس من أفلام الشركة الصهيونية ، وأن تحثهم في الوقت نفسه على أن يشاهدوا أفلام نفس الشركة — ما دام — كله مكسب !

لست أدري ماذا يدفعني إلى ذكر كل هذا ؟ وإلى أن أكشف لكم نفسى .. وأكشف الصحافة معى ! .. لست أدري ما الذى يدفعني إلى أن أكف عن النفاق وأكون إنساناً صريحاً وألا أندفع كما تعودت أن أندفع في ذكر مواقف الحكومة المشرفة . ترى ماذا يدفعني إلى ذلك .. والمبلغ الذى قبضته بالأمس ما زال يتخم محفظتى والمصاريف السرية لم ينضب معينها ولا جف نبعها !؟

وكيف ينتضب معينا .. وخزانة الدولة مفتوحة لنا على مصراعها ..
مصاريق تتدفق بلا رقيب ولا حساب . إني لأذكر كيف تنوحتها لأول مرة ،
وكان ذلك ذات صباح ، وقد جلست إلى مكتبي .. أكتب المقال اليومي الذي
تعودت أن أكتبه .. والذي كنت أحمل فيه على الحكومة حملة شعواء .. وأهاجمها
هجومًا منكرًا .. لا لأنى أكرهها .. ولا لأنى أريد أن أقوم اعوجاجها وأهدبها
سواء السبيل .. بل لأن صاحب الجريدة أنبأنى أن هذه المقالات ترضى الجماهير
وتروج الجريدة ، فاندفعت أكيل للحكومة النقد والهجاء ، وأنا إنسان طويل
اللسان .. لا أجيد شيئًا أكثر من الهجاء ، إلا المديح الذى دفع ثمنه سلفًا .

ودق التليفون وأجبت :

— ألو .

— الأستاذ (...) ؟

— أجل أنا الأستاذ (...) .

— معالى الباشا يريد أن يكلمك .

وكلمنى معالى الباشا .. وأنبأنى بأنه يريد مقابلتى ، وأنه سيحضر لزيارتى فى
البيت ، وتملكنى العجب .. معالى الباشا بجلالة قدره فى البيت ؟
ومعالى الباشا هذا ليس مجرد وزير .. بل هو وكيل حزب .. وهو القوة
المحركة للدولة .. ترى أى سبب خطير قد دعاه إلى أن يتنازل ويشرفنى بزيارته ؟
وذهبت إلى الدار فأعلنت من بها أن عظيمًا سيشرفنا بالزيارة .. وبعد بضع
ساعات شرف الرجل .

وجلسنا نتحدث فى مختلف الشؤون . وعرجنا على السياسة فعتب على الرجل
عتابًا رقيقًا لمهاجمتى لهم .. وتملكنى من عتابه شيء من الحجل ، ثم بدأ يدخل فى
الموضوع فأنبأنى أنه يسرهم أن أنتقد أعمالهم .. على أن أخفف من حدة بعض
الشيء ، وأنهم طبعًا يعرفون أنى لا أستطيع التحول إلى جانبهم مرة واحدة .
ولكن المسألة يمكن أن تأتى بالتدرج ، وهم على استعداد لتأدية ما أطلب من

خدمات من كافة العيانات .

ولم أدر بم أجيب .. فلو كان الأمر يختص بى وحدى لكان هيئا ، إذا لم يكن أسهل على من التحول ، ولا أسهل على من أن أشيد بالحكومة بنفس الحماسة والحكمة والمنطق التي كنت أهوى بها إلى أسفل سافلين . فالمسألة كلها كما سبق أن أخبرتكم لا تعدو أن تكون أكل عيش .. لكنني كنت أعلم أن هناك صاحب الجريدة ، وأن الغبي يعتقد اعتقادا جازما أن جريدته لن تروج إلا بتلك المقالات التي أهجو فيها الحكومة هجاء مقذعا .

ولاحظ الرجل على التردد .. وكان ذاكيا أريئا .. إذا لم أكد أقول له :
— من ناحيتي أنا .. لا أظن هناك ما يمنعنا من التعاون فأنا في خدمتكم ورهن إشارتكم .. ولكن فقط ..

حتى قاطعني بقوله :

— من الناحية الأخرى اطمئن فقد تفاهمت معه ، واتفقنا .
وأدركت أن الناحية الأخرى قد قبضت ، وأنه وجد أن المصاريف السرية أوفر ربحا من الوطنية ومن هجاء الحكومة .

لست أدري من هذا الذي ابتكر حكاية المصاريف السرية ؟
لقد كان أولى أن يسميها المصاريف السحرية .. نقود متدفقة لا مقطوعة ولا ممنوعة .. كيف لا أتمسك من أجل الحكومة ، وكيف لا أغفر لها الزلات .. وأبتكر الأعذار ؟ كيف لا ألحس سابق تشنيعي ، وأتناسي هجائي المقسذع وشتائمى وسبائى ؟! كيف لا أدق الطبول والزمور ؟! كيف لا أرقص أمامها عشرة بلدى ؟! كيف لا أعمل لها بهلوانا . والمصاريف السرية السحرية تغمرني من كل جانب وتغدق على من كل صوب .

كيف لا أنافق .. بالثمن ، وأنا الذي كنت أنافق مجاثا ، ولوجه .. الله ماذا يضيرني أن أكون منافقا بين ملايين المنافقين في أرض النفاق ؟!
ولكنني اليوم .. أحس بطارئ جديد .. طارئ خطر . قد بدد من نفسي

النفاق وجعلنى عاريًا مكشوفًا ، وسلبنى القدرة على أن أظهر غير ما أبطن ، وأن أقول غير ما أعتقد ، وأن أكتب مجرد أكل العيش .

إنى أحس أن أكل العيش من عند الله لا من عند الإنسان .. أحس أن فى السماء رحمة إلهية .. أكثر نفعًا من المصاريف السرية .

لشد ما أشفق عليكم وعلى الأمة وعلى الصحافة .. إنى أخاف من تلك الصراحة التى تعتمل فى جوفى .. إنى أخشى ذلك الدافع الذى يدفعنى إلى الكتابة لوجه الله ولوجه الوطن .. ذلك الدافع الذى يدفعنى إلى قول الحق فى بلد يخشى الحق ويكره الحق .

اللهم رفقًا بنا .. اللهم هب لنا من لدنك رحمة وهى لنا من أمرنا رشدًا .
اللهم إنى فى غنى عن مصاريفهم السرية ، وعن كل ما يدفع لى لأغير ما بنفسى من صراحة وحق .

إذا كان أكل العيش يجب النفاق .. اللهم اشهد أنى سأموت جوعًا .

وهزئت رأسى رضاء وغبطة وقلت لصاحبى :

— هذا كاتب قد فعلت فيه الجرعة مفعولها .. إننا سنتظر منه خيرًا كثيرًا ، فليس أنفع فى الأرض من أهل الفكر المخلصين الصرحاء الذين يكتبون بقلوبهم ، فهم خير قادة للبشر وخير واق للإنسانية ، ولكننا فى هذا البلد قد أتلفناهم .. فقد تحوّلوا من كتاب وأهل فكر .. إلى باعة كلمات وتجار أفكار .. تستأجرهم الجرائد لقاء أجر شهرى فيوردون لها المقالات بكميات معروفة فى مواعيد منتظمة ، كأنهم متعهدو لحوم وخضار .. يكتبون لمجرد ملء الفراغ وسد الخانة .. فيهذرون ويملاؤون الصفحات بالسخف ، والناس موهومون من أسمائهم الرنانة (التى اكتسبوها بما كتبوا فيما مضى قبل أن تصبح أسمائهم رنانة) يتخيلون فى القشور لبابًا ويقبلون عليها فلا تطعمهم من جوع ولا تروهم من ظمأ .. إن الكاتب منهم لا يكتب حين تنضح فى رأسه فكرة أو حين ينزل عليه وحى ، فهذه أشياء لم يعد لها مكان فى دنيا الروتين .. إنه يكتب بلا فكرة

وبلا وحى . يكتب لأن موعد تقديم المقالة قد حان ، وهو لا بد أن يكتب شيئاً .. أى شيء ، والجريدة لا يهمها ما يكتب من هذر .. فهى لا تريد سوى اسمه .. أما الآن ، فقد أضحى إنساناً آخر ، لقد جولته الجرعة من بائع كلمات إلى كاتب مخلص حر .. والله لو لم تكن هناك فائدة فى الحياة الجديدة سوى ذلك لكفى بها فائدة .. هل هناك خير للبلد من أن يكون أهل الفكر فيها مخلصين أحراراً ١٩

وهز صاحبى رأسه موافقاً ، ولم ينبس ببنت شفة ، فعدت إلى الصحيفة أتابع القراءة .

ووقع بصرى فى أسفل المقال على إعلان سينما .. أضحكنى ما به .. فقد كان إعلاناً بلا نفاق .. وإليك الإعلان كما قرأته :

شركة أفلام الفجر (لصاحبها الحاج متولى بائع الخردة بوكالة البلع) تقدم أسخف وأبوخ أفلام الموسم :

حب بلا أمل

تأليف وإخراج وتمثيل وسيناريو وحوار وتصوير أثقل مخلوقات الله وأغباهم وأجهلهم الأستاذ (...) مع شرذمة من الأفافين والأفاقات .. الضائعات .

فيلم رخيص تافه محشو بالأخطاء الفنية وغير الفنية ومحشو كذلك ببضعة رقصات بلا مناسبة .. ومحكمة وقضاة ووكلاء نيابة .. ومحام يخطب بلا مناسبة أيضاً ، والرواية مفروض فيها أن تكون مؤثرة مفعجة .. فيها حريق .. ومريض بالسل ، ورجل يقتل نفسه بالرصاص .. وآخر يصدمه ترام ، وطفل يقع من رابع دور . ومع ذلك فكل هذه الكوارث والفواجع تبعث الضحك فى النفوس .. أما الشيء المفعج حقاً ، فهى النكات البائخة والتهريج الرخيص المحشوبه الفيلم ، ونحن نخذر الجمهور من مشاهدة الفيلم ونسأله أن يطلب الرحمة

لصاحبه « الحاج متولى » الذى حشر نفسه حشرًا فى تجارة السينما فأضاع
« تحويشة العمر » على الفيلم وعلى الراقصة التى فى الفيلم .
ونظرت إلى صاحبى وقلت ضاحكا :
— هكذا تكون الدعاية والإعلانات وإلا فلا .
ثم لفت نظرى إعلان آخر بعنوان :

أوكازيون

تعلن محلات (..) الكبرى عن أوكازيون تباع فيه البضاعة بنفس السعر
العادى وبدون أى تخفيض .. بضائع قديمة مخزونة ، ليس هناك طريقة لتصريفها
سوى هذا الأوكازيون الصورى .. احذروا الغش والنصب والاحتيال .
وإعلان آخر بعنوان :

النصاب الأكبر

لكى تتروا المعجزات الخارقة زوروا النصاب الأكبر الدكتور (..) المنوم
المغناطيسى وقارئ الكف واللاعب بالبيضة والحجر ، تهويش فى تهويش ..
وغش فى غش ، وتهريج فى تهريج .. هل يعلم الغيب إلا الله ؟
وهكذا ظللت أنتقل من إعلان إلى إعلان .. وكلها قد خلت من النفاق
وملئت بالصراحة والحق .
وتركت الإعلانات جانبًا ، وأخذت أقلب البصر فى الأنباء المحلية .. فقرأت
تحت عنوان :

مجلس الوزراء

اجتمع مجلس الوزراء للنظر في الموقف السياسى .. وظل المجلس مجتمعاً لمدة ثلاث ساعات ، وقد انصرف الوزراء تبدو على وجوههم علامات التعب والإنهاك .. وقد سألنا أحد الوزراء عما تم في الموقف فالتفت إلينا في دهشة وتساءل :

— أى موقف ؟

— الموقف السياسى .. لقد قيل لنا أن المجلس سيبحث الموقف السياسى في هذه الجلسة .

— يجوز .

— وماذا تم فيه ؟

— والله لا أدرى .

— كيف ؟ .. ألم تكن معاليكم موجوداً في المجلس ؟

— كنت موجوداً .. ولكنى سرحت في نصف الجلسة ، ونمت في النصف الثانى .

وسألنا وزيراً آخر توسمنا فيه خيراً ورأينا فيه علامات اليقظة :

— ماذا تم في الموقف السياسى ؟

— لا شيء .

— ألم يبحث المجلس في الموقف السياسى ؟

— لا . ماذا بحث ؟

— لم يبحث شيئاً .. سوى النظر في بعض الترقيات والدرجات والعلاوات ، ثم ضاعت بقية الوقت في خنافة بين وزير التجارة ووزير المالية من أجل التنازع على بعض الاختصاصات .

— وما هي آخر أخبار الموقف الخارجى ؟
ونظر إلينا الوزير فى ضيق وتبرم وأجاب :
— يا أخى حل عنى بقى .. أنا مالى ومال الموقف الخارجى اسأل رئيس الوزراء .

وحاولنا أن نستفهم من رئيس الوزارة .. ولكنه جرى منا وعندما لحقنا به رفع عصاه وهوى بها على أم ناصيتنا ولعن أبانا ثلاثاً .. ثم زاغ بعربته .
وانتهيت من قراءة أخبار مجلس الوزراء ، فانتقلت إلى عمود آخر لأقرأ تحركات الوزراء تحت عنوان (الوزراء) فقرأت ما لى .

انتقل معالى وزير الزراعة إلى الإسكندرية للمرور والتفتيش رغم أنه ليس هناك ما يستدعى لا المرور ولا التفتيش .. فلما سأله عن سبب سفره أنبأنا أنه يجب أن يمر ويفتش على أسوان فى الشتاء ، وعلى الإسكندرية ورأس البر وبور سعيد فى الصيف .

استقبل معالى وزير الأشغال فلان باشا .. وفلان باشا .. ثم أمضى فى مكتبه بضع ساعات وطلب منا أن نذكر أنه يشتغل عشرين ساعة فى اليوم .. وأنه منهك جداً .. وأنه قد خسر بدخوله الوزارة .. وأن الوزارة عبء ثقیل .. وأنه لولا أن الوطن فى حاجة إليه لاستقال منذ زمن .

وقبلت الصفحة فوق وقع نظرى على إعلانات الوفيات فهالنى ذلك التطور الذى طرأ على طريقة النعى .

وتركت الصحيفة جانباً وتناولت إحدى الصحف الحزبية .. فإذا بعنوان على صدر الصحيفة بالخط الأحمر جاء به :

« يجب أن تستقيل الوزارة .. الرئيس يصرح بأنه يريد العود إلى الحكم فوراً .. لأنه مشتاق وبه لوعة » .

وقرأت المقال فوجدت نصفه الأول .. كلاماً عادياً مما تعودت أن أقرأه فى الجريدة .. وهو مهاجمة الوزارة وطلب إقالتها .. أما النصف الثانى فقد اختلف

عما تعودت أن أقرأه .. لقد زال ما به من نفاق ، وأفصححت الصحيفة صراحة .. عن سبب هجومها على الوزارة .. وقالت إن الوزارة قد طال عمرها بلا مناسبة .. وإن أنصار الحزب قد نفذ صبرهم وعلى وشك أن ينفضوا .. وأن المسألة (بقت بأيخه قوى) .

وقلبت الصحيفة فلم أر في عمود الزيارات الذى كان يكتظ بالأسماء زائرا واحداً ، وأدهشنى أن أجد الصحيفة خلّت من التهريج والتضليل . وألقيت بالصحيفة وأمسكت بصحيفة أخرى . فوجدت في صدرها نبأً عجيباً .. بالخط العريض جاء فيه :

سبق صحفى عجيب

الوزارة تحل مجلس النواب ، ومجلس النواب يسحب الثقة من الوزارة .
البلد بلا وزارة .. وبلا مجلس نواب .
ثم قرأت تحت العنوان ما يلى :
جاءنا والصحيفة ماثلة للطبع ، أن مجلس الوزراء قد قرر حل مجلس النواب ..
لأنه كعدمه . ولأنه عبء يرهق ميزانية الدولة بلا أية فائدة ، وفى الوقت نفسه
قرر مجلس النواب سحب الثقة من الوزارة .. لأنها لا تستحق منه الثقة .
ونظرت إلى صاحبى وصحت به فى دهشه :
— أرايت هذا ؟

ثم مددت له يدى بالصحيفة فلما قرأ الخبر هز رأسه وأجاب ببساطة :
— طبعاً .. وزارة بلا نفاق .. لا بد أن تحل مجلس النواب .. ومجلس نواب
بلا نفاق .. لا بد أن يسقط الوزارة
ثم رأيت الدهش قد علا وجهه فجأة ووجدته يحملك فى الجريدة ويهتف بى :
— أقرأت هذا ؟

فهزرت رأسي مستفهماً .. فأجاب :

— هذا الخبر خاص بنا .

— بنا نحن ؟

— أجل .

وخطفت منه الجريدة وسألته :

— أين ؟

فأشار بأصبعه إلى خبر صغير في أسفل خبر الوزارة ومجلس النواب .. وبدأت

القراءة :

وباء الأخلاق

تلقينا والجريدة ماثلة للطبع أن مجرمين شقيين قد ألقيا في النهر كيساً مليئاً
بمسحوق الأخلاق ، وأن وباء الأخلاق قد انتشر بسرعة بين الناس .. ولا شك
أن هذا هو سر ما قد حدث من اضطرابات في كل أنحاء البلد .. وقد علمنا أن أحد
المخبرين استطاع الإرشاد إلى المجرمين وأنه سيلقى القبض عليهما وينالان عقابهما
الصارم .

وهز صاحبي رأسه وسألني في يأس :

— ما العمل الآن .. أما من طريقة للنجاة ؟

(١٧)

خاتمة

هذا الشعب لا بد أن يكون أحد اثنين إما
شعب يكره نفسه لأنه — رغم ما يشيرون عنه
من أنه مصدر السلطات — يأبى أن يصلح
حاله ، ويعالج مصابه ، ويزيل عن نفسه ذلك
القيد الثقيل من الفقر ، والجهل ، والمرض ..
وإما أنه شعب زاهد ، قد تعود ذلك البؤس
الذى يرتع فيه ، والحرمان الذى يأخذ
بخطاه .

لم أكن أرى داعيًا لهذا التشاؤم من صاحبي ، ولا كنت أشعر أن هناك من
الخطر على حياتنا ما يدعونا إلى التفكير فى الفرار ، وألقيت الصحيفة من يدي
وأخذت أفكر فى موقفنا برهة ثم قلت له :

— لست أرى معنى الفرار ، فلا بد لنا أن نسير فى الطريق حتى النهاية .
— أى طريق هذا الذى تود السير فيه حتى النهاية ؟ أما يكفيك هذا الحال
الذى دفعت بنا إليه ؟ ماذا تريد أكثر من هذا ؟!

— أريد أن أشاهد محاكمتنا .. فلا شك أنها ستكون محاكمة طريفة .. هل
أبصرت فى حياتك إنسانًا يحاكم بتهمة إصابة الناس بالأخلاق ، وإزالة النفاق من
نفوسهم !

— يا سيدى لم أبصر ، ولا أود أن أبصر .. ما دمت سأكون أنا ذلك المتهم ؟
— على أية حال .. تود أو لا تود .. ستبصرها مرغمًا . فإني لن أحاول
الفرار ، وإذا أردت أن تهرب فاهرب وحدك .

— إما أن تهرب سويًا .. أو تبقى سويًا .

— قلت لك لن أفر .

— إذا فلتبق وأمرنا لله .

واضطجع صاحبي على البرش واستلقيت بجواره .. ولم نلبث قليلا حتى غلبنا
التعب ورحنا في سبات عميق .

ولم يطل نومنا حتى استيقظنا على صوت الباب يدفع والحارس يصيح بنا لكي
نتبعه إلى النيابة لعمل التحقيق .

وسرنا وراء الشرطى حتى وصلنا إلى حجرة وكيل النيابة ، ودخلت أنا أولا
ووقفت أمام المحقق .. أفحصه ويفحصنى ، وأقلب فيه البصر ، كأن كلا منا
سيشتري الآخر ، وكان هو أول من نطق ، فسألنى قائلا :

— اسمك ؟

فقلت اسمى ، وأجبتة عن بقية الأسئلة الأولية الأخرى ، فلما انتهى منها عاد
يحملق في كأنه يحاول أن يدرسنى أو يكشف عن دخيلة صدرى .. وحملت فيه
أنا الآخر فوجدته متأثقا متحذلقا .. فرحا بنفسه ، مغرورا في سلطانه
وجبروته .. محيطا نفسه بجو من الرهبة .. حتى بدا لي أن الخالق لو هبط من سمائه
ليجرى التحقيق معنا .. لكان أكثر تواضعا .

طال بنا الصمت ، ولم أشك في أن صاحبنا يحاول أن ينسج الشباك ويضع
الخطط لإيقاعى ، فقد وجدته يسأل فجأة :

— أين كنت في الساعة الحادية عشرة مساء ؟

وفكرت برهة ، وأدركت أن الرجل ينوى أن يتعب نفسه ويتعبنا بلا مبرر ولا
داع .. وفضلت أن أختصر الطريق .. وأريحه من عناء التحقيق ، وألقى إليه

الاعتراف كاملا ، فقلت ببساطة :

— يا سعادة البيك .. أرح نفسك .. أنا الذى ألقىت كيس الأخلاق فى النهر ، وإنى على استعداد لأن أكتب وأمضى على هذا الاعتراف .
ورفع الرجل حاجبيه فى دهشة وبدا عليه الامتعاض .. كأنما ساءه أن أسلبه فضل اكتشاف الحقيقة .. وأن أضيع عليه فرصة إظهار ذكائه ونبوغه .

ووجدته يقلب شفتيه ويقول فى ازدراء :

— أجب على قدر السؤال ، وما تبقاش غلباوى .

— ما تبقاش غلباوى انت .. واكتب ما أقوله لك .

وضرب الرجل مكتبه بيده ، واحمر وجهه ، وفتح فاه لينادى العسكرى الواقف بالباب ، ولكن التليفون دق فجأة فرفع السماعه ووضعها على أذنه ، ووجدت أساريه تنفرج وصوته يلين .. ويهمس فى التليفون بصوت رقيق ناعم :

— أهلا وسهلا .. حاضر .. حاضر .. أيوه يا أفندم من عنيه الاثنين .. الساعة سبعة ، ما تتأخرش ، أوريوار .

ووضع السماعه .. ثم نظر إلى وكسا وجهه سيما القسوة والجد والصرامة ، واستدعى بعض الشرر ليتطاير من عينيه ، وفتح فاه ليطلب العسكرى ، ولكن التليفون عاد يدق مرة أخرى .

ورفع السماعه .. فانطفأ الشرر ، وانقلب الغضب خنوعا ، والشدة لينًا وخضوعًا ، وانطبعت على تقاسيم وجهه .. أبلغ آيات الاحترام ، ووجدته يقول بلهجة الرقة والتواضع :

— أهلا وسهلا سعادة الباشا .. تقبل الأيادى يا أفندم . تحت النظر يا أفندم .. حاضر يا أفندم .. أيوه يا سعادة الباشا مضبوط يا سعادة الباشا .. بكل سرور يا سعادة الباشا .. أنا برضه بقول كده يا سعادة الباشا .. برضه أحسن يا سعادة الباشا .. مع السلامة يا سعادة الباشا .

ووضع السماعة وعاد يكسو وجهه علامات الصرامة والغضب .. ولكنه كان قد نسي الباعث على هذا الغضب ، فقد أحدثت به هذه المحادثات المتبادلة كثيراً من الشرود ، وأخذ ينظر إلّى من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل ، محاولاً أن يتذكر سبب غضبه على . أو حتى من أكون وما مسألتي ، وأخيراً نظر إلى الكاتب وسأله متبرماً :

— كنا بنقول إيه ؟

— سعادتك قلت للمتهم ما تبقاش غلباوى .. فأجابكم .. ما تبقاش غلباوى انت .

— أيوه .. أيوه .. تذكرت .

ثم صفق يديه فأقبل الحاجب مسرعاً . وفي تلك اللحظة دق التليفون مرة .
ثالثة .. ورفع الرجل السماعة ووجدته يجيب في ضيق وتبرم .. « يا ستى اطبخی الى تطبخيه .. معرفش .. معرفش .. مش فاكّر .. زى ما انتى عايزه » .
وأدركت أنه لا شك يحدث البيت ، ووجدت الحاجب يقف منتظراً .
فخطر لى خاطر عجيب .. وجدت فيه خير منقلد لنا من غضب وكيل النيابة .. ونظرت إلى الحاجب وقلت له بصوت منخفض :
— البيه عايز يشرب .

وانطلق الحاجب ليحضر كوب ماء !

إن فى كوب الماء خير معين لنا على صاحبنا .. إذ هو كما بدا لى من محادثاته التليفونية .. لم يتجرع من المياه الجديدة .. ولم تتقل إليه عدوى الأخلاق ، ولا تبدد من نفسه النفاق .

ووضع الرجل السماعة .. وفي تلك اللحظة أقبل الحاجب يحمل كوب الماء ووضعه أمامه فمد يده إليه وتجرّعه بدون تفكير .. ثم كسا وجهه علامات الغضب مرة ثالثة والتفت إلى الكاتب متسائلاً :

— هيه .. كنا بنقول إيه ؟!

وتنحج الكاتب وهم بأن يرد عليه ما كتب .. ولكنى قاطعته قائلاً :
— يا سيدى .. أرجوك .. إن المسألة فى غاية البساطة ولا تحتاج إلى كل هذا
التعقيد وتلك الأسئلة .. إنها تتلخص فى بضع كلمات .. إلى أقر وأعترف أنى قد
وضعت عامداً ، ومع سبق الإصرار ، مسحوق الأخلاق فى المياه .. وإنى متالك
لقواى العقلية ، ومستعد لتحمل نتائج كل ما حدث وما سيحدث .. هل تريد
شيئاً أكثر من هذا ؟

وهز الرجل رأسه فى حيرة ودهش كأنه يشك فى سلامة عقلى .. وصاح
بالحاجب :

— هات الرجل الآخر .

وأقبل الحاجب بصاحبى الذى وقف أمام وكيل النيابة فى هدوء وأجاب على
أسئلته الأولية .. ولم ينس أن يذكر أن صناعته تاجر أخلاق بالجملة والقطاعى ،
وأنة مستعد لتوريد الطلبات حتى المنازل (هذا شيء جديد لم أكن أعرفه عن
صاحبى أو ربما كان ابتكاراً جديداً بمناسبة زوال النفاق من الناس ورواج بضاعة
الأخلاق بينهم) .

وصمت وكيل النيابة برهة وبدت عليه الحيرة .. وخيل لى أن مفعول الجرعة
بدأ يؤثر فيه وسمعه يوجه القول إلى صاحبى :

— ماذا تعرف عن كيس الأخلاق ؟

— لى صاحبه .

— ومن الذى وضعه فى الماء ؟

فأشار لى مجيئاً :

— هو .. وإن كنت أعتبر أنى متضامن معه فى كل ما فعل . وأنى أشاركه
المسئولية عن كل ما حدث .. بل وأتحمل عنه كل عقاب .. فإن الذنب ذنبى ..
فهو طائش أحرق لم يكن يدرى قط مغبة عمله .. ولا كان يتصور أنه سيؤدى إلى
تلك النتائج .

وهرش وكيل النيابة رأسه وبدل إلى أن الجرعة تتفاعل في جوفه ، وأن الأخلاق تسرى في نفسه ، وأطرق برهة في صمت ، ثم رفع رأسه متسائلا فجأة :
— منذ متى ، وأنت تملك هذا الكيس ؟
فأجاب صاحبي :
— منذ مدة طويلة .

وهنا بدأ يظهر مفعول الجرعة فقد هز وكيل النيابة رأسه في حسرة وأسف وقال :

— منذ مدة طويلة ، وأنت تملك هذا الكيس !!! يا للأحق المأفون ... وكيف سمحت لنفسك طول تلك المدة أن تحتفظ بالكيس دون أن تلقى به في النهر .. أيها المجرم الأثيم ؟! كيف سمح لك ضميرك بأن تترك النفاق يرعى في جسد الأمة . ويلوث الناس .. دون أن تحاول أن تتقدم لهم بالعلاج ؟
ثم صاح بالحراس طالبا منهم أن يعيدونا إلى السجن ، وهو يتمتم قائلا :
— هذه مسألة خطيرة .. لا بد من عرضها على النائب العام .

وعدنا إلى السجن ، ومر بنا اليوم الأول ثقيلاملا ، وبتنا ليلتنا في نوم قلق متقطع .. وفي الصباح طلبتنا النيابة للتحقيق مرة أخرى .. وقبل أن نذهب إلى وكيل النيابة استطعنا الحصول على إحدى الجرائد الصباحية فقرأنا العنوان الآتي بالخط العريض :

« القبض على المجرمين الخطيرين والتحقيق معهما » .
وكيل النيابة المحقق يصاب بالأخلاق فجأة .. فيطلب تبرئة المتهمين ، أو محاكمتهما على احتفاظهما بكيس الأخلاق مدة طويلة دون أن يلقي به في الماء .
ثم جاء بعد ذلك ما يلي :

قبض في ساعة مبكرة من النهار على المجرمين الآثمين اللذين ألقيا بجرائم الأخلاق في الماء وأودعا السجن رهن التحقيق ، وفي الساعة العاشرة صباحا طلبا للتحقيق ، ولكن أحدهما احتال على وكيل النيابة وسفاه جرعة من الماء الملوث (أرض النفاق)

فأصيب بالأخلاق .. ورفض مباشرة التحقيق ورفع تقريراً إلى النائب العام يطلب منه تبرئة المتهمين أو محاكمتهم بتهمة السكوت على مصاب البلد دون أن يحاول التقدم بالعلاج رغم اعترافهما أنهما كانا يملكان العلاج منذ مدة طويلة . وقد أمر وكيل النيابة بالتنحي عن التحقيق .. وعين آخر لإعادة التحقيق بدلا منه ، وستتخذ الاحتياطات اللازمة لتحسينه ضد وباء الأخلاق .

وقد بلغنا والجريدة ماثلة للطبع أن الجهات المسؤولة قد استطاعت أن تحجز كمية من المياه غير الملوثة التي ستخصص لمن ييدهم الأمر .. ولأصحاب الأمر .. ولأصحاب المناصب العليا الذين تخشى عليهم الدولة من وباء الأخلاق .. ويدخل ضمن هؤلاء كل من سيتولى أمر التحقيق مع المتهمين والنظر في قضيتهم .. حتى لا يتكرر ما حدث من المحقق المصاب .. وحتى ينال المتهمان ما يستحقان من عقاب على سوء فعلتهما .

وقد بلغنا كذلك أن كميات من الماء الملوث قد أعدت للفحص والتحليل ، وأن التجارب ستجرى لمحاولة عمل مصل واق من الأخلاق ، وإن كان الأمل في ذلك ضعيفاً جداً .

ولم يتضح بعد ما إذا كان الوباء ينتقل بالعدوى .. ولكن السلطات المسؤولة جادة في عمل معازل خاصة للمصابين .. وستصدر أوامر للتبليغ عن كل حال اشتباه أو إصابة بالأخلاق .

وطويت الصحيفة ونظرت إلى صاحبي وقلت في يأس :

— لا فائدة .. لقد ضاع منا كل أمل .

وسألني صاحبي في ذعر :

— كيف ؟

— إن المسئولين سيحصنون أنفسهم ضد الأخلاق .. وسيكون وكيل النيابة المحقق سليماً معافى .. وكذلك القضاء .

— هذه نكبة كبرى .. لقد كان كل أملنا في إصابتهم بالأخلاق .. واحسرتاه

لقد ضاع العمر سدى !!

— لن يضيع العمر يا صاحبي .. ولو ضاع . ما ضاع سدى . أهناك خير من
أن نموت ونحيا الأخلاق !؟
— أبداً .. فقط ليتها تحيا .

ووقفنا أمام وكيل النيابة الجديد .. المحصن ضد الأخلاق .. ولم يكن مظهره
يشر بالخير .. بل استطعت أن أقرأ من سيماؤه أنه قد نوى شرًا .
ولم يطل بنا التحقيق .. فقد كان اعترافنا واضحًا جليًا لا يحتمل التحقيق .
ومرت بنا الأيام ونحن في غياهب السجن .. حتى كان ذات صباح استدعينا
للمحاكمة ، ووقفت وصاحبي في قفص الاتهام نقلب البصر بين الجماهير
المحتشدة في ساحة المحكمة .. واستطعنا أن نميز بينهم المعارف والأهل والأصدقاء
وقد أخذوا يلوحون لنا بأيديهم ويسألوننا التجلد والتشجع .
وافتحت الجلسة ، وجلس القضاة يحذقون فينا بنظرات قاسية صارمة ..
وملأني التشاؤم إذ لم يبد عليهم أى أثر للوباء .. وباء الأخلاق .
ونودي على الشاهد الأول .. وهو الرجل الذى كان ينصت إلينا في تلك الليلة
السوداء والذى وشى بنا وأرشد الشرطة إلينا . ولم تستغرق شهادة الرجل سوى
بضع دقائق .. ثم بدئ بعد ذلك في عرض عينات من المجنى عليهم ممن أصيبوا
بوباء الأخلاق وزال من نفوسهم النفاق ، أو ممن أصابهم المجنى عليهم بأضرار
وعاهات .. بعد أن أزيل عنهم حجب الرياء وستر المداينة والكذب .
وبدأ وكيل النيابة يسرد التهمة في تفصيل وإسهاب قائلا :

— أمامكم أخطر مجرمين عرفهما التاريخ .. مجرمان تضاءلت أمام جريمتهما
كل جرائم عرفتها الإنسانية وارتكبتها البشر .

لست أدري أى عقاب يمكن أن يتناسب وفداحة الإثم الذى ارتكباه ، فإن
المشرعين الذين وضعوا القوانين لم يخطر على بالهم قط أن هناك إنسانا يمكن أن
يرتكب تلك الجريمة التى ارتكباها .

هذان المجرمان الماثلان أمامكما .. قد تسببا في فناء البشر .. لقد جردا الناس من خير قناع كانوا يخفون به خبايئهم وشرورهم .. لقد كشفوا عن حقيقتهم المروعة وتعرت نفوسهم من كل ما كان يسترها ويحجب عوراتها .. كيف يستطيع الناس أن يحبوا بلا نفاق ؟! كيف يستطيعون أن يحتلم بعضهم بعضًا ..؟ كيف يستطيع الزوج أن يعيش مع زوجته لحظة بلا رياء ولا نفاق ؟ كيف تستقيم الأمور وكيف تنقضى المصالح ؟! كيف تنتظم الحياة ويتعامل الناس وقد خلوا من النفاق ؟!

كيف تنشأ الأحزاب ، وتؤلف الوزارات ؟! من ينادى بأمانينا الوطنية .. ومن يخطب .. ومن يكتب ؟

كيف يحدث كل هذا .. بعد أن زال النفاق ؟! وماذا يقول الخطباء ويكتب الكتاب ؟! وماذا تفعلون أيها القضاة وماذا يفعل المحامون .. بعد أن انتشر وباء الأخلاق ؟!

إن البشر سينتحرون جزعًا وفزعًا إن لم يدركنا الله برحمة من عنده .. فيعيد إلى أنفسنا ما تبدد من نفاق ..، ويزيل عنا ما ابتلاها به هذان المجرمان من أخلاق . يا حضرات القضاة والمستشارين .. لست أرى داعيًا للإطالة .. فالجريمة واضحة وضوح الشمس ، والمجرمان معترفان .. فلا تأخذكم بهما رحمة ولا شفقة .. فإن نفسيهما الشريرتين وجسديهما النجسين لا يستحقان أية رحمة .

إنى أطلب أن تحكموا عليهما بالإعدام .. وبودى لو استطعت أن أطلب أكثر من هذا ، فإنى أرى في مجرد إعدامهما رحمة بهما وخلاصًا لهما من هذه الدنيا الموبوءة بالأخلاق .

يا حضرات القضاة والمستشارين .. لست أرى داعيًا للإطالة .. هل ترون مبالغًا .. لو سألتكم أن تحكموا عليهما بالإعدام .. على أن يكون الحكم مشفوعًا بتوصية إلى السماء تؤدى بهما إلى جهنم وبئس القرار .. إننى أعلم أن فى طلبى

هذا شيئاً من الغرابة .. وأن ليس من سلطة القضاء التوسط لدى السماء .. ولكن لِمَ لا نجرب . على أن تكون التوصية في صورة دعاء حار .. يدعو فيها القضاء على المتهمين بأن يجرب الله بيتهما .. ويمرط بهما السماء ويسود آخزتهما .. ولا يريهما نصفة ولا حسنة .. ولا يعطف عليهما بلحظة في الجنة ، بل يخلدهما في الجحيم مع أمثالهما من الأبالسة والشياطين .

وصمت وكيل النيابة وأخذ يجفف عرقه بمنديل في يده وطلب جرعة ماء .. فأخرج أحد الشرطة زجاجة من جيبه وأفرغ له منها في كوب في يده ، فتناول الرجل جرعة واحدة وبدأت عليه علامات الاشتزاز وهمس قائلاً :

— هذا هو المصريح به لسعادتكم بأمر الحكومة .

وصمت الرجل مكرهاً ووضع الكوب أمامه على المنضدة .. ونظرت إليه وهززت رأسى في أسف ودهشة .

هذا الرجل لم يكتف بأن يسأل القضاة بحكمهم الأرضى بل يطلب منهم التدخل في حكم السماء .. آه .. من لى بجرعة واحدة من المياه الملوثة .. أدفع بها في جوفه !

ولم أكن قد طلبت محامياً للترافع عنا .. فقد كنت موقناً من براءتنا .. واثقاً من قدرتى على الدفاع عن نفسى وعن صاحبى .

وطلبت كلمة الدفاع .. فقلت لهم إنى سأتكلم بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن صاحبى ، وبدأت مرافعتى قائلاً :

— يا حضرات المستشارين .. كم كان بودى لو تفوقتم تلك المياه الجديدة التى لوثت بالأخلاق .. والتى وضعمونا من أجلها في هذا القفص ، والتى دفعت بوكيل النيابة إلى أن يسألكم أن تحكموا بالإعدام علينا .. ولكنى أعرف أنها محظورة عليكم ، ومع ذلك فإنى سأحدث إليكم فما زال أملى في عدالتكم كبيراً .. رغم أنكم لم تصابوا بعد بالأخلاق .

قضيتنا اليوم .. تلخص في كلمتين .. هى .. نفاق .. أو لا نفاق .. هل

يمكن أن تستقيم الحياة بلا نفاق .. أم لا بد لها من النفاق ١١٩
دعكم من تلك المظاهرات ، وهذه الاضطرابات التى ترونها .. فلست أرى
فيها إلا رد فعل سرعان ما سيزول ، وسرعان ما ستعود بعده أن نبصر أنفسنا
سافرين مجردين من حجب النفاق والرياء .. فنعمل على إصلاح ما فسد ..
وتقويم ما اعوج .

أقسم لكم أيها السادة أننا سنصلح فى بضعة أشهر ما عجزنا عن إصلاحه فى
عشرات السنين .

هل يعجبكم هذا الحال الذى نحن عليه ؟! هل يعجبكم هذا العالم الذى نعيش
فيه .. والذى يتحكم فيه نفر من البشر ، يدفعون بالشعوب إلى أتون الحروب ،
كأنها خراف الضحية أو كباش الفداء .. فداء أنفسهم الخبيثة الحمقاء ، ونفاقهم
المر الكريه ؟!

من يستطيع منكم أن يفهم السياسة الخارجية الخبيثة الملتوية .. المليقة بالنفاق
والرياء .. كل منهم يستر شروره وراء ستار زائف من الدفاع عن الحرية والمبادئ
السامية ، والشعوب مستسلمة راضخة ، لم تكد تحجف دماؤها أو ترم خرائبها
حتى يلوحوا بخراب جديد ودمار عاجل .

لو زال النفاق من الدنيا ، لكشف هؤلاء اللؤماء ، عن دخيلة أنفسهم ،
وخبائث صدورهم ، ولأدركت الخراف الآدمية أنها الضحية ، كاسية كانت أو
خاسرة ، ولأحجموا عن أن يساقوا إلى المذابح البشرية .

هؤلاء المنافقون الذين يقودون العالم إلى الهلكة ، هؤلاء الذين يسمونهم
بالسياسيين الذين يظهرون غير ما يظنون ، ويقولون ما لا يعنون ، المضللون
المطففون ، الذين يضللون الناس فى غياهب النفاق وظلمات الرياء ، ويضلون
هم أنفسهم ، ويتخبطون فى دياجير من الشك ويحيدون عن جادة الصواب ،
ولا يعرفون ماذا يريدون ، ويصبح الأمر بين أيديهم أشبه بخيط معقد ملتو لا
يعرفون أوله من آخره ، فيلجئون إلى العنف والتهديد بالحرب ، وينزلون بالبشر

إلى مستوى الحيوان ، الذى يعجز عن التفاهم بعقله ، فيعض بأسنانه أو يرفس برجليه .

لو تبدد النفاق من النفوس لأفلحت هذه العصابات التى أنشئوها لحراسة الأمن وإقرار السلام .. هذه الهيئات الصورية التى تجمع قوماً من المنافقين المخادعين الفجرة الأشرار ، الذين لا يرون الحق إلا فى جانب القوى .. أما الضعيف فصيحته لا تصل إلى آذانهم ، والذين يدينون القتل لأنه أجهد القاتل فى قتله ، ويؤنبون المضروب لأنه أزعج الضارب بصياحه .
لولا النفاق ، ما سلب من صاحب حق حقه ، وما طرد شعب من أرضه ليحل الغريب فى أرضه .

لولا النفاق ما اعترف بالضعيف رباً للبيت ، وهرب البيت دخيلاً متهجماً .
لولا النفاق يا سادة ، ما اتهم أصحاب القنبلة الذرية العرب المسالين بأنهم خطر على الأمن والسلام .

هذه يا سادة هى سخرية النفاق والمنافقين .. يا لها من سخرية رائعة !!
يا حضرات القضاة .. هذا هو بعض ما فعل النفاق بالعالم .. أما ما فعل بأمتنا فهو جم وفير .

أمة من عشرين مليوناً ، يعيش ثلاثة أرباعهم على هامش الحياة ليس بهم من الآدميين شبه ولا صلة .

أمة يعيش ثلاثة أرباعها ، عيش البهائم .. حفاة عراة ، لا يكادون يأخذون من الحياة إلا ما يقيهم على قيد الحياة .

أمة ثلاثة أرباعها عبيد ، لا يملكون من أمرهم شيئاً ، ومع ذلك فهى أمة ديمقراطية ، بها برلمان والسلطة فيها هى سلطة الشعب .

يا للنفاق !! ويا للرياء !!

تصوروا أن السلطة فى هذا البلد هى سلطة الشعب !!

هذا الشعب لا بد أن يكون أحد اثنين .. إما شعب يكره نفسه لأنه — رغم ما يشيعون عنه من أنه مصدر السلطات — يأبى أن يصلح حاله ويعالج مصابه

ويزيل عن نفسه ذلك القيد الثقيل من الفقر والجهل والمرض ، وإما أنه شعب زاهد قد تعود ذلك البؤس الذى يرتع فيه والحرمان الذى يأخذ بخناقته .. أو من يدرى ربما يكون .. من فرط حبه لأولى الأمر فيه ، وولعه بأسياذه .. قد أبى إلا أن يحرم نفسه العيش ليؤكلهم الفطائر . فيجوع ليتخموا ، ويموت ليحيوا !!
يا للنفاق ! يا للرياء !!

هذا الشعب — مصدر السلطات — ماذا فعلوا لإصلاح حاله ؟ إنهم يبدون كأنهم يفعلون الشيء الكثير ، ومع ذلك فما ظهر أثر هناك لما فعلوا وما يفعلون .. ترى ما السبب ؟ السبب بسيط ، هو أن كل ما فعلوه نفاق فى نفاق !!

إى والله ، إن النفاق ، هو أصل الداء ، ومنبع العلة ، فلو أنهم فعلوا لظهرت آثار ما فعلوا ، ولو أنهم لم يفعلوا لأدرك الشعب أنهم لم يفعلوا ، فعرف كيف يفعل هو !!

لنستعرض بعض ما فعلوا لتعرف مبلغ ما به من صدق ومبلغ ما به من نفاق ، لنستعرض تلك المشروعات التى هللوا لها وكبروا ، والتى ملأوا الدنيا حولها دعاية وضجيجًا .

إلى لأذكر الآن أحدها وهو مشروع مجانية التعليم الابتدائى الذى طلبوا له وزمروا ، وهتفوا له وصفقوا ، اعتبروه منحة للشعب البائس التعس ، وخطوة فى سبيل إصلاحه ، ومازالوا حتى الآن يتفاخرون به .

ترى هل أدى المشروع غرضه ؟ وهل أتاح لأبناء الشعب التعليم المجانى ؟

كلا والله .. لقد كان المشروع منحة لأبناء الأغنياء ، بلا أية مناسبة !!

فالمفهوم أنه قبل أن تعم المجانية فى التعليم ، يجب أن تعم وسائل التعليم ، وأن يكون لدينا من المدارس ما يكفى لهذا التعليم عندما يصبح مجانًا ويقبل عليه كل أبناء الشعب ، ولكن الذى حدث هو أن عمت مجانية التعليم وبقيت وسائله محدودة كما هى لا تكاد تسمح إلا بالعدد الذى كان يتعلم أولا ، وأصبحت المجانية

مقصورة على من يقبل في تلك المدارس وضمنهم أو أولاد الأغنياء .. الذين سيفضلون بالطبع — ونحن في بلد الوساطات — عند القبول على غيرهم من أولاد الفقراء !

وهكذا وجد وزير المالية ، ووزير المعارف ، أبناءهم يتعلمون مجاناً ، واستمر أبناء الشعب المساكين ، لا تتاح لهم فرصة التمتع بالمجانبة ، لأنهم لم تنح لهم فرصة الدخول في المدرسة .

كل هذا لأن المشروع لم يقصد به سوى الدعاية ، ولأن أصحابه كانوا من كبار المتافقين .

ومشروع رفع أجور العمال .. ماذا كانت فائدته ؟
ماذا يمكن أن تكون فائدة مشروع لا يطبق إلا على القلة من العمال الحكوميين .. أما العامل الزراعي ، وهو الأغلبية العظمى في هذا البلد ، فما زال كما هو .

ومشروع الحفاء ومشروع البر ، وغيره ، وغيره ، من كل هذه الفقايع التي تذهب جفاء ، والتي لا نحس منها سوى الفرقعة الجوفاء والرنين الزائف .
وتلك الاجتماعات ، والخطب ، والمشروعات التي تطلعنا على صفحات الجرائد بالخط العريض ، وكلها نفاق في نفاق .

هل رأيتم أيها السادة ، أمة تعالج بالنفاق كهذه الأمة ؟
لقد عالجوا مرض الشعب باللجان والاجتماعات ، وقضوا على فقره وجوعه ببضعة مطاعم وولائم ، وعلى جهله بالوعود والتمنيات .
أتراهم يظنون أن الشعب هو هذه القلة المحيطة بهم ؟! أتراهم يخدعون أنفسهم أم يخدعون الشعب ؟!

كل هذا أيها السادة مبعثه النفاق ، وأقسم لكم أنه لو استمر الحال على ذلك لكان السادة أول ضحاياه .. أجل إنهم سيكونون أول من يجنى عاقبة نفاقهم ، فما بمثل هذا يكون لإصلاح حال الرعية وعلاج مصاب الشعب .

أيها السادة .. إن النفاق هو الذى فعل بنا ما فعل .. إن المنافقين الذين يحيطون بأولى الأمر ويخفون عنهم الحقائق ويدلون الأمور ، هم شر ما ابتلى به أولو الأمر وابتلى به الشعب ، هؤلاء هم الستار الزائف الذى يزين لأولى الأمر المساوئ .. ويجمل الشرور ، ويملؤهم رضا وارتياحاً .. ماذا تخشون إذاً من زوال النفاق ؟ أو بعد كل هذا تعتبرون من أزال من نفوسكم النفاق مجرمًا أثيمًا يستحق الحكم بالإعدام ؟

يا حضرات القضاة والمستشارين : إني بحكمكم راض ، احكموا على بالموت إذا شئتم .. فحبذا الموت فى سبيل القضاء على النفاق .

وانتهيت من المرافعة وساد القوم سكون عميق ، ثم هبت بعده عاصفة من الهتاف والتصفيق من جمهرة المتفرجين ، وقال القاضى بصوت عميق بأن الحكم بعد المداولة ، ونهض القضاة وخلفهم أحد الحجاب يحمل الزجاجاة إياها المليئة بالماء غير الملوّث والذى يقههم شر الأخلاق .

ونظرت إلى الحاجب فى حسرة وأسى وتمنيت لو سقطت منه الزجاجاة فتحطمت وسكب ما بها حتى لا يجد القضاة ما يشربونه سوى الماء المزوج بالأخلاق .. لقد كان هذا هو أملى الوحيد !

وناديت الحاجب ، فتوقف برهة ، ثم اقترب من القفص ، وهمست فى أذنه : — أنا فى عرضك .

وهز الرجل رأسه مستفهماً عما أريد ، فأردفت قائلاً :

— روحى فى أيديك .

ورأيته ينظر لىّ فى عطف شديد ويحيينى قائلاً :

— لا تخف .. لست فى حاجة إلى رجاء ، فإنى أعرف ما تريد .. إني أفهم كل

شئ ، وكيف لا أفهم ، وقد شربت من مائك وزال من نفسى النفاق ؟ ومضت فترة من الوقت ، وأنا أدعو الله أن يصيب القضاة بظماً شديداً ، وأن ينجح الحاجب فى إبدال المياه التى بالزجاجاة .

وأخيراً عاد القضاة ، ولم أنظر إليهم ، بل نظرت إلى الحاجب ، وإلى الزجاجة في يده ، فإذا بها كما هي ، لم تنقص قيد أنملة ، ورأيت الحاجب يهز رأسه في حسرة وأسى .

وأسقط في يدي وشعرت باليأس وأصابني هبوط شديد ، ونظرت إلى صاحبي ، وقلت له في حزن :
— لا فائدة .

وكان التجهيم يبدو على وجه القاضى والقسوة تشيع في ملامحه ، وبدأ فى قراءة الحكم فى لهجة صارمة فقال :

— إن جريمتكما كما قال المدعى ، هى شر ما عرف التاريخ ، وإن القانون لم يضع العقاب الذى يتعادل وخطورتها ، فإن حكم الإعدام أقل مما تستحقانه ، ولقد خطر لنا أن نعززه بالدعوات التى يطلبها النائب العام ، ولكننا خشينا ألا تستجاب دعواتنا .. وهكذا وجدنا أنه لا بد لنا من التفكير فى عقاب أشد قسوة ، وأخيراً اهتمدنا إليه .

إن حكم الإعدام سينقذكما من الحياة ، وتكون النتيجة أنكما تفران من الدنيا بعد أن فعلتما فعلتكما ، وتركتما البشر بلا نفاق يعانون من الأخلاق ومصائبها وبلا ياهها ، ولذا فقد رأينا أن أقسى عقاب يمكن أن نحكم به على مثلكما ، هو ألا نتيح لكما فرصة الفرار ، وأن نبقىكما فيها لتقاسيا من شرورها ولتتحملا نتائج عملكما .. وعلى ذلك فقد استقر رأينا على أن المسألة فى غاية البساطة ولا تحتاج إلا لأن نحكم عليكما بالحياة .

وساد الصمت وتملكتنى دهشة شديدة ، ثم هجمت على صاحبي أوسعها عناقاً وتقبيلاً ، وعلت من ناحية المتفرجين ضجة وصياح وهتاف وتصفيق .
ولم تمض لحظة حتى وجدت نفسى وصاحبي مطلقى السراح وقد حملتنا الجماهير على الأكتاف وساروا بنا يشقون الشوارع فى مظاهرة صاخبة وقد تعالت هتافاتهم :

— يحبى عدو النفاق — يسقط النفاق والمناقون — لا نفاق بعد اليوم —
نريد ماء الأخلاق — ليسقط أعداء الأخلاق .
ورأيت شعبة من المظاهرة تتجه لتريق الماء غير الملوث الذى احتفظ به أولو
الأمر لينجيهم من وباء الأخلاق وليرغموهم على شرب الماء الملوث .

وهكذا سرت الأخلاق بين الناس ، وتبدد منهم النفاق وذهبت موجة الفرع
التي أصابتهم عندما كشف القناع عن نفوسهم وظهرت لهم خباياهم وخسبهم
ولؤمهم ، وأحسوا بما هم عليه من ضعة وسوء ، فتملكهم الحزى والتجمل
وأخذ كل منهم يستر عورة نفسه التي كشفها ضياع النفاق .

وبدأت الأمور تستقيم بعد فترة اضطراب فتوى الأمور في البلد قوم غير
منافقين ، وأجريت فيها لأول مرة انتخابات حرة ، وتكون برلمان بلا نفاق ،
فأضحى الشعب حقاً هو مصدر السلطات وبدأ في إصلاح حاله ، وإقاله عثرته ،
ووضعت من أجله المشروعات النافعة المجدية ، وردت إليه حقوقه الضائعة ،
وأخذ من غنيه حق فقيره ، وأطعم من جوع وكسى من عرى ، وأضحى يتمتع
في عيشه بما يتمتع به الآدميون .

وراجت تجارة صاحبي ، وأقبل الناس عليه يطلبون المزيد من الأخلاق .
وجلس في الحانوت لأشركه في تجارته وأوزع على الناس شريكات
الشجاعة ، احتفالاً بنجاحنا في تبيد النفاق وفي إغراء الناس بالأخلاق .

ووجدت صاحبي يصبر على ألا يتناول من الناس ثمن ما يبيعهم قائلاً لهم : إن
الحساب يوم الحساب ، فزاد بذلك من إقبال الناس عليه ، وتوافدوا على الحانوت
من كل حذب وصوب ، ولم يطل بنا الأمر ، حتى كان كل ما بالحانوت من
أخلاق قيد نقد ولم يعد به سوى أكياس فارغة .

وجلست وصاحبي في الليل أسأله : ماذا ستفعل عندما يقبل الناس علينا في
الغد فلا يجدون لدينا شيئاً من الأخلاق ؟

وهز صاحبي رأسه وأجاب :
— اطمئن .. إن الأخلاق لا تنفد أبدًا ، سأعوضهم عن المسحوق بيبضع
كلمات تصلحهم مدى الحياة .

وفي الصباح أقبل القوم على الحانوت يتزاحمون ويتصايحون ، وخرج صاحبي
إليهم فأسكتهم بإشارة من يده ، وسألهم في رفق :

— ماذا تريدون ؟

فتصايح الناس : أخلاق ، شجاعة ، نزاهة ، إخلاص .

فعاد صاحبي يشير إليهم بالسكوت :

— صبرًا .. هذه كلها أشياء موجودة في نفوسكم ، ولكنها راقدة في غفوة ،
لقد علاها الصدأ من طول الركود ، شيء واحد هو الذي يحركها ، وهو أن
تتبعوا بإخلاص قول القائل : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » . لا تفعل
شيئًا إلا إذا تذكرت كيف تود أن يفعل معك غيرك .. ضع نفسك دائمًا مكان
سواك ، ثم عامله كما تعامل نفسك ، إذا وددت أن يظلمك غيرك فاطلم .. إذا
رغبت في أن يشي بك غيرك فارتكب التهمة والوشاية .. إذا أردت أن يقنصو
عليك الناس فاقس عليهم .. إذا أردت أن تؤكل أموال أولادك إذا ما تيتموا فكل
أموال اليتامى .. إذا أردت أن يخونك الناس فخهم ، وإذا أحببت أن تهان فقدم
الإهانة .

إيها الناس .. إذا أمكنكم أن يعامل بعضكم بعضًا كما تعاملون أنفسكم فكفى
بهذا دينًا .. إن الدين عند الله المعاملة .

وصمت الناس برهة ، ثم وجدتهم يقبلون بعضهم على بعض فيتصافحون
ويتعانقون ، ثم ينصرفون عنا شاكرين هاتئين ، وقد علا البشر وجوههم ،
وبدت عليهم القناعة والرضا .

وأخيرًا خلا المكان إلا منى ومن صاحبي ومن مخلوق آخر جلس ينظر إلينا في
هدوء وهو الفأر « شولخ » .

وأمسك صاحبي بالفأر فوضعه في جيبه ثم مديده إلى وشد على يدي وهمس في أذني : أستودعك الله ، لقد بلغت الرسالة ، أشكر لك معاونتي على تبليغها .
وشددت على يده وأجبتة :
— الشكر لك أنت .

وافترقنا .. وذهب كل منا في طريقه وهو يهتف بي :
— لا تنس هذا القول الذي تحفظونه عن ظهر قلب دون أن تحاولوا قط العمل به : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » .

* * *

هذه قصة النفاق والمنافقين وأرض النفاق ، قصة قد يكون فيها بعض الشطط وبعض الخيال ، ولقد كنت أنرى أن اختمها كما يختم كتاب القصة عادة قصصهم الخيالية ، على أنها حلم ، وعلى أنى فتحت عيني فوجدت نفسى راقدًا على الأريكة في الدار .

ولكن يخيّل إلى أن ما بها من حقائق قد طغى على ما بها من خيال ، حتى بت أربأ بها — وهى صيحة خالصة منطلقة من أعماق صدرى — أن تكون مجرد حلم .. فاعذرونى إذا ما ختمتها عند هذا الحد ، واعذرونى إذا ما ادعيت أنها حقيقة واقعة . وأن خاتمها أمنية نجيش في صدرى .

يا أهل النفاق !! تلك هى أرضكم .. وذلك هو غرسكم .. ما فعلت سوى أن طفت بها وعرضت على سبيل العينة بعض ما بها .. فإن رأيتموه قبيحًا مشوها ، فلا تلمونى بل لوموا أنفسكم .. لوموا الأصل ولا تلموا المرأة .
أيها المنافقون !! هذه قصتكم ، ومن كان منكم بلا نفاق فليرجمنى بحجر .

(تمت)

رقم الإيداع : ٨٨ / ٤٤٢٦
الترقيم الدولي : ٣ — ٠٤٢٣ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل مكتبي - البغداد

الثنى ٦ جنيهات

دار مصر للطباعة
سعد جوده النجار وفركاه